الحديقة السرية

فرانسيس هودجسون بيرنت

الحديقة السرية

تأليف
فرانسيس هودجسون بيرنت

ترجمة
زينب عاطف

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنداوي

الحديقة السرية

فرانسيس هودجسون بيرنت

The Secret Garden

Frances Hodgson Burnett

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٩٤٦ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١١
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق الخاصة بترجمة وتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤٫٠. جميع الحقوق الخاصة بالعمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.
All rights related to translation, design, and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All rights related to the original work are in the public domain
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/
The Secret Garden/Frances Hodgson Burnett; this work is in the public domain.

المحتويات

١- لم يبقَ أحد ٧
٢- الآنسة ماري المشاكسة ١٣
٣- عبر المستنقع ٢١
٤- مارثا ٢٥
٥- بكاء في الرواق ٣٩
٦- «هناك أحد يبكي، هناك أحد!» ٤٥
٧- مفتاح الحديقة ٥١
٨- أبو الحنَّاء مرشد الطريق ٥٧
٩- أغرب منزل عاش فيه إنسان ٦٥
١٠- ديكون ٧٥
١١- عُش طائر سمنة الدبق ٨٥
١٢- «هل يمكنني الحصول على قطعة من الأرض؟» ٩٣
١٣- «أنا كولن» ١٠١
١٤- الأمير الصغير ١١٣
١٥- بناء العُش ١٢٣
١٦- قالت ماري: «لن أفعل!» ١٣٣
١٧- نوبة غضب ١٤١
١٨- «عليكِ ألا تضيعي أي وقت» ١٤٧
١٩- «لقد حلَّ!» ١٥٣
٢٠- «سأحيا إلى أبد الآبدين» ١٦٣

٢١- بِن ويذرستاف ١٧١
٢٢- حين غربت الشمس ١٨١
٢٣- السحر ١٨٧
٢٤- «دعيهما يضحكان» ١٩٩
٢٥- الستار ٢٠٩
٢٦- «إنها أمي!» ٢١٥
٢٧- في الحديقة ٢٢٥

الفصل الأول

لم يبقَ أحد

عندما أُرسلت ماري لينوكس إلى ضيعة ميسلثويت لتعيش مع زوج عمَّتها، قال الجميع إنها أقبح طفلة رأوها على الإطلاق. وكان هذا صحيحًا؛ فقد كان وجهها صغيرًا ونحيلًا، وجسدها نحيلًا ضئيل الحجم، وشعرها خفيفًا فاتح اللون، وذات وجه فظٍّ شَكِس. كان شعرُها أصفر اللون ووجهُها أيضًا؛ وذلك لأنها وُلِدت في الهند وكانت دومًا مريضة بشكل أو بآخر. تقلَّد والدها منصبًا في الحكومة الإنجليزية، وكان منشغلًا طوال الوقت ومريضًا هو الآخر؛ أما والدتها فكانت رائعة الجمال ولا تهتمُّ إلا بارتياد الحفلات وتسلية نفسها مع أشخاص مُستهترين. لم تكن ترغب في إنجاب فتاة صغيرة على الإطلاق، وحين وُلِدت ماري أوكلت رعايتها لخادمة محلية، أدركت أنها إن أرادت إرضاء سيدتها الأوروبية الأرستقراطية، فعليها إبقاء الطفلة بعيدًا عن الأنظار قدْر المُستطاع. لذلك حين كانت رضيعة مريضةً ومشاغبة وقبيحة الشكل، بقيت بعيدًا عن الأنظار، وحين خطَت خطواتها الأولى وهي على الحال ذاته، بقيت بعيدًا عن الأنظار أيضًا. لا تذكر قَط أنها رأت أي شيء مألوف عدا الأوجه الداكنة لمربيتها والخدم المحليين الآخرين، ولما كانوا يطيعونها دومًا ويَتركونها تفعل ما يحلو لها في كل شيء؛ لأن السيدة ستغضب كثيرًا إذا انزعجت من بكائها، فقد أصبحت طفلة مدلَّلة أنانية ومتكبِّرة إلى أقصى حدٍّ حين بلغت السادسة من عمرها. أبغضتها المربِّية الإنجليزية الشابة التي جاءت لتُعلمها القراءة والكتابة كثيرًا لدرجة أنها تركَت وظيفتها بعد ثلاثة أشهر، وحين جاءت مربِّيات أخريات وحاولْنَ شغل هذه الوظيفة، كُنَّ دومًا ما يَرحلْنَ بعد فترات أقصر من المربِّية الأولى. لذا لو لم تكن ماري قد اختارت أن تتعلَّم بالفعل قراءة الكتب، لما تعلَّمتْ قراءة أحرف الهجاء على الإطلاق.

في صباح أحد الأيام الشديدة الحرارة، حين كانت في حوالي التاسعة من عمرها، استيقظَت من النوم وهي تشعر بضيق بالغ، وازداد شعورها بالضيق حين رأت أن الخادمة التي تقفُ بجوار سريرها ليست خادمتها المعتادة.

سألت السيدة الغريبة: «لماذا أتيتِ؟ لن أدعَكِ تبقين؛ أرسلي لي خادمتي.»

علت علامات الخوف وجه السيدة، ولكن ما كان منها إلا أن تمتمَت قائلةً إن الخادمة لم تستطع الحضور، وحين انفعلت ماري وبدأت في ضرب الخادمة وركْلها، تملَّك الخوف الخادمة أكثر، وكرَّرت على مسامعها أن الخادمة لا يُمكنها الحضور إلى الآنسة الصغيرة.

كان ثمَّة شيء غامض في أجواء هذا الصباح. فلم يحدث أي شيء بترتيبه المعتاد، وبدا غياب كثير من الخدم المحليين، بينما من رأتْهم ماري كانوا إما ينسلُّون خِلسة أو يسيرون متعجِّلين ووجوههم شاحبة وتبدو عليها علامات الذُّعر. لكن لم يقُل لها أحد أي شيء، ولم تأتِ خادمتها المعتادة. وتُركت وحيدة طَوال الصباح، وأخيرًا خرجت لتتجوَّل في الحديقة وبدأت تلعب وحدها تحت إحدى الأشجار بالقرب من الشُّرفة. تظاهرَت بأنها تصنع حوضًا للأزهار، وكدَّست أزهار الكركديه الكبيرة القرمزية في أكوام صغيرة على الأرض، وكان غضبها يزداد بمرور الوقت وتُتمتِم لنفسها بالأشياء التي ستقولها والشتائم التي ستكيلها إلى الخادمة عند عودتها.

أخذت تقول: «خنزيرة! خنزيرة! وابنة الخنازير!» فقد كان نعت أحد المحليِّين بلفظ خنزير أسوأ إهانة على الإطلاق.

كانت تصرُّ على أسنانها وتُردِّد هذا مِرارًا حين سمعت والدتها تخرج إلى الشرفة مع شخصٍ ما. كانت برفقة شاب أشقر ووقفا يتحدَّثان معًا بأصوات غريبة مُنخفِضة. كانت ماري تعرف الشاب الأشقر الذي بدا كصبي صغير. فقد سمعَت أنه ضابط صغير السن للغاية وصل للتوِّ من إنجلترا. حدَّقت الطفلة فيه، ولكنَّها حدَّقت أكثر في والدتها. كانت تفعل هذا دومًا حين تُتاح لها فرصة لرؤيتها، لأن السيدة الأوروبية — إذ اعتادَت ماري أن تُلقِّبها بذلك أكثر من أي لقب آخر — كانت طويلة ورفيعة وجميلة وترتدي ثيابًا غاية في الروعة. كان شعرها يُشبه الحرير المُجعَّد، وكان أنفها صغيرًا ورقيقًا، بدا عليه أنه يترفَّع عن الأشياء، وكان لها عينان كبيرتان ضاحكتان. كانت كل ملابسها خفيفة ومريحة، وقالت عنها ماري إنها «مليئة بالدانتيل». كانت ملابسها تبدو مليئة بالدانتيل هذا الصباح أكثر من أي وقت آخر، لكنَّ عينيها لم تكونا ضاحكتين على الإطلاق، بل كانتا متسعتين يملؤهما الذعر وقد ارتفعتا في توسُّل نحو وجه الفتى الضابط.

سمعتها ماري تقول: «هل الأمر بهذا السوء؟ أهو كذلك؟»

ردَّ الشاب بصوت مرتجف: «إلى أبعد حدٍّ، إلى أبعد حدٍّ يا سيدة لينوكس. كان عليكِ التوجه إلى التلال منذ أسبوعين.»

اعتصرت السيدة الأوروبية يديها معًا.

وصاحت: «آه، أعلم ذلك! لقد بقيت فقط من أجل الذهاب إلى حفل العشاء السخيف هذا. يا لي من حمقاء!»

في تلك اللحظة صدر صوتُ نحيبٍ مرتفِع من غرف الخدم دفع السيدة للتشبُّث بذراع الفتى الشاب، ووقفت ماري ترتجف من رأسها إلى أَخمص قدميها. وأخذ النحيب يرتفع أكثر فأكثر، وتساءلت السيدة لينوكس لاهثة: «ما هذا؟ ما هذا؟»

ردَّ الضابط الشاب: «لقد مات أحدهم. أنتِ لم تقولي إنه ظهر بين خدمكِ.»

صاحت السيدة الأوروبية: «لم أكن أعلم! تعالَ معي! تعالَ معي!» واستدارت وركضت إلى داخل المنزل.

حدثت بعد ذلك أشياء مروعة، وشُرِح الغموض الذي ساد هذا الصباح لماري. لقد اجتاح مرض الكوليرا البلاد بأسوأ صوره، وكان الناس يموتون مثل الذباب. فقد أصاب خادمتها المرض في الليل، وبسبب وفاتها اندلع نحيب الخَدَم في أكواخهم. وقبل حلول اليوم التالي، لقي ثلاثة خدم آخرون حتفهم وفرَّ آخرون في ذعر. وساد الرعب كل مكان، وكان الموتى في كل منزل.

وسط الفوضى والارتباك اللذَين سادا في اليوم التالي، اختبأت ماري في غرفة الأطفال ونسيها الجميع. لم يُفكِّر فيها أحد، ولم يُرِدها أحد، وحدثت أمور غريبة لم تعرف عنها شيئًا. تناوبت ماري بين البكاء والنوم طَوال ساعات اليوم. لم تكن تعرف إلا أن الناس مرضى وسمعت أصواتًا مريبةً وتبعث على التوتر. انسلَّت في إحدى المرات إلى غرفة الطعام ووجدتها خاوية، ولكن كانت هناك وجبة شبه منتهية على الطاولة، وبدت الكراسي والأطباق كما لو أنها أُعيدت في عُجالة إلى مكانها حين غادر من كانوا يتناولون الطعام فجأةً لسببٍ ما. تناولت الطفلة بعض الفاكهة والبسكويت، ولشعورها بالعطش شربت كأسًا من النبيذ شبه ممتلئ. كان مذاقه حُلوًا، ولم تكن تدرك مدى قوَّته. فسرعان ما جعلها تشعر بدوار شديد، وعادت إلى غرفتها، وأغلقت الباب على نفسها مرةً أخرى، لشعورها بالرعب من الصيحات التي سمعتها في الأكواخ وصوت دبيب الأقدام المتسارعة. جعلها النبيذ تشعر بالنُّعاس الشديد وتعذَّر عليها فتح عينيها واستلقت على سريرها ولم تَدرِ بأي شيء وقتًا طويلًا.

حدثت أشياء كثيرة خلال الساعات التي غطَّت فيها في نوم عميق، لكن لم تُزعجها أصوات النحيب ولا أصوات حَمْل الأشياء إلى خارج المنزل وداخله.

وعندما استيقظَت ظلَّت مستلقية في السرير، مُحدِّقة في الحائط. كان الصمت المُطْبق يلفُّ المنزل. لم تعهده صامتًا على هذا النحو من قبل قط. لم تسمع أصواتًا ولا وقْعَ أقدام، وتساءلت ما إذا كان الجميع قد تعافوا من الكوليرا وانتهت كل المشكلات. تساءلت أيضًا عمن سيعتني بها الآن بعد وفاة خادمتها. سوف تحضر خادمة جديدة، وربما ستكون على دراية ببعض القصص الجديدة. فقد سئمت ماري القصص القديمة. لم تبكِ وفاة خادمتها؛ فلم تكن طفلة عطوفة، ولم تهتم قط بأي شخص. لقد شعرت بالخوف من الضوضاء والاضطراب والنحيب جرَّاء تفشِّي الكوليرا، وشعرت بالغضب لأن أحدًا لم يبدُ أنه تذكَّر أنها ما زالت على قيد الحياة. لقد شعر الجميع بالرعب لدرجةٍ منعتْهم من التفكير في فتاة صغيرة لم يكن أحد يحبها. يبدو أنه حين يُصاب الناس بالكوليرا لا يُفكِّرون إلا في أنفسهم. لكن إن تعافى الجميع مرةً أخرى، بالتأكيد سيتذكرها أحدٌ ما وسيأتي بحثًا عنها.

لكن لم يأتِ أحد، وبينما كانت جالسةً تنتظر، بدا المنزل يزداد صمتًا أكثر فأكثر. سمعت صوتَ حفيف على الحصيرة، وحين نظرت إلى أسفل رأت ثعبانًا صغيرًا يزحف على الأرض ويراقبها بعينين مثل الجواهر. لم تشعر بالخوف، لأنه كان صغيرًا وغير ضارٍّ ولن يُؤذيها، وبدا أنه يريد مغادرة الغرفة بسرعة. وانسلَّ من تحت الباب وهي تراقبه.

قالت: «كم يبدو المكان هادئًا ومريبًا! يبدو أن لا أحد في المنزل غيري أنا والثعبان.»

في اللحظة التالية تقريبًا سمعتْ وقْع خطوات أمام المنزل، ثم في الشُّرفة. كانت خطوات رجال، دخلوا إلى المنزل وتحدثوا بأصوات مُنخفِضة. لم يذهب أحد ليقابلهم أو يتحدث إليهم، وبدا كما لو أنهم يفتحون الأبواب وينظرون إلى داخل الغرف. سمعت أحدهم يقول: «يا له من مكان مهجور! تلك السيدة رائعة الجمال! وأعتقد الطفلة أيضًا؛ فقد سمعت أنه كان ثَمَّة طفلة، على الرغم من أن أحدًا لم يرها.»

كانت ماري تقف في وسط غرفتها حين فتحوا الباب عليها بعد بضع دقائق. بدت طفلة صغيرة قبيحة نَزِقة، وكانت عابسةً لأنها بدأت تشعر بالجوع وبأنها مُهمَلة على نحوٍ مُخزٍ. كان الرجل الأول الذي دخل الغرفة ضابطًا ضخم الجثة رأته في إحدى المرات يتحدَّث إلى والدها. بدت عليه علامات التعب والاضطراب، لكنه حين رآها انتابه الفزع تمامًا لدرجةٍ جعلته يَقفز للوراء.

صاح قائلًا: «بارني! ثمَّة طفلة هنا! طفلة وحدها! في مكان مثل هذا! رحماك يا ربي، مَن تكون؟!»

قالت الفتاة الصغيرة وهي تتقدَّم بثبات: «أنا ماري لينوكس.» فقد رأت أنه من الوقاحة أن يُطلِق الرجل على منزل والدها «مكان مثل هذا!» ثم أردفت قائلة: «لقد خلدت إلى النوم حين أُصيب الجميع بالكوليرا، واستيقظت من نومي للتوِّ. لماذا لم يأتِ أحد؟»

صاح الرجل ملتفتًا إلى رفاقه: «إنها الطِّفلة التي لم يرَها أحد! لقد نسيَها الجميع بالفعل!»

قالت ماري وهي تضرب الأرض برجليها: «لِمَ نسيَني الجميع؟ لماذا لم يأتِ أحد؟»

نظر الشاب المدعو بارني إليها بحزن شديد، حتى إن ماري ظنت أنها رأته وهو يغمز بعينيه كما لو كان يُزيل عنها الدموع.

وقال: «أيتها الطفلة المسكينة! لم يبقَ أحد ليأتي إليكِ.»

عرفت ماري بهذه الطريقة الغريبة والمفاجئة أن والدها ووالدتها لم يَبقيا على قيد الحياة، وأنهما قد تُوفِّيا وشُيِّعت جثتاهما في أثناء الليل، والعدد القليل من الخدم المحليين الذين لم يَلقوا حتفهم غادروا المنزل أيضًا بأسرع ما يُمكنهم، ولم يتذكَّر أحد منهم حتى أن ثمَّة سيدة صغيرة. ولهذا السبب كان المكان هادئًا هكذا. لم يكن بالمنزل بالفعل غيرها هي والثعبان الصغير بفحيحه.

الفصل الثاني

الآنسة ماري المشاكسة

كانت ماري تحبُّ النظر إلى والدتها من على بُعد، وكانت ترى أنها رائعة الجمال، لكنها لم تعرف عنها إلا القليل جدًّا، ولم يكن متوقَّعًا أن تشعر نحوها بالحب أو تفتقدها كثيرًا بعد وفاتها. في الواقع هي لم تَفتقدْها على الإطلاق، ونظرًا لكونها طفلة أنانية مُنغلقة على نفسها؛ فقد وجَّهت تفكيرها كله نحو نفسها، كما كانت تفعل دومًا. لو كانت أكبر قليلًا، لشعرت بقلق بالغ دون أدنى شكٍّ لكونها أصبحت وحيدة في هذا العالم، لكنها كانت صغيرة للغاية، ولما كانت دومًا ما تجد من يهتمُّ بها ويرعاها، فقد اعتقدت أن هذا الوضع سيَستمر. وانصبَّ تفكيرها على رغبتها في معرفةِ ما إن كانت ستذهب للعيش مع أناس لُطفاء أم لا، سيتعاملون معها بأدب ويُنفِّذون لها كل رغباتها كما كانت تفعل خادمتها الخاصة والخدم المحليون الآخرون.

كانت تعلم أنها لن تسكن في منزل القسِّ الإنجليزي الذي ذهبت إليه في البداية. ولم تكن تُريد البقاء فيه؛ فقد كان القسُّ الإنجليزي فقيرًا ولديه خمسة أطفال متقاربين جميعًا في العمر، وكانوا يرتدون ملابسَ رثَّة ويتشاجَرون طوال الوقت ويتخطَّفون الألعاب أحدهم من الآخر. كرهت ماري منزلهم غير المرتَّب، وكانت تعاملهم على نحو سيئ للغاية حتى إنه بعد انقضاء اليوم الأول أو الثاني لم يعُد أحد يلعب معها. وفي اليوم الثاني أطلقوا عليها لقبًا أصابها بغضب شديد.

كان بازل أول من فكَّر في هذا اللقب. كان بازل صبيًّا صغيرًا ذا عينين زرقاوين وقحتين وأنف عالٍ وكانت ماري تكرهه. كانت تلعب وحدها أسفل إحدى الأشجار، تمامًا كما كانت تلعب في اليوم الذي تفشَّت فيه الكوليرا. كانت تَصنع أكوامًا من التراب وممرات تؤدِّي إلى حديقة حين أتى بازل ووقف بالقرب منها يُشاهدها. وسرعان ما أصبح مهتمًّا بما تفعله، وفجأة اقترح عليها اقتراحًا.

قال لها: «لماذا لا تصنعين كومة من الأحجار هناك وتتظاهَرين بأنه ممرٌّ وَعِر في الحديقة من الأحجار؟ هناك في المنتصف.» ومال عليها ليُشير إلى المكان.

صاحت ماري: «اذهب بعيدًا! أنا لا أريد صِبية، اذهب بعيدًا!»

للحظة بدا بازل غاضبًا، ثم بدأ في إغاظتها ومضايقتها. كان دومًا ما يضايق إخوته. فأخذ يترقَّص حولها مرارًا ويصنع أشكالًا بوجهه ويُغنِّي ويضحك:

«الآنسة ماري المشاكسة،
كيف تنمو حديقتك؟
بأجراس فِضِّية وأصداف بحرية،
وأزهار مخملية متراصَّة في صف واحد.»

استمر في ترديد هذه الأغنية حتى سمعه الأطفال الآخرون وضحكوا أيضًا، وكلما زاد غضب ماري، ارتفع غناؤهم: «الآنسة ماري المشاكسة.» وبعد هذه الواقعة، وطوال فترة بقائها معهم كانوا يطلقون عليها «الآنسة ماري المشاكسة» حين يتحدث عنها بعضهم مع بعض، وكلَّما تحدثوا إليها.

قال لها بازل: «سوف تُرسَلين إلى بيتكِ بنهاية الأسبوع، ونحن سعداء بذلك.»

أجابته ماري: «وأنا سعيدة بهذا أيضًا، أين هو منزلي؟»

قال بازل، باستخفاف وسخرية طفل في السابعة: «إنها لا تعرف أين منزلها! في إنجلترا بالطبع. إن جدتنا تعيش هناك وأختنا مابل أُرسلت إليها في العام الماضي. أما أنتِ فلن تذهبي إلى جَدتكِ؛ فليس لديكِ واحدة. بل ستَذهبين إلى عمكِ، واسمه السيد أرتشيبولد كرافن.»

ردت ماري في حدَّة: «أنا لا أعرف عنه شيئًا.»

رد بازل: «أعرف ذلك، فأنت لا تعرفين شيئًا. فالفتيات لا يعرفن أي شيء أبدًا. لقد سمعتُ والديَّ يتحدثان عنه. إنه يعيش في منزل قديم ضخم وكبير ومنعزل في الريف ولا أحد يقترب منه أبدًا؛ فهو حادُّ الطبع حتى إنه لا يدَع أحدًا يقترب منه، والناس لا يأتون إليه حتى إن سمح لهم بذلك؛ فهو أحدب وشكله مُروِّع.» قالت ماري: «أنا لا أُصدِّقك.» وأدارت ظهرها إليه ووضعت أصابعها في أذنيها، لأنها قرَّرت ألَّا تستمع إليه أكثر من ذلك.

غير أنها فكرت فيما قاله كثيرًا بعد ذلك؛ وحين أخبرتها السيدة كروفورد في تلك الليلة أنها ستُبحر إلى إنجلترا في غضون بضعة أيام وستذهب إلى زوج عمتها، السيد

أرتشيبولد كرافن، الذي يعيش في ضَيعة ميسلثويت، بدت مُتحجِّرة ولم تُبدِ أي اهتمام بالأمر من شدَّة عنادها، لدرجة أنهم لم يَدروا ماذا يقولون عنها. حاولوا أن يُعاملوها بلطف، لكن لم يكن منها إلا أن أشاحت بوجهها حين حاولت السيدة كروفورد تقبيلها، ووقفت متيبِّسة حين ربَّت السيد كروفورد على كتفها.

قالت السيدة كروفورد في شفقة بعد ذلك: «يا لها من طفلة متواضِعة الجمال! لقد كانت والدتها رائعة الجمال، وكانت طباعها رائعة أيضًا، أما ماري فلديها أسوأ طباع رأيتها في طفل على الإطلاق. إن الأطفال يُطلقون عليها «الآنسة ماري المشاكسة»، وعلى الرغم من أن هذا لا يليق، فإن المرء يدرك سبب فعلهم ذلك.»

«ربما لو كانت والدتها قد تردَّدت بوجهها الجميل وطباعها الجميلة على غرفة ماري أكثر من هذا، لربما اكتسبت بعضًا من خِصالها. إنه لأمر محزن للغاية بعد رحيل هذه السيدة الجميلة المسكينة، أن تتذكَّر أن كثيرًا من الناس لم يعلموا قط أنها كان لديها طفلة على الإطلاق.»

ثم تنهَّدت السيدة كروفورد وقالت: «أعتقد أنها كانت نادرًا ما تنظر إليها، وبعد وفاة خادمتها الخاصة لم يفكِّر أحد قط في هذه الصغيرة. فكر في الخدم وهم يهربون ويتركونها وحيدةً تمامًا في هذا المنزل المهجور. لقد قال الكولونيل ماجرو إنه أُصيب بذهول شديد حين فتح الباب ووجدها تقف وحدها في وسط الغرفة.»

قطعت ماري الرحلة الطويلة إلى إنجلترا تحت رعاية زوجة أحد الضباط، كانت تصطحب طفليها لتتركهما في مدرسة داخلية بإنجلترا. كانت منشغلة كثيرًا بابنها وابنتها الصغيرين، وكانت سعيدة بتسليم الطفلة إلى السيدة التي أرسلها السيد أرتشيبولد كرافن لاستقبالها في لندن. كانت هذه السيدة مُدبِّرة منزله في ضَيعة ميسلثويت، وكان اسمها السيدة ميدلوك. كانت سيدة ضخمة، ذات وجنتَين شديدتَي الحُمرة وعينَين سوداوَين حادَّتَين. كانت ترتدي ثوبًا بنفسجيًّا داكنًا وعليه معطف أسود به شراريب سوداء وقَلَنسوة سوداء بها ورود بنفسجية مائلة للحمرة، كانت ترتفع إلى أعلى وتهتزُّ كلما حركت رأسها. لم تحبها ماري على الإطلاق، لكن بما أنها نادرًا ما كانت تحب الناس، فلم يكن ثمَّة أي شيء غير عادي في ذلك، إلى جانب أنه كان واضحًا تمامًا أن السيدة ميدلوك لم تُعِرْها الكثير من الانتباه.

قالت: «يا إلهي! إنها طفلة صغيرة متواضِعة الجمال! لقد سمعنا أن والدتها كانت أيقونة للجمال، لكنها لم تُورِّث أيًّا من هذا الجمال لابنتها، أليس كذلك يا سيدتي؟» ردَّت

زوجة الضابط بود ولطف: «ربما يتحسَّن مظهرها حين تكبر. فبعيدًا عن شحوبها الشديد وتعابير وجهها غير اللطيفة، فإن ملامحها جيدة إلى حدٍّ ما. والأطفال يتغيرون كثيرًا.»

ردت السيدة ميدلوك قائلة: «سيكون عليها أن تتغيَّر كثيرًا للغاية. ولا يوجد في ميسلثويت ما يُحتمَل أن يؤدِّي إلى أي تحسُّن في الأطفال إن أردتِ رأيي!» كانتا تظنان أن ماري لا تسمعهما؛ إذ كانت تقف قريبًا منهما بعض الشيء عند واجهة الفندق الخاص الذي ذهبن إليه. كانت تراقب الحافلات وسيارات الأجرة المارَّة والأشخاص، ولكنها كانت تَسمعهما جيدًا، وازداد فضولها كثيرًا بشأن عمها والمكان الذي يعيش فيه. ما طبيعة هذا المكان، وما شكله هو؟ هل هو أحدب؟ إنها لم ترَ شخصًا أحدب من قبل. ربما لم يكن يوجد أي منهم في الهند.

ونظرًا لأنها كانت تعيش في منازل أناس آخرين ولم يكن لديها خادمة خاصة، كانت قد بدأت تشعر بالوحدة وتُفكر في أفكار غريبة كانت جديدةً عليها؛ فقد بدأت تتساءل لماذا لم تشعر بالانتماء لأي شخص حتى حين كان والداها على قيد الحياة. لقد كان الأطفال الآخرون يبدو عليهم انتماؤهم إلى آبائهم وأمهاتهم، أما هي فلم تشعر قط بأنها الابنة المُدلَّلة لأي شخص. كان لديها خَدَم وطعام وملابس، لكن لم يكن أي شخص يلاحظ وجودها. لم تكن تعرف أن هذا كان لأنها طفلة بغيضة؛ لكنها آنذاك بالطبع لم تكن تعلم أنها بغيضة؛ فقد كانت غالبًا ما ترى أن الآخرين بُغضاء، لكنها لم تكن تعرف أنها هي ذاتها شخصية بغيضة.

كانت ترى السيدة ميدلوك أكثر مَن رأتهم بغضًا على الإطلاق، بوجهها العادي الكثير الألوان، وقلنسوتها العادية. في اليوم التالي انطلقتا في رحلتهما إلى يوركشاير، سارت عبْر المحطة متَّجهة إلى عربة القطار مرفوعة الرأس في إباء، وتحاول الابتعاد عن السيدة بأقصى ما يمكنها؛ لأنها لم ترِد أن يبدو أنها تنتمي إليها؛ فقد كانت ستُغضبها فكرة اعتقاد الناس أنها ابنتها الصغيرة.

بَيْد أن السيدة ميدلوك لم تكترث على الإطلاق للفتاة ولا لأفكارها. فقد كانت من نوع النساء اللاتي «لا يتحمَّلن هُراء الأطفال الصغار.» على الأقل، هذا ما كانت ستقوله إن سُئِلت. لم تكن تريد الذهاب إلى لندن حين كانت ابنة أختها ماريا مُوشكةً على الزواج، ولكنها حصلت على وظيفة مريحة بأجرٍ مجزٍ في ضيعة ميسلثويت وكانت الطريقة الوحيدة التي تُمكِّنها من الاحتفاظ بها هي تنفيذ ما يطلبه منها السيد أرتشيبولد كرافن على الفور. ولم تكن تجرؤ حتى على طرح أي سؤال أبدًا.

قال لها السيد كرافن بأسلوبه الجافِّ البارد: «لقد تُوفِّي الكابتن لينوكس وزوجته بسبب الكوليرا. والكابتن لينوكس هو أخو زوجتي وأنا الوصي على ابنتهما. ومن المفترض إحضار هذه الطفلة إلى هنا. عليكِ الذهاب إلى لندن وإحضارها بنفسك.»

فحزمت حقيبة ملابسها الصغيرة وانطلقت في رحلتها.

جلست ماري في ركنها الخاص في عربة القطار وبدت شاحبة ومضطربة. لم يكن لديها ما تقرؤه أو تنظر فيه، وطوت يديها النحيفتين الصغيرتين الملتحفتين بقفاز أسود اللون في حجرها. جعلها ثوبها الأسود تبدو أكثر اصفرارًا من أي وقت آخر، وكان شعرها الخفيف الأشقر متدلِّيًا من تحت قبعتها السوداء المصنوعة من الكريب.

فكَّرت السيدة ميدلوك في نفسها: «إنها أكثر طفلة مدلَّلة وسيئة الطبع رأيتها في حياتي.» فهي لم ترَ طفلًا قط يجلس ساكنًا دون أن يفعل أي شيء؛ وأخيرًا سئمت من مراقبتها وبدأت تتحدث بصوت حادٍّ وقاسٍ.

قالت: «أعتقد أن عليَّ أن أخبرك شيئًا عن المكان الذي ستذهبين إليه. هل تعلمين أي شيء عن عمكِ؟»

قالت ماري: «لا.»

«ألم تسمعي والدكِ ووالدتكِ يتحدثان عنه؟»

قالت ماري في عبوس: «لا.» كان عبوسها لأنها تذكَّرت أن والديها لم يتحدثا إليها عن أي شيء بعينه. فالمؤكد أنهما لم يخبراها بأي شيء قط.

تأففت السيدة ميدلوك وهي تُحدِّق في وجهها الصغير الغريب الذي لا يُبدي أي استجابة. لم تنطق بأي شيء آخر لبضع دقائق، ثم بدأت في الحديث مرةً أخرى.

«أعتقد أنه يجب أن تعلمي بعض الأمور ... حتى تستعدِّي. فأنت ذاهبة إلى مكان غريب.»

لم تنطق ماري بأي شيء على الإطلاق، وبدا على السيدة ميدلوك الإحباط من أمارات اللامبالاة التي بدت عليها، لكنها تابعت حديثها بعد أن أخذت نفسًا عميقًا.

«إنه ليس سوى منزل ضخم على نحوٍ يبعث على الكآبة، والسيد كرافن فخور به هكذا، وهذا يدعو للكآبة أيضًا. شُيِّد هذا المنزل منذ ستمائة سنة، ويقع على حافة المستنقع، ويحتوي على ما يقرب من مائة غرفة، وإن كان معظمها مغلقًا بالأقفال. كما يضم بين جنباته لوحاتٍ وأثاثًا قديمًا راقيًا وأشياء موجودة فيه منذ دهور، وثمَّة متنزَّه كبير يحيط به وحدائق وأشجار بعضها ذات أغصان متدلية حتى الأرض.» ثم توقَّفت برهة وأخذت نفسًا آخر وقالت: «لكن لا وجود لأي شيء آخر.» وأنهت حديثها فجأة.

كانت ماري قد بدأت تسمع رغمًا عنها؛ فقد بدا لها المكان مختلفًا تمامًا عن الهند، وكان أي شيء جديد يجذب انتباهها. إلا أنها لم تُرد أن يبدو عليها الاهتمام؛ وكان هذا أحد أساليبها الكريهة البغيضة؛ ولهذا جلست ساكنة.

قالت السيدة ميدلوك: «حسنًا، ما رأيك في هذا؟»

أجابت: «لا شيء، أنا لا أعرف شيئًا عن مثل هذه الأماكن.»

أطلقت السيدة ميدلوك ضحكة قصيرة إثر ذلك.

وقالت: «لكنك تبدين كامرأة عجوز، ألا تهتمين؟»

قالت ماري: «لا يهم، سواء كنتُ أهتم أم لا.»

قالت السيدة ميدلوك: «أنتِ مُحقَّة في هذا، لا أهمية لذلك فعلًا. أنا لا أعرف سبب إقامتكِ في ضيعة ميسلثويت، إلا لأنه الطريقة الأسهل. فهو لن يشغل نفسه بشأنك، هذا أمر مؤكَّد؛ فهو لا يشغل نفسه بأي أحد.»

ثم توقَّفت عن الحديث كما لو كانت قد تذكَّرت شيئًا للتوِّ.

قالت: «إنه أحدب الظهر، وهذا ما جعل تنشئته خاطئة من البداية؛ فقد كان شابًّا سيئ الطباع ولم يستفدْ شيئًا من كل أمواله ومن هذا المنزل الكبير حتى تزوج.»

تحولت عينا ماري إليها على الرغم من عزمها على عدم إظهار اهتمامها؛ فلم تظن قطُّ أن الأحدب متزوج، وتفاجأت من ذلك. رأت السيدة ميدلوك هذا، وكانت امرأة كثيرة الكلام، فواصلت حديثها بمزيد من الاهتمام؛ فقد كان هذا إحدى طرقها لتمضية الوقت على أي حال.

«كانت سيدة عذبة وجميلة، وكان على استعداد لأن يذهب إلى آخر العالم ليُحضِر لها ما تريده. لم يتوقع أحد أنها ستتزوَّجه، ولكنها فعلت، وقال الناس إنها تزوجته من أجل ماله.» ثم قالت بيقين: «لكن هذا ليس حقيقيًّا ... ليس حقيقيًّا. وحين ماتت ...»

هنا قفزت ماري قفزة صغيرة لا إرادية.

ثم صاحت في اندهاش دون قصد: «آه! هل ماتت؟» وتذكَّرت للتوِّ قصة خرافية فرنسية كانت قد قرأتها من قبل بعنوان «ريكي ذو الخصلة»، حول رجل أحدب وأميرة جميلة، وجعلها ذلك تشعر بالأسف تجاه السيد أرتشيبولد كرافن.

أجابت السيدة ميدلوك: «أجل، لقد ماتت. وجعله هذا يزداد غرابة في أطواره أكثر من أي وقت مضى؛ فلم يعُد يهتم بأي شخص، ولا يرى الناس، ويقضي معظم وقته في السفر، وحين يعود إلى ميسلثويت يُغلق على نفسه في الجناح الغربي، ولا يدع أي شخص يراه

عدا بيتشر. وبيتشر هو رجل مسن، ولكنه كان يتولى رعايته حين كان صغيرًا ويعرف طرائقه.»

بدا الأمر كأنه قصة في كتاب، وهذا لم يُدخل البهجة على قلب ماري؛ فمنزل به مائة غرفة، معظمها مغلق وموصد بالأقفال، ويقع على حافة مستنقع — أيًّا كان معنى المستنقع — بدا شيئًا كئيبًا بالنسبة إليها. وفوق ذلك رجل أحدب يغلق على نفسه! حدقت من النافذة وقد أطبقت شفتيها معًا، وبدا لها أمرًا طبيعيًّا أن يبدأ المطر في الهطول في خطوط رمادية مائلة ويرتطم بزجاج النافذة ويسيل من عليها. لو كانت هذه الزوجة الجميلة ما زالت على قيد الحياة، لربما جعلت الأمور أكثر بهجة، بأن تصبح مثل والدتها نوعًا ما، وبكثرة الخروج وارتياد الحفلات مرتدية ثيابًا «مليئة بالدانتيل» مثلما كانت تفعل. لكنها لم تعُد موجودة الآن.

قالت السيدة ميدلوك: «لا داعيَ لأن تتوقَّعي رؤيته؛ لأنك لن تتمكَّني من ذلك بنسبة واحد إلى عشرة. وعليكِ أيضًا ألَّا تتوقَّعي وجود أشخاص تتحدثين إليهم؛ سيكون عليكِ اللعب وحدك والاعتناء بنفسك. ستُحدَّد لكِ الغُرف التي يمكنك دخولها والغرف التي سيكون عليكِ الابتعاد عنها. توجد حدائق كثيرة بما يكفي، لكن حين تكونين داخل المنزل، عليكِ ألَّا تتجولي فيه وتعبثي بالأشياء؛ فالسيد كرافن لن يقبل هذا.»

قالت ماري الصغيرة المشاكسة: «لن أرغب في العبث بأي شيء.» ومثلما بدأت تشعر فجأة بالأسف تجاه السيد أرتشيبولد كرافن، توقَّفت فجأة أيضًا عن الشعور بهذا الأسف ورأت أنه بغيض بما يكفي ليستحق كلَّ ما حدث له.

وأشاحت بوجهها تجاه زجاج نافذة عربة القطار التي يتدفَّق الماء عبْرها، وحدَّقت في العاصفة المطيرة الرمادية، التي بدت كما لو كانت ستستمر إلى الأبد. ظلت تراقبها فترة طويلة للغاية وبثبات، وزادت حدة اللون الرمادي أكثر وأكثر أمام عينيها حتى غطَّت في النوم.

الفصل الثالث

عبر المستنقع

نامت وقتًا طويلًا، وحين استيقظت رأت أن السيدة ميدلوك قد اشترت سلة غداء في إحدى المحطات، وتناولتا بعض قطع الدجاج واللحم البارد والخبز والزبد وبعضًا من الشاي الساخن. بدت الأمطار أشد من ذي قبل، وارتدى كل الموجودين على المحطة معاطفَ واقيةً من المطر التمعت بقطرات الماء. أضاء حارس القطار المصابيح في العربة، وسعدت السيدة ميدلوك كثيرًا بتناول الشاي والدجاج واللحم. وتناولت كمية كبيرة منها لتغُطَّ بعدها في سُبات عميق، وجلست ماري تُحدِّق فيها وتُراقب قلنسوتها الجميلة وهي تنزلق على أحد الجوانب حتى نامت هي الأخرى مرةً أخرى في ركن العربة؛ إذ داعبها النوم بفعل صوت ارتطام المطر بالنوافذ. كان الظلام قد حلَّ حين استيقظت من النوم مرةً أخرى، وقد توقَّف القطار في إحدى المحطات والسيدة ميدلوك تهزُّها.

قالت لها: «لقد غلبكِ النعاس! حان الوقت لتفتحي عينيكِ! لقد وصلنا إلى محطة ثوايت وأمامنا رحلة طويلة.»

وقفت ماري وحاولت الإبقاء على عينيها مفتوحتين بينما كانت السيدة ميدلوك تجمع أشياءها. لم تَعرض الفتاة الصغيرة عليها المساعدة؛ لأنه في الهند كان الخدم المحليون دومًا ما يجمعون لها أشياءها أو يَحملونها، وبدا من الملائم تمامًا أن يخدم الآخرون فردًا واحدًا.

كانت المحطة صغيرة ولم يبدُ أن أحدًا غيرهما ينزل من القطار. تحدَّث ناظر المحطة إلى السيدة ميدلوك بأسلوب خشن ولكنه لطيف، وكان يَنطق الكلمات بأسلوب غريب اكتشفَت ماري فيما بعد أنه سِمة حديث أهل يوركشاير.

قال لها: «أراك قد عُدتِ، وأحضرتِ الصغيرة معكِ.»

ردَّت السيدة ميدلوك بلكنة أهل يوركشاير وهي تُشير برأسها تجاه ماري: «أجل هذه هي، كيف حال زوجتك؟»

«بخير الآن، العربة في انتظارك أمام المحطة.»

كانت ثَمة عربة صغيرة تجرها الخيول تقف بانتظارهما على جانب الطريق أمام رصيف المحطة الخارجي الصغير. رأت ماري أنها عربة أنيقة، وأن الخادم الذي ساعدها في ركوبها أنيق أيضًا؛ فكان معطفه الطويل الواقي من المطر وغطاء قبعته الواقي من المطر أيضًا يلمعان وتنسال منهما قطرات المطر ككل شيء آخر، بما في ذلك ناظر المحطة الضخم.

بعد أن أغلق الباب صعد على الصندوق وجلس بجوار السائق، وانطلقوا في طريقهم، ووجدت الطفلة الصغيرة نفسها جالسة في ركن وثير ومريح، لكنها لم تكن تُريد النوم مرةً أخرى؛ لذلك جلست ونظرت من النافذة وكلها فضول لترى شيئًا من الطريق الذي يسيرون فيه متَّجهين إلى هذا المكان الغريب الذي حدَّثتها عنه السيدة ميدلوك. لم تكن طفلة جبانة قط، ولم تكن تشعر بالخوف بالمعنى المفهوم، ولكنها شعرت بأنها لا تعرف ما يُمكن أن يحدث في منزل به مائة غرفة معظمها مغلق ... يقع على حافة مستنقع.

سألت السيدة ميدلوك فجأة: «ما هو المستنقع؟»

أجابتها السيدة: «انظري من النافذة بعد عشر دقائق تقريبًا وسترين. علينا أن نسير عبر مستنقع ميسيل لخمسة أميال قبل أن نصل إلى الضيعة. لن تستطيعي رؤية الكثير بسبب ظلام الليل، لكنك ستتمكَّنين من رؤية شيءٍ ما.»

لم تطرح ماري أي أسئلة أخرى، بل انتظرت في ظلمة ركنها وركزت عينيها على النافذة. كانت مصابيح العربة تُنير مسافة قصيرة من الطريق أمامهم، واستطاعت أن تلمح الأشياء التي مرُّوا بها. بعدما غادروا المحطة، مرُّوا عبر قرية صغيرة ورأت أكواخًا مطلية بطلاء أبيض وأضواء إحدى الحانات. بعدها مرُّوا على كنيسة وبيت الكاهن، وواجهة متجر صغير أو ما شابه داخل أحد الأكواخ بها ألعاب وحلوى وأشياء غريبة معروضة للبيع، ثم وصلوا إلى الطريق السريع، ورأت أسيجةً وأشجارًا. وبعد ذلك لم يبدُ لها شيء مختلف لفترة طويلة ... أو على الأقل بدت طويلة بالنسبة إليها.

وأخيرًا بدأت الخيول تُبطئ المسير، كما لو كانت تصعد تلًّا، وعندها لم يَعُد ثَمَّة أسيجة أو أشجار. في الواقع لم تستطع رؤية أي شيء، عدا ظلام كثيف على كلا الجانبين. مالت إلى الأمام والتصق وجهها بالنافذة حين تعرَّضت العربة لهزة شديدة.

قالت السيدة ميدلوك: «آه! لقد وصلنا الآن إلى المستنقع بلا شك.»

ألقت مصابيح العربة ضوءًا أصفر على طريق وعِر بدا ممتدًّا عبر الشجيرات والأعشاب القصيرة وينتهي بالمساحة الواسعة المظلمة الممتدَّة أمامهم ومن حولهم. وبدأت الرياح تهب وتصدر صوتًا مميزًا صاخبًا ومندفعًا يبعث على الكآبة.

تساءلت ماري وهي تنظر إلى رفيقتها: «هذا ليس البحر، أليس كذلك؟»

أجابتها السيدة ميدلوك: «لا، إنه ليس البحر، ولا حقول ولا جبال أيضًا، إنها مجرد أميال وأميال من الأرض القَفْر ولا ينمو عليها شيء إلا نباتات الخلنج والجولق والقش، ولا يعيش عليها إلا الأمهار والأغنام البرِّية.»

قالت ماري: «أشعر أنه لو وُجِد الماء لكان هذا بحرًا؛ فصوته الآن يبدو مثل صوت البحر.»

قالت السيدة ميدلوك: «هذا صوت الرياح تهب عبر الشُّجيرات. إنه في رأيي مكان مُقْفر ومُوحش للغاية، على الرغم من وجود كثيرين يحبونه ... خاصةً عندما يُزهر نبات الخلنج.»

مضَوا في مسيرهم وتقدَّموا أكثر وأكثر عبر الظلام، وعلى الرغم من توقف المطر، استمرت الرياح تهبُّ وتُصفِّر وتُصدر أصواتًا غريبةً. كان الطريق يصعد تارةً ويهبط تارةً، وفي عدة مرات كانت العربة تمر عبر جسر صغير تتدافع المياه أسفله وتحدث ضجةً هائلةً. شعرت ماري كما لو أن الطريق لن ينتهي وأن هذا المستنقع الواسع الْمُقْفر ما هو إلا محيط مظلم ممتد تعبر من خلاله على شريط من اليابسة الجافة.

قالت في نفسها: «لا يعجبني هذا، لا يعجبني هذا.» وزمت شفتيها الرفيعتين معًا بشدة.

كانت الخيول تصعد جزءًا شديد الانحدار من الطريق حين لمحت ماري ضوءًا لأول مرة، ورأته السيدة ميدلوك في اللحظة ذاتها وأصدرت تنهيدة ارتياح طويلة.

صاحت قائلةً: «تُسعدني رؤية هذا الضوء متلألئًا. إنه الضوء القادم من نافذة المنزل. أخيرًا سنَحصُل على كوب جيد من الشاي بعد قليل.»

وحدث هذا «بعد قليل» تمامًا كما قالت؛ فبعد أن مرت العربة عبر بوابات المتنزه، كان لا يزال عليهم السير في طريق طوله مِيلان تحفُّه الأشجار (بدت كما لو أنها يعانق بعضها من أعلى)، وجعلته يبدو كما لو أنهم يسيرون عبر قبو طويل مظلم.

خرجوا من هذا القبو إلى مساحة مفتوحة وتوقفوا أمام منزل طويل للغاية لكنه كان مُنخفِضًا وبدا أنه يلتف حول ساحة حجرية. في البداية لم يتراءَ لماري أي أضواء من

النوافذ على الإطلاق، لكن عندما خرجت من العربة، رأت ضوءًا خافتًا قادمًا من إحدى الغرف الكائنة في ركن من أركان الطابق العلوي.

كان باب المدخل ضخمًا ومصنوعًا من ألواح ضخمة من البلُّوط ذات شكل غريب، مُرصَّعة بمسامير حديدية كبيرة ومُثبَّتة بقضبان ضخمة من الحديد. وكان هذا المدخل يؤدي إلى بهو ضخم به إضاءة خافتة لدرجةٍ جعلت ماري لا تريد النظر إلى الأوجه الموجودة في الصور المعلَّقة على الجدران، ولا إلى الأشخاص المرتَدِين الدروع. وبينما كانت واقفةً على الأرضية الحجرية، بدتْ صغيرة الحجم للغاية وغريبة الشكل، وشعرت بما بدت عليه من ضآلة وضياع وغرابة.

وقف رجل عجوز نحيل أنيق المظهر بالقرب من الخادم الذي فتح لهما الباب.

وقال بصوت أجش: «سوف تأخذينها إلى غرفتها؛ فهو لا يريد رؤيتها. إنه ذاهب إلى لندن في الصباح.»

ردَّت السيدة ميدلوك قائلة: «حسنًا يا سيد بيتشر، ما دمتُ أعرف المطلوب مني، يمكنني تنفيذه.»

قال السيد بيتشر: «المطلوب منكِ يا سيدة ميدلوك التأكد من عدم تعرُّضه للإزعاج، وألَّا تقع عيناه على ما لا يريد أن يراه.»

وبعدها صعدت ماري دَرجًا واسعًا وسارت عبر رواق طويل وصعدت بضع درجات من السلم، وسارت عبر رواق آخر، ثم رواق آخر، حتى فُتح باب في الجدار ووجدت نفسها داخل غرفة بها نار موقدة وطعام عشاء على طاولة.

قالت السيدة ميدلوك دون تكليف: «حسنًا، ها قد وصلتِ! ستعيشين في هذه الغرفة والغرفة المجاورة، ولا بدَّ أن تلزميهما دون أي مكان آخر. إياكِ أن تنسي ذلك!»

هكذا وصلت الآنسة ماري إلى ضيعة ميسلثويت، وربما لم تشعر قط بمثل هذا التناقض في حياتها.

الفصل الرابع

مارثا

حين فتحت عينيها في الصباح كان هذا بسبب دخول خادمة شابة إلى غرفتها لتُشعل النار، وكانت جاثية على سجادة المدفأة تُنظِّف الرماد مُحدِثةً ضجَّة. استلقت ماري وراحت ترقبها لبضع دقائق، ثم شرعت تجول ببصرها عبر أنحاء الغرفة. لم ترَ قط غرفة مثلها، وكانت تراها غريبة وكئيبة؛ فقد كانت الجدران مغطاة بسجاد حائط مطرز عليه رسم لمشهد من الغابة. كان ثمة أشخاص يرتدون ملابس رائعةً يقفون تحت الأشجار، ومن بعيد ظهرت لمحة من أبراج إحدى القلاع، كما احتوى المشهد على صيَّادين وخيول وكلاب وسيدات. شعرت ماري كما لو كانت معهم في الغابة. واستطاعت أن ترى عبر نافذة غائرة مساحة ممتدة من الأرض بدت خالية من الأشجار، وكانت أشبه ببحر كئيب لا نهاية له مائل للون الأرجواني.

قالت وهي تشير عبر النافذة: «ما هذا؟»

نظرت مارثا الخادمة الشابة وقد نهضت للتوِّ، ونظرت وأشارت أيضًا، ثم قالت: «هذا الذي هناك؟»

«نعم.»

ردت بابتسامة لطيفة: «ذاك هو المستنقَع، ألا تحبينه؟»

أجابت ماري: «لا، أنا أكرهه.»

قالت مارثا، وهي عائدة أدراجها إلى المدفأة: «هذا لأنكِ لستِ معتادةً عليه. أنتِ تظنين أنه كبير ومُقْفر الآن، لكنكِ ستحبينه.»

سألتها ماري: «أتحبينه؟»

أجابتها مارثا وهي تُلمِّع قضبان مشبك المدفأة في بهجة: «أجل أحبه، أحبه فحسب؛ فهو ليس مقفرًا، بل تُغطيه أشياء صغيرة طيبة الرائحة تنمو عليه. إنه رائع الجمال في

الربيع والصيف حين تُزهر نباتات الجولق والقش والخلنج؛ إذ تبدو رائحتها كالعسل، ويكثر الهواء المنعش، وتبدو السماء مرتفعةً للغاية، ويُصدر النحل وطيور القبرة ضجيجًا جميلًا وهي تطنُّ وتُغنِّي. يا له من منظر! لا يُمكنني العيش بعيدًا عن المستنقع مهما كان المقابل.»

استمعت ماري إليها وعلى وجهها تعبير جادٌّ ومرتبك. فالخَدَم المحليون الذين اعتادت عليهم في الهند لم يكونوا كذلك على الإطلاق؛ فقد كانوا خانعين ومتذلِّلين ولا يَجرءون على الحديث مع سادتهم كما لو كانوا أندادًا لهم هكذا، فكانوا ينحنون عند تقديم التحية لهم، ويُطلقون عليهم «حُماة الفقراء» ومُسمَّيات من هذا القبيل. كان الخدم الهنود يُؤمَرون بفعل الأشياء، ولا يُطلب منهم ذلك. ولم يكن معتادًا أن تُقال لهم كلمات مثل «من فضلك» و«شكرًا لك»، وكانت ماري دومًا ما تَصفع خادمتها على وجهها حين تكون غاضبةً. تساءلت للحظة ماذا ستفعل هذه الفتاة إن صفَعها أحد على وجهها. لقد كانت كائنًا مُمتلئ الجسم، ذا وجه متورِّد وشكل لطيف، لكن كان لها أسلوب صارم جعل الآنسة ماري تتساءل عمَّا إذا كان بإمكانها رد الصفعة ... حال كان الشخص الذي يصفعها ما هو إلا فتاة صغيرة.

قالت في غطرسة وهي لا تزال تتمرَّغ بين وسائدها: «أنتِ خادمة غريبة.»

جلست مارثا على عقبيها وهي تحمل فرشاة التنظيف السوداء في يدها، وضحكت دون أن تبدو عليها أي علامات للغضب.

قالت لها: «ها! أعلم هذا، فلو كان لميسلثويت سيدة، لما كنتُ ضمن خادمات التنظيف. لربما سُمِح لي بالعمل في المطبخ وغسل الأطباق، لكن لم يُسمح لي قط بالصعود إلى الطابق العلوي؛ فأنا ريفية للغاية وأتحدث كثيرًا بلهجة يوركشاير. لكن هذا المنزل غريب للغاية رغم اتِّساعه وضخامته؛ فيبدو أنه لا وجود لسيد أو سيدة، عدا السيد بيتشر والسيدة ميدلوك. أما السيد كرافن، فهو لا يُريد أن يزعجه أي شيء خلال وجوده هنا، وهو بعيد عن المنزل على نحوٍ شبه دائم. لقد عيَّنتني السيدة ميدلوك في هذه الوظيفة بدافع الطيبة؛ فقد أخبرتني أنها لم تكن ستستطيع أبدًا أن تُقدِم على ذلك لو كان ميسلثويت مثل المنازل الكبيرة الأخرى.» سألتها ماري وما زالت تتحدث بأسلوبها الهندي الصغير المُتعجرِف: «هل ستصبحين خادمتي؟»

بدأت مارثا في دعك قضبان مشبك المدفأة مرةً أخرى.

وقالت لها في ثبات وعزم: «أنا خادمة السيدة ميدلوك، وهي خادمة السيد كرافن … لكني أُؤدي مهام الخادمة هنا وأنفِّذ طلباتك بعض الشيء، لكنك لن تحتاجي إلى الكثير من الخدمة.»

تساءلت ماري: «مَن سيُساعدني في ارتداء ملابسي؟»

جلست مارثا على عقبيها مرةً أخرى وحدَّقت فيها؛ وأخذت تتحدَّث بلهجة يوركشاير الصِّرْفة في غمرة ما أصابها من ذهول، متسائلةً إن كانت لا تستطيع ارتداء ملابسها بنفسها.

قالت ماري: «ماذا تعنين؟ أنا لا أستطيع فهم لغتك.»

قالت مارثا: «آه! لقد نسيت؛ لقد أخبرتْني السيدة ميدلوك أن عليَّ الانتباه لهذا وإلا لن تفهمي ما أقوله. أعني ألا تستطيعين ارتداء ملابسك بنفسك؟»

ردَّت ماري بسخط شديد: «لا، لم أفعل ذلك قط في حياتي. لقد كانت خادمتي الخاصة تساعدني في ارتداء ملابسي بالطبع.»

قالت مارثا، وهي لا تُدرك على الإطلاق أنها تتحدث بوقاحة: «حسنًا، لقد حان الوقت لتتعلمي؛ فأنتِ لم تعودي صغيرة، وسأُسدي لك معروفًا وأساعدك بعض الشيء. كانت والدتي دومًا تقول إنها لا تعرف لماذا لا يتحوَّل أبناء الأغنياء إلى حمقى، في ظل وجود مُربِّيات يُساعدنهم في تنظيف أنفسهم، وارتداء ملابسهم، ويأخذنهم للتمشية وكأنهم جِراء صغيرة!»

لم تستطع الآنسة ماري تحمُّل ذلك وقالت بازدراء: «الأمر مختلف في الهند.»

غير أن مارثا لم تتأثَّر على الإطلاق.

فأجابت في تعاطف: «آه! أرى أنه مختلف بالفعل. أستطيع القول إن هذا بسبب وجود الكثير من السود بدلًا من البيض المُحترمين. حين سمعتُ بقدومك من الهند ظننتُ أنكِ سوداء أيضًا.»

انتصبت ماري في السرير جالسة في حَنَق شديد.

قالت: «ماذا! ماذا! هل ظننتِ أني أحد السكان المحليِّين، أيتها … أيتها الحقيرة ابنة الخنازير!»

حدَّقت فيها مارثا وبدا عليها الانفعال الشديد.

وقالت: «هل تسبِّينني؟ لا داعيَ لكل هذه الثورة؛ فهذا الحديث لا يليق بشابة صغيرة. أنا لا أُكِنُّ أيَّ ضغينة للسود، فحين تقرئين عنهم في نشرات الدعاية، يَبدون دومًا أناسًا

متدينين؛ فدومًا ما نقرأ أن الأسود هو إنسان وأخ. أنا لم أرَ شخصًا أسود من قبل، وسعدتُ كثيرًا بأني سأرى أحدهم عن قُرب. وحين دخلتُ لأُشعلَ النار في غرفتك هذا الصباح، تقدمت خلسة نحو سريرك وأزحتُ الغطاء عنكِ قليلًا حتى أتمكن من رؤيتك.» ثم قالت بخيبة أمل: «وها أنتِ ذي، لستِ أكثر سوادًا مني ... بل فقط أكثر اصفرارًا.»

لم تحاول ماري حتى التحكُّم في غضبها وشعورها بالإهانة، وقالت: «هل ظننتِ أني أحد السكان المحليِّين؟! كيف تجرُئين؟! أنتِ لا تعرفين أي شيء عن السكان المحليين! إنهم ليسوا بشرًا ... إنهم خدم لا بدَّ أن ينحنوا عند تحيتك. أنتِ لا تعرفين شيئًا عن الهند. أنتِ لا تعرفين شيئًا على الإطلاق!»

كانت في ثورة عارمة، وشعرت بالعجز وانعدام الحيلة أمام نظرات الفتاة البسيطة، وبطريقةٍ ما انتابها شعور مفاجئ بالوحدة الرهيبة والبُعد عن كل شيء فهمته وفهمها، فألقتْ وجهها على الوسادة وانفجرت في نحيب عنيف، وظلَّت تَنتحِب دون توقف، ما جعل مارثا، فتاة يوركشاير الطيِّبة، تشعر بقليل من الخوف عليها وكثير من الأسف لها. فذهبت إلى سريرها وانحنت عليها.

قالت متوسلة: «اهدئي! يجب ألا تبكي هكذا! عليكِ أن تتوقفي بالتأكيد. لم أكن أعلم أنكِ ستَغضبين هكذا. أنا لا أعرف أي شيء عن أي شيء ... تمامًا كما قلتِ. معذرة يا آنستي. توقفي عن البكاء.»

كان في حديثها الذي طغى عليه لكنة يوركشاير الغريبة، وأسلوبها الجاد شيء من الوُد والمواساة حقًّا، كان له تأثير جيد على ماري. فتوقفت عن البكاء بالتدريج وهدأت، وبدا على مارثا الارتياح.

قالت لها: «حان الوقت لتنهضي. لقد قالت السيدة ميدلوك إن عليَّ تقديم الإفطار والشاي والغداء لكِ في الغرفة المجاورة؛ فقد أُعدَّت لتصبح حجرة أطفال لكِ. سأساعدكِ في ارتداء ملابسك إذا نهضت من السرير. فلو أن الأزرار في الخلف، فلن يمكنك فتحها وحدك.»

حين قرَّرت ماري أخيرًا النهوض، لم تكن الملابس التي أخرجتها مارثا من خزانة الملابس هي ما كانت ترتديها حين وصلت مع السيدة ميدلوك في الليلة الماضية.

قالت: «هذه الملابس لا تخصُّني؛ فملابسي سوداء.»

نظرت إلى المِعطف والرداء الصوفيين البيضاوين وأضافت باستحسان فاتر: «هذه أجمل من ملابسي.»

ردَّت مارثا قائلة: «هذه هي الملابس التي عليكِ ارتداؤها؛ فقد أمر السيد كرافن السيدة ميدلوك بإحضارها من لندن. لقد قال: «لن أدع طفلة متَّشحة بالسواد تتجوَّل في المنزل، مثل روح هائمة. فهذا سيُضفي على المكان حزنًا على حزنه. أحضري لها ملابس ملوَّنة.» قالت أمي إنها تعرف ماذا يقصد؛ فهي دائمًا ما تعرف مقصد المرء. وهي نفسها لا تُطيق اللون الأسود.»

قالت ماري: «أنا أكره الأشياء السوداء.»

علَّمت عملية ارتداء الملابس كلًّا منهما شيئًا. لقد كانت مارثا تساعد أشقَّاءها وشقيقاتها على ارتداء ملابسهم، ولكنها لم ترَ قط طفلًا يقف ساكنًا في انتظار شخص آخر ليفعل له الأشياء كمَن ليس له يدان أو قدمان.

قالت حين رفعت ماري قدمها بهدوء: «لماذا لا تَرتدين الحذاء بنفسك؟»

أجابتها ماري مُحدِّقة فيها: «كانت خادمتي تفعل لي هذا. إنها العادة.»

كانت كثيرًا ما تُردِّد هذه العبارة: «إنها العادة.» فقد كان الخدم المحليُّون كثيرًا ما يُردِّدونها، فإن أمرهم أحدٌ ما بفعل شيء لم يفعله أسلافهم منذ آلاف السنين، كانوا يُحدِّقون بعض الشيء في هذا الشخص ويقولون: «إنها ليست العادة.» وكان المرء يعلم أن المسألة هكذا تصبح منتهيةً.

لم يكن من عادة الآنسة ماري أن تفعل أي شيء عدا الوقوف ساكنة والسماح لغيرها بأن يُلبسها ثيابها مثل الدُّمية، لكن قبل أن تستعدَّ لتناول الإفطار، بدأت تشكُّ في أن حياتها في ضيعة ميسلثويت ستنتهي بتعليمها أشياء جديدة تمامًا عليها ... أشياء مثل ارتداء حذائها وجواربها بنفسها، والتقاط الأشياء التي تسقط منها. لو كانت مارثا خادمة جيدة مدرَّبة على خدمة الآنسات الصغيرات، لكانت أكثر خضوعًا واحترامًا، ولعلمت أن من صميم عملها أن تُصفِّف لها شعرها، وتُغلق لها أزرار حذائها الطويل، وتلتقط الأشياء وتضعها جانبًا. لكنها مجرد فتاة ريفية غير مُدرَّبة من يوركشاير، نشأت في كوخ في أرض مُستنقعية، ولديها جحافل من الإخوة والأخوات الصغار، الذين لم يَحلموا بأي شيء قط إلا خدمة أنفسهم وخدمة إخوتهم الأصغر سنًّا، الذين كانوا إما رُضَّعًا يُحملون على الأذرع، أو يتعلمون فقط أن يخطوا خطواتهم الأولى ويتعثرون في الأشياء.

لو كانت ماري لينوكس طفلة لديها استعداد للضحك والتسلية، لربما ضحكت من استعداد مارثا في الكلام، لكن لم يكن من ماري إلا أن استمعَت لها ببرود وتعجبت من طلاقتها في التعبير. في البداية لم تكن مهتمَّة بكلامها على الإطلاق، لكن بالتدريج، حين بدأت الفتاة تُثرثر بأسلوبها اللطيف الودود، بدأت ماري تنتبه لما تقوله.

قالت لها: «آه! يجب أن تَريهم جميعًا؛ فنحن اثنا عشر أخًا وأختًا، ولا يتحصَّل أبي إلا على ١٦ شلنًا في الأسبوع. يمكنني أن أخبرك عن مدى ما تُعانيه أمي كي تحصل على عصيدة لهم جميعًا. إنهم يمرحون ويلعبون في المستنقع طوال اليوم، وتقول أمي إن هواء المستنقع يُسمِّنهم. وتقول أيضًا إنها تَعتقد أنهم يأكلون العشب تمامًا مثلما تفعل المهور البرِّية. أخي ديكون، في الثانية عشرة، وقد حصل على مهر صغير ويقول إنه مِلكه.»

سألتها ماري: «من أين جاء به؟»

«وجده في المستنقع مع والدته حين كان صغيرًا للغاية وبدأ في مصادقته من خلال إعطائه كسرات من الخبز وقلع الحشائش الصغيرة من أجله؛ فبدأ المهر يُحبُّه ويتبعه في كل مكان ويدعه يمتطي ظهره. إن ديكون فتًى طيب القلب وتحبه الحيوانات.»

لم تقتنِ ماري حيوانًا أليفًا قط من قبل، وطالَما رأت أنها ترغب في اقتناء واحد؛ ولهذا بدأت تشعر بقليل من الاهتمام بديكون، وبما أنها لم تشعُر قط من قبل بالاهتمام تجاه أي أحد عدا نفسها، فقد كانت هذه بداية لعاطفة صحية. حين دخلت الغرفة التي أُعدت لكي تكون غرفة أطفال لها، وجدتها شبيهة نوعًا ما بتلك التي نامت فيها؛ لم تكن غرفة خاصة بالأطفال، بل كانت غرفة للكبار، تناثرت على جدرانها صور قديمة تبعَث على الكآبة، وكان بها كراسي قديمة وثقيلة من البلوط. وفي منتصَف الغرفة وُضِعت طاولة عامرة بإفطار جيد وفير. لكنها دائمًا ما كانت تعاني من ضعف شديد في شهيتها، ونظرت بشيء فاق عدم الاكتراث قليلًا إلى أول طبق وضعته مارثا أمامها.

قالت لها: «لا أريده.»

صاحت مارثا بعدم تصديق: «لا تريدين العصيدة!»

«نعم.»

«أنتِ لا تعلمين كم هي شهية، ضعي عليها قليلًا من الدبس أو السكر.»

كرَّرت ماري ما قالته: «لا أريد هذا.»

قالت مارثا: «حسنًا! أنا لا أتحمل رؤية طعام طيب يُهدر هكذا. لو كان إخوتي جالسين على هذه الطاولة، لأجهزوا على كلِّ ما عليها في خمس دقائق.»

قالت ماري ببرود: «لماذا؟» قالت مارثا مكرِّرة كلمتها: «لماذا! لأن بطونهم نادرًا ما جرَّبت الشبع طَوال حياتهم؛ فهم جوعى مثل الصقور والثعالب الصغيرة.»

قالت ماري بلا مبالاة نابعة من الجهل: «أنا لا أعلم معنى الجوع.»

بدا على مارثا السخط.

قالت دون تحفُّظ: «حسنًا، حريٌّ بكِ أن تجربيه. هذا رأيي بوضوح شديد؛ فأنا لا أتحمل الأشخاص الذين يجلسون ويكتفون بالتحديق في الخبز الطيب واللحم الشهي دون تناوله. يا إلهي! كم أتمنَّى لو كان لدى ديكون وفيليب وجين وباقي إخوتي كلُّ ما هو موجود هنا تحت مآزرهم.»

قالت ماري: «إذن لماذا لا تأخذينه لهم؟»

أجابتها مارثا بصرامة: «هذا ليس ملكي، وهذا ليس يوم إجازتي؛ فأنا أحصل على إجازة مرة واحدة في الشهر تمامًا مثل الآخرين، ثم أذهب إلى المنزل وأنظفه لأمي كي تستريح يومًا من عنائها.»

شربت ماري قليلًا من الشاي وأكلت شريحة خبز وقليلًا من المربى.

قالت مارثا: «والآن عليكِ ارتداء بعض الملابس الثقيلة والخروج للركض واللعب؛ فهذا سيُفيدك ويُساعدك في هضم الطعام حتى تستطيعي تناول اللحم.»

ذهبت ماري إلى النافذة، ورأت حدائق وممرات وأشجارًا كبيرةً، لكن بدا لها كل شيء مُملًّا ومكتسيًا بكآبة الشتاء.

«في الخارج؟ لماذا عليَّ الخروج من المنزل في يوم مثل هذا؟»

«حسنًا، إذا كنتِ لا تريدين الخروج، فيُمكنكِ البقاء في المنزل، لكن ماذا ستفعلين؟»

نظرت ماري حولها، لم يكن ثَمة شيء تفعله؛ فحين جهَّزت لها السيدة ميدلوك حجرة الأطفال، لم تُفكر في سُبل الترفيه. ربما كان من الأفضل الذهاب ورؤية الحدائق.

تساءلت: «مَن سيخرج معي؟»

حدَّقت فيها مارثا.

وأجابتها: «ستَخرُجين وحدك؛ سيكون عليكِ تعلُّم اللعب مثلما يفعل الأطفال الآخرون، حين لا يكون لديهم إخوة وأخوات. فأخي ديكون يخرج إلى المستنقع وحده ويلعب ساعات، وبهذه الطريقة تعرَّف على المهر وأصبح صديقه. كذلك توجد خِراف في المستنقع تعرِفه، وطيور تأتي لتأكل من يده. ومهما كان الطعام شحيحًا، فإنه دومًا ما يدَّخر جزءًا من خُبزه لمداعبة حيواناته الأليفة.»

في الواقع كان الحديث عن ديكون هو ما دفع ماري إلى الخروج من المنزل، وإن كانت لم تعِ ذلك؛ فستجد طيورًا بالخارج، على الرغم من عدم وجود مهور أو خِراف، وستكون هذه الطيور مختلفة عن نظيرتها في الهند، وربما تستمتع بالنظر إليها.

أحضرت لها مارثا معطفها وقبعتها وحذاءً طويلًا ثقيلًا، وأرشدتها إلى الطريق إلى الطابق السفلي.

قالت لها وهي تُشير إلى بوابة وسط سياج من الشجيرات: «إذا سلكتِ هذا الطريق ستصلين إلى الحدائق. ستجدين الكثير من الزهور الصيفية، لكنها لم تُزهر بعد.» ثم بدا عليها التردُّد برهة قبل أن تضيف قائلةً: «إحدى هذه الحدائق مُغلَقة؛ فلم يدخلها أحد منذ عشر سنوات.»

سألتها ماري رغمًا عنها: «لماذا؟» فها هو باب آخر موصد يُضاف إلى الأبواب المائة التي يعج بها هذا البيت الغريب.

«لقد أمر السيد كرافن بإغلاقها بعد وفاة زوجته المفاجئة، ولا يسمح لأحد بدخولها؛ فقد كانت هذه حديقتها، فأوصد الباب، وحفر حفرةً دفن فيها المفتاح. هذا صوت جرس السيدة ميدلوك ... عليَّ الذهاب على الفور.»

بعدما ذهبت، سارت ماري في الممر المُؤدِّي إلى الباب الكائن وسط سياج الشجيرات. ولم تَستطِع أن تمنع نفسها من التفكير في الحديقة التي لم يدخلها أحد منذ عشر سنوات. تساءلت كيف يُمكن أن يكون شكلها، وما إذا كانت ما زال بها أزهار حية. حين مرَّت عبر بوابة الشجيرات، وجدت نفسها في حدائق ضخمة، بها مروج واسعة وممرات متعرِّجة وحواف مُقلَّمة. كانت تحوي بين جنباتها أشجارًا وأحواضَ أزهار، ونباتات دائمة الخضرة مُقلَّمة بأشكال غريبة، وبِركة ضخمة في وسطها نافورة قديمة رمادية اللون. ولكن كانت أحواض الأزهار كئيبة وخالية من الأزهار، ولم تكن النافورة تعمل. لم تكن هذه هي الحديقة الموصدة. كيف يُمكن لحديقة أن تُوصد؟ يمكن للمرء دومًا السير في الحديقة.

كانت تفكر في هذا حين رأت، في نهاية الممر الذي كانت تتبعه، ما بدا لها كسِياج طويل ينمو عليه نبات اللبلاب. لم تكن تعرف إنجلترا بالقدر الكافي لتُدرك أنها كانت متَّجهة إلى حدائق المطبخ حيث تُزرَع الخضر والفاكهة. فاتَّجهت نحو هذا السياج واكتشفت أن ثمَّة بابًا أخضر اللون داخل اللبلاب، وقد تُرك مفتوحًا. كان واضحًا أن هذه لم تكن الحديقة المغلقة، وتمكَّنت من الدخول.

دخلت عبر الباب لتجد نفسها داخل حديقة تُحيط بها أسوار من كل جانب، وعلمت أنها إحدى الحدائق المُسوَّرة العديدة المؤدِّي بعضها إلى بعض. رأت بابًا أخضر آخر مفتوحًا تظهر من ورائه شجيرات وممرات بين أحواض بها خضراوات شتوية. أما أشجار الفاكهة فكان نموُّها موجَّهًا نحو السور في شكل مُستوٍ، وفوق بعض الأحواض كانت ثمَّة أُطُر زجاجية. وقفت ماري تُحدِّق فيما حولها وهي ترى أن المكان قفرٌ وقبيحٌ بما يَكفي. ربما يُصبح أفضل في فصل الصيف، حين تخضرُّ الأشياء، لكنه كان يخلو من أي جمال الآن.

في تلك اللحظة مرَّ رجل مسنٌّ يحمل مجرفة فوق كتفه عبر الباب الذي يفتح على الحديقة الثانية. بدا مذهولًا حين رأى ماري، ثم لَمَس قبَّعته. كان وجهه مكفهرًّا يكتسي بعلامات الشيخوخة والهرم، وبدا عليه الاستياء من رؤيتها، لكنها كانت مُستاءة أكثر من حديقته ورسمت على وجهها تعبير «الفتاة المشاكسة»، وبالتأكيد لم تبدُ سعيدة تمامًا برؤيته.

سألته: «ما هذا المكان؟»

أجاب: «إنها إحدى الحدائق التابعة للمطبخ.»

قالت ماري وهي تُشير عبر الباب الأخضر الآخر: «ما هذا؟»

أجاب باقتضاب: «واحدة أخرى، وتُوجَد حديقة أخرى على الجانب الآخر من السور وبستان الفاكهة على الجانب الآخر.»

سألته ماري: «هل يُمكنني دخولها؟»

«إذا أردتِ ذلك، لكن لا يوجَد ما ترينه فيها.»

لم تُجِب ماري، وسلكت الممرَّ ودخلت عبر الباب الأخضر الثاني. وهناك وجدت المزيد من الأسوار والخضراوات الشتوية والأُطر الزجاجية، لكنها وجدت في السور الثاني بابًا آخر أخضر اللون لكنه لم يكن مفتوحًا. ربما كان هذا الباب يؤدِّي إلى الحديقة التي لم يرَها أحد طوال عشر سنوات. وبما أن ماري لم تكن قطُّ طفلة جبانة، وتفعل دومًا ما تُريده، اتجهت نحو الباب الأخضر وأدارت المقبض. كانت تأمُل ألا يُفتح الباب؛ لأنها كانت تريد أن تتأكد من أنها قد وجدت الحديقة الغامضة، لكنه فُتح بسهولة بالغة ودخلت عبره لتجد نفسها داخل بستان للفاكهة. كان المكان مُحاطًا أيضًا بأسوار، تتكئ عليها الأشجار، وكانت ثمَّة أشجار فاكهة خالية من الثمار نامية وسط أعشاب بنية أذبلها الشتاء، لكنها لم ترَ أي باب أخضر في أي مكان. بحثت ماري عن الباب، ولكن حين دخلَت إلى الطرف الأقصى من الحديقة، لاحظت أن السور يبدو لا ينتهي مع حدود بستان الفاكهة، بل يمتد إلى أبعد منه كما لو كان يحيط بمكان على الجانب الآخر. كان باستطاعتها رؤية قمم الأشجار من فوق السُّور، وحين وقفت ساكنة رأت طائرًا ذا صدر أحمر زاهٍ، يجلس فوق أعلى فرع من فروع هذه الأشجار، وفجأة بدأ يغرد بأغنية شتوية، كما لو أنه رآها وينادي عليها.

توقَّفت لتستمع إليه، وأعطاها صفيره الخفيض بوقعه المُبهج الودود، شعورًا بالسعادة؛ فليس مستبعدًا أن تشعر فتاة صغيرة سيئة الطبع بالوحدة، كما أن المنزل

الكبير المغلق، والمستنقع الكبير المقفر، والحدائق الكبيرة الجرداء، كل ذلك جعلها تشعر كما لو كان لم يتبقَّ أحد في العالم سواها. لو كانت طفلة رقيقة، اعتادت أن تشعر بالحب، لانفطر قلبها، ولكن على الرغم من كونها «الآنسة ماري الفتاة المشاكسة»، فقد كانت تشعر بالوحدة، ولدى رؤيتها للطائر الصغير الزاهي الصدر، ارتسم على وجهها الصغير العابس ما يشبه الابتسامة. ظلت تُنصِت إليه حتى طار بعيدًا. لم يكن يُشبِه أيًّا من الطيور الهندية، وأحبَّته كثيرًا وتساءلت ما إذا كانت ستراه مرةً أخرى. لعله كان يعيش داخل الحديقة الغامضة ويعرف كل شيء عنها.

ربما كان إسهابها في التفكير بشأن الحديقة المهجورة لعدم وجود أي شيء آخر تفعله. لقد كان لديها فضول بشأنها، وأرادت أن ترى شكلَها. لماذا دفَن السيد أرتشيبولد كرافن المفتاح؟ ولو كان يحبُّ زوجته إلى هذا الحدِّ، لماذا يَكره حديقتَها؟ تساءلت إن كانت ستراه على الإطلاق، لكنها كانت تعلم أنها إن رأته فلن تُحبَّه، وهو أيضًا لن يحبَّها، وأنها ستقف فقط وتُحدِّق فيه دون أن تنطق بشيء، على الرغم من رغبتها الشديدة في سؤاله عن سبب إقدامه على مثل هذا الفعل الغريب.

فكَّرت في نفسها قائلة: «الناس لا يُحبونني أبدًا، وأنا لا أحب الناس أبدًا. ولن أستطيع أبدًا التحدث كأطفال كروفورد؛ فقد كانوا دومًا يتحدثون ويضحكون ويُحدِثون ضجة وصخبًا.»

فكَّرت في طائر أبي الحنَّاء وكيف بدا أنه يُنشد أغنيته لها، وتذكَّرت قمة الشجرة التي كان جاثمًا عليها وتوقفت فجأة في الممر.

قالت: «أعتقد أن هذه الشجرة كانت داخل الحديقة السرية ... أكاد أجزم بهذا؛ فقد كان ثمَّة سور حول المكان لكن لا وجود لأي باب.»

عادت أدراجها إلى أول حديقة دخلتها من حدائق المطبخ، ووجدت العجوز يحفر هناك. ذهبت ووقفَت بجواره وظلَّت تراقبه لبضع لحظات بأسلوبها البارد. لم ينتبه العجوز إلى وجودها على الإطلاق؛ ما اضطرها في النهاية لمبادرته الحديث.

قالت: «لقد دخلتُ الحدائق الأخرى.»

أجابها بجفاء: «لم يكن ثمة ما يمنعكِ من فعل هذا.»

«ودخلتُ بستان الفاكهة.»

أجاب: «لم يكن يوجد كلب على الباب ليعقرك.»

قالت ماري: «لم أجد فيها بابًا يؤدي إلى الحديقة الأخرى.»

قال العجوز بصوت أجش، وقد توقَّف عن الحفر للحظة: «أي حديقة؟»

أجابته الآنسة ماري: «الموجودة على الجانب الآخر من السور. توجد أشجار هناك، لقد رأيت قِمَمها. وكان ثمَّة طائر ذي صدر أحمر يَجلس على واحدة منها ويغني.»

تفاجأت حين تغيَّر التعبير المُرتَسم على هذا الوجه العجوز المكفهِر المَسفوع؛ إذ كسته ابتسامة تسلَّلت إليه ببطء وتغير شكل هذا البستاني تمامًا، ما جعلها تُفكِّر كم هو غريب أن يبدو الشخص أجمل كثيرًا حين يَبتسم؛ فلم تفكر في هذا الأمر من قبل.

استدار الرجل نحو جانب البستان المطلِّ على حديقته وبدأ في الصفير، بصوت منخفض ورقيق. لم تفهم كيف يُمكِن لرجل فظٍّ كهذا أن يُصدر مثل هذا الصوت الرقيق. وفي اللحظة التالية تقريبًا حدث شيء مذهل. سمعت صوت حركة سريعة في الهواء لشيء صغير يطير، وكان الطائر ذو الصدر الأحمر يطير نحوهما، وحطَّ على كتلة التراب الكبيرة الكائنة بالقرب من قدم البستاني.

ضحك العجوز وقال: «ها هو.» ثم أخذ يتحدث إلى الطائر كما لو كان يتحدث إلى طفل صغير.

قال له: «أين كنتَ، أيها الشقي الصغير؟ لم أرَك قبل اليوم. هل بدأت في التزاوج في هذا الوقت المبكر من الفصل؟ يا لجرأتك!»

وضع الطائر رأسه الصغير على جانب ونظر إلى أعلى نحو الرجل، بعينه الرقيقة اللامعة، التي كانت أشبه بقطرة ندى سوداء. بدا أليفًا للغاية ولم يكن خائفًا على الإطلاق. ظل يقفز وينقر الأرض بهمة وخفة بحثًا عن البذور والحشرات، ما أوقع في قلب ماري شعورًا غريبًا؛ إذ بدا كأنه إنسان من فرط بهائه ومرحه. كان جسمه صغيرًا ممتلئًا ومنقاره رفيعًا، ورجلاه صغيرتين ونحيلتين.

سألت بصوت يكاد يقارب الهمس: «هل يأتي دومًا حين تُنادي عليه؟»

«أجل، يأتي؛ فأنا أعرفه منذ كان فرخًا صغيرًا؛ فقد خرج من عُشه في الحديقة الأخرى، وحين طار لأول مرة فوق السور، كان ضعيفًا للغاية حتى إنه لم يقدر على العودة لبضعة أيام، وهكذا صرنا أصدقاء. وحين طار فوق السور مرةً أخرى، كان باقي الصِّغار قد ذهبوا ووجد نفسه وحيدًا فعاد إليَّ.»

سألته ماري: «ما نوع هذا الطائر؟»

«ألا تعرفين. إنه أبو الحنَّاء ذو الصدر الأحمر، وهي أكثر الطيور وداعة وفضولًا على الإطلاق. إنها أليفة وودودة تمامًا مثل الكلاب، إذا عرفتِ كيف تتعاملين معها. انظري إليه وهو يَنقر في الأرض هناك وينظر نحونا بين الحين والآخر. إنه يعلم أننا نتحدَّث عنه.»

كان منظر هذا العجوز أغرب شيء في العالم على الإطلاق؛ فقد كان ينظر إلى هذا الطائر الصغير المُمتلئ الجسم ذي الصدرية القرمزية كما لو كان فخورًا ومولعًا به في الوقت نفسه.

ضحك وقال: «إنه طائر مُتغطرِس؛ فهو يحب أن يسمع الناس تتحدث عنه. وفضولي أيضًا، ليباركه الرب، ما من كائن يضاهيه في فضوله وتطفله. إنه يأتي دومًا ليرى ما أزرعه. إنه يعرف كل الأشياء التي لم يَشغل السيد كرافن نفسه بمعرفتها. إنه كبير البستانيِّين؛ نعم هو كذلك بالفعل.»

أخذ أبو الحنَّاء يتقافز هنا وهناك بهمة وهو ينقر التربة، وكان يتوقف بين الحين والآخر لينظر إليهما. ظنَّت ماري أن عينيه السوداوين اللتين تشبهان قطرات الندى تُحدِّقان فيها بفضول بالغ؛ فقد بدا الأمر بالفعل كما لو أنه يُحاول معرفة كل شيء عنها. وازداد الشعور الغريب الذي تولَّد بداخلها وتساءلت: «إلى أين طار باقي الصغار؟»

«لا أحد يعلم؛ فالطيور الكبيرة تُدربها داخل عُشها وتتركها تطير فتنتشر قبل أن ينتبه المرء أنها قد طارت. وقد كان هذا الصغير ذكيًّا، وأدرك أنه وحيد.»

اقتربت الآنسة ماري خطوة من أبي الحنَّاء ونظرت إليه بتمعُّن شديد.

ثم قالت: «أنا وحيدة.»

لم تكن تُدرك من قبل أن هذا كان أحد الأشياء التي تجعلها تشعر بالحنق والغضب. وبدا أنها قد اكتشفت هذا حين نظر أبو الحنَّاء إليها ونظرت إليه.

دفع البستاني العجوز قبعته إلى الخلف على رأسه الأصلع وحدَّق فيها للحظة.

وسألها: «ألستِ الفتاة الصغيرة القادمة من الهند؟»

أومأت ماري.

فقال لها: «لا عجب إذن أنكِ تشعرين بالوحدة. ولا بد أنكِ كنتِ تشعرين بالوحدة أكثر قبل مجيئك.»

بدأ العجوز في الحفر مرةً أخرى، دافعًا مجرفته إلى عمق أكبر في تربة الحديقة السوداء الخصبة، بينما ظل أبو الحنَّاء يقفز في كل مكان بنشاط بالغ.

تساءلت ماري: «ما اسمك؟»

وقف ليرد عليها.

فأجابها قائلًا: «بِن ويذرستاف»، ثم أضاف بضحكة جافة: «وأنا وحيد أيضًا فيما عدا حين يكون معي.» وأشار بإبهامه نحو أبي الحنَّاء مردفًا: «إنه صديقي الوحيد.»

قالت ماري: «ليس لديَّ أيُّ أصدقاء على الإطلاق. ولم يكن لي يومًا. وخادمتي الخاصة لم تكن تحبَّني ولم أكن ألعب مع أحد.»

من عادة أهل يوركشاير قول ما يخطر بأذهانهم بصراحة تامة، وكان بِن ويذرستاف العجوز من أبناء يوركشاير القاطنين على المستنقع.

قال لها: «أنا وأنتِ يُشبه بعضنا بعضًا كثيرًا؛ فنحن كنبتتين من حبة واحدة؛ فكلانا يفتقر إلى الجمال، وكلانا سيِّئ الطبع بقدر سوء مظهرنا. ولدينا الطباع السيئة نفسها، أنا متأكد من هذا.»

كان حديث بِن صريحًا بلا مجاملات، بينما لم تسمع ماري لينوكس من قبل حقيقة نفسها طوال حياتها؛ فقد كان الخدم المحليون طوال الوقت ينحنون لها عند التحية ويَخضعون لأوامرها، مهما فعلت. لم تفكر من قبل قط في شكلها، لكنها تساءلت عمَّا إذا كانت تفتقر إلى الجاذبية مثلما وصفها بِن ويذرستاف أم لا، وتساءلت أيضًا إن كانت تبدو سيئة الطبع مثلما بدا هو قبل مجيء أبي الحنَّاء. بل إنها بدأت تتساءل أيضًا عمَّا إذا كانت «سيئة الطبع» بالفعل. شعرت بعدم ارتياح؛ وفجأة صدر صوت خفيض مُتماوج وواضح بالقرب منها فالتفتَت. كانت تقف على بُعد خطوات من شجرة تفاح صغيرة وقد طار أبو الحنَّاء إلى أحد فروعها وانطلق في الغناء. وانفجر بِن ويذرستاف في الضحك.

سألته ماري: «لماذا فعل ذلك؟»

رد بِن: «لقد قرَّر أن يصبح صديقًا لكِ. أنا متأكد أنه قد أحبكِ.»

قالت ماري: «أحبني؟» ثم تحركت نحو الشجرة الصغيرة بهدوء ونظرت إلى أعلى.

قالت لأبي الحنَّاء كما لو كانت تتحدَّث إلى إنسان: «هلا صِرنا صديقين؟ هل تريد ذلك؟» لم تقل ذلك بصوتها الصغير القاسي ولا بصوتها الهندي المُتغطرِس، بل بصوت رقيق ومتلهف ولطيف للغاية لدرجة فاجأت بن ويذرستاف تمامًا مثلما تفاجأت هي حين سمعته يُصفِّر.

صاح قائلًا: «لقد قلتِ هذا بطريقة إنسانية ولطيفة للغاية كما لو كنتِ طفلة صغيرة بحق ولستِ سيدة عجوز حادة الطباع. لقد تحدَّثت تقريبًا مثلما يتحدث ديكون مع المخلوقات البرية في المستنقع.»

سألته ماري ملتفتة إليه سريعًا: «هل تعرف ديكون؟»

«الجميع يعرفون ديكون؛ فهو يتجوَّل في كل مكان. حتى نباتات توت العليق والخلنج تعرفه. أَجزم بأن الثعالب لا تخشى على جرائها منه وطيور القُبَّرة لا تُخبِّئ فراخها منه.»

أرادت ماري طرح مزيد من الأسئلة؛ فقد كان لديها فضول بشأن ديكون يُضاهي فضولها بشأن الحديقة المهجورة. ولكن أبا الحنَّاء، الذي أنهى أغنيته، هزَّ جناحيه في هذه اللحظة وفردهما وطار بعيدًا؛ فقد أدَّى زيارته والآن لديه أشياء أخرى ليفعلها.

صاحت ماري وهي تراقبه: «لقد طار فوق السور! لقد طار إلى داخل بستان الفاكهة، ثم طار عبر السور الآخر إلى داخل الحديقة التي ليس لها باب!»

قال بِن العجوز: «إنه يعيش هناك. لقد خرج من بيضته هناك. وإذا كان في سبيله إلى التزاوج، فلا بدَّ أن ثمَّة أنثى شابة من فصيلة أبي الحنَّاء تعيش بين أشجار الورد القديمة هناك.»

قالت ماري: «أشجار الورد! أتوجد أشجار ورد؟»

رفع بن ويذرستاف مجرفتَه مرةً أخرى وبدأ في الحفر.

تمتم قائلًا: «كانت هناك منذ عشر سنوات.»

قالت ماري: «أريد أن أراها، أين الباب الأخضر؟ لا بدَّ أن ثمَّة بابًا في مكان ما.»

تعمَّق بِن في الحفر بمجرفته وعاد إلى سابق عهده متحفِّظًا منعزلًا تمامًا كما بدا عندما رأته لأول مرة.

قال: «كان هناك منذ عشر سنوات، لكنه لم يعد موجودًا الآن.»

صاحت ماري: «لا يوجد باب! لا بد أن هناك واحدًا.» «لا يوجد باب يُمكن لأي أحد العثور عليه، فهو ليس من شأن أي شخص. لا تكوني فتاة متطفِّلة وتَدسِّين أنفك فيما لا يَعنيكِ. الآن عليَّ مواصَلة عملي. هيا اذهبي للَّعب؛ لم يَعُد لديَّ وقت.»

في هذه اللحظة توقَّف عن الحفر، وألقى مجرفته عن كتفه وسار مُبتعدًا، دون حتى النظر إليها أو تحيتها.

الفصل الخامس

بكاء في الرواق

في البداية كان كل يوم يمرُّ على ماري لينوكس يُشبه الأيام الأخرى تمامًا؛ ففي كل صباح تستيقظ في غرفتها ذات الجدران المكسوة بالسجاد المزخرف، وتجد مارثا جاثية على ركبتيها أمام المدفأة تشعل النار؛ وفي كل صباح تتناول إفطارها في غرفة الأطفال التي خلت تمامًا من أي شيء مسلٍّ؛ وبعد الإفطار تُحدِّق من النافذة في المستنقَع الشاسع الذي بدت أطرافه مترامية في كل مكان وكاد يُعانق السماء، وبعدما تُحدِّق فيه لفترة، تدرك أنها إن لم تخرج من المنزل، سيكون عليها البقاء دون القيام بأي شيء؛ ومن ثَم تهمُّ بالخروج.

لم تكن تعرف أن هذا أفضل ما يُمكنها فعله على الإطلاق، ولم تكن تعرف أنها حين بدأت في الهرولة أو حتى الركض عبر الممرات والطريق المشجر، كانت تُحرِّك الدماء البطيئة في عروقها وتزيد من قوتها من خلال مصارعة الرياح التي تهبُّ عليها من المستنقَع. كانت تركض فقط لتدفئة نفسها، وكانت تكره الرياح التي تَلفح وجهها وتُهدر وتُعيق حركتها كما لو كانت عملاقًا لا يمكنها رؤيته. إلا أن نسائم الهواء النقي التي تهبُّ على نبات الخلنج كانت تملأ رئتيها بشيء مفيد لجسدها النحيل، وصبغت وجنتَيها بقدر من الحمرة، وأضاءت عينيها الباهتتَين ببعض اللمعان، دون أن تدري أي شيء من هذا.

لكن بعد قضاء بضعة أيام خارج المنزل بالكامل، استيقظت في صباح أحد الأيام وهي تَشعُر بمعنى الجوع، وحين جلست لتتناول إفطارها لم تنظر بازدراء إلى عصيدتها وتبعدها عنها، بل أمسكت بملعقتها وبدأت في تناولها ومضَت تأكُل حتى فرغ الصحن.

قالت مارثا: «لقد تناولتِ قدرًا كبيرًا من ذلك في هذا الصباح، أليس كذلك؟»

قالت ماري، وهي نفسها تشعر بقدر من المفاجأة: «إن مذاقها جيد اليوم.»

أجابتها مارثا: «إن هواء المستنقع هو الذي يجعل لديكِ شهية لتناول الطعام. من حسن طالعكِ أن لديكِ طعامًا ولديكِ شهية لتناوله؛ ففي كوخنا اثنا عشر لديهم شهيتكِ لكن ليس لديهم ما يأكلونه. فلتستمرِّي في اللعب بالخارج كل يوم وستتخلَّصين من هذه النحافة وهذا اللون الأصفر إلى الأبد.»

قالت ماري: «أنا لا ألعب. فليس لديَّ ما ألعب به.»

صاحت مارثا: «ليس لديكِ ما تلعبين به! إن أطفالنا يلعبون بالعصيِّ والحجارة. هم فقط يركضون ويصيحون وينظرون إلى الأشياء.» لم تكن ماري تَصيح، لكنها كانت تنظر إلى الأشياء؛ فلم يكن لديها أي شيء آخر تفعله. كانت تطوف طوال الوقت في الحدائق وتتجوَّل عبر ممرات المتنزه. وأحيانًا ما كانت تبحث عن بِن ويذرستاف، لكن على الرغم من رؤيتها له عدة مرات وهو يعمل، فقد كان إمَّا منشغلًا للغاية بما تعذر معه النظر إليها، أو يبدو مُكفهرًّا للغاية.

في إحدى المرات وبينما كانت تَسير نحوه، التقط مجرفته واستدار مبتعدًا عنها كأنه فعل ذلك عن قصد.

كان ثمَّة مكان واحد تتردَّد عليه أكثر من أي مكان آخر، وهو الممشى الطويل الذي يقع خارج الحدائق المُحاطة بالأسوار. كانت أحواض الأزهار الفارغة مُنتشرةً على جانبيه، ونما نبات اللبلاب بكثافة على الأسوار. كان ثمَّة جزء واحد من السور تكاثرت عليه الأوراق الخضراء الداكنة المعترشة أكثر من أي مكان آخر، كما لو كان هذا المكان مهملًا منذ وقت طويل. أما في باقي السور، فكانت الأوراق مُقلَّمة ومظهرها أنيق، لكن هذا الطرف المنخفض من الممشى لم يتعرَّض للتقليم على الإطلاق.

بعدما تحدَّثت إلى بِن ويذرستاف ببضعة أيام، توقفت ماري لتلاحظ هذا وتساءلت عن سبب كونه على هذه الشاكلة. وما إن توقفت ونظرت إلى أعلى نحو فرع طويل مُزهر من اللبلاب يتطاير مع الرياح، حتى رأت ومضة قرمزية وسمعت تغريدًا جميلًا، وهناك، على قمة السور وجدت طائر أبي الحنَّاء ذا الصدر الأحمر صديق بِن ويذرستاف، يجلس مائلًا إلى الأمام لينظر إليها برأسه الصغير المائل إلى الجانب.

صاحت قائلة: «آه! أهذا أنت؟ أهذا أنت؟» لم يبدُ الحديث إليه أمرًا غريبًا بالنسبة إليها تمامًا، كما لو كانت متأكِّدة أنه سيفهمها ويجيب عليها.

وقد أجابها بالفعل؛ فراح يغرِّد ويُزقزق ويقفز عبر السور كما لو كان يُخبرها بكل شيء. وبدا للآنسة ماري كما لو كانت فهمته أيضًا، على الرغم من أنه لم يكن يتحدَّث إليها بالكلمات. بدا الأمر كأنه قال:

«صباح الخير! أليست الرياح لطيفة؟ أليست الشمس لطيفة؟ أليس كل شيء لطيفًا؟ دعينا نُزقزق ونقفز ونُغرِّد معًا. هيا! هيا!»

بدأت ماري تَضحك، وحين قفز وأخذ يدور في دورات خفيفة بمحاذاة السور، تبعته هي ركضًا. لقد بدت ماري المسكينة الصغيرة الشاحبة القبيحة شبه جميلة للحظة.

صاحت قائلة وهي تجري بخطوات سريعة عبر الممشى: «أنا أحبك! أنا أحبك!» وأخذت تغرد وتحاول الصفير أيضًا، وهي لا تعرف كيف تفعل هذا. إلا أن أبا الحنَّاء بدا راضيًا تمامًا وراح يزقزق ويصفِّر ردًّا عليها.

وفي النهاية فرد جناحيه وطار مبتعدًا إلى قمة إحدى الأشجار، حيث جثم هناك وأخذ يُغرِّد بصوت مرتفع. وذكَّر هذا ماري بأول مرة رأته فيها؛ فقد كان يتأرجَح على قمة إحدى الأشجار بينما كانت واقفة داخل بستان الفاكهة. والآن هي على الجانب الآخر من البستان وتقف في الممشى الكائن أمام سور أقل انخفاضًا بكثير، والشجرة نفسها موجودة بالداخل.

قالت في نفسها: «إنه داخل الحديقة التي لا يَستطيع أحد دخولها. إنها الحديقة التي ليس لها باب. إنه يعيش هناك. كم أتمنَّى لو استطعت رؤيتها!»

ركضت عبر الممشى متجهة إلى الباب الأخضر الذي دخلت منه في صباح أول يوم لها في الضيعة، ثم ركضت على الممر عبر الباب الثاني، ثم دخلت إلى البستان، وحين وقفت ونظرت لأعلى، وجدت الشجرة على الجانب الآخر من السور، ووجدت أبا الحنَّاء يُنهي أغنيته، ويشرع في تنظيف ريشه بمنقاره.

قالت: «إنها الحديقة. أنا واثقة أنها هي.»

تجوَّلت في المكان وأمعنت النظر في هذا الجانب من سور البستان، لكنها لم تجد إلا ما وجدته من قبل؛ فلا وجود لأي باب. بعد هذا ركضت عبر حدائق المطبخ مرةً أخرى وخرجت إلى الممشى الكائن أمام السور الطويل المكسوِّ باللبلاب، وسارت حتى نهايته وتفحَّصته، لكنها لم تجد أي باب؛ ثم سارت حتى نهايته من الجانب الآخر، وفحصته مرةً أخرى، لكنها لم تجد بابًا أيضًا.

قالت: «هذا غريب جدًّا. لقد قال بِن ويذرستاف إنه لا وجود لأي باب، ولا يوجد أي باب فعلًا. لكن لا بدَّ أنه كان هناك باب منذ عشر سنوات؛ لأن السيد كرافن دفن المفتاح.»

أدَّى هذا إلى تزاحم الأفكار في ذهنها، حتى إنها بدأت تشعر بفضول وتشويق بالغَين، ولم تعد تشعر بالأسف لمجيئها إلى ضيعة ميسلثويت. ففي الهند كانت دومًا تشعر بالحر والوهن الشديد مما منعها من الاهتمام بأي شيء. في الحقيقة، لقد بدأت رياح المُستنقَع المنعشة تزيل خيوط العنكبوت من عقلها الصغير وتوقظها بعض الشيء من سُباتها.

كانت تقضي اليوم بأكمله تقريبًا خارج المنزل، وحين كانت تجلس لتناول عشائها في المساء، كانت تشعر بالجوع والنعاس والارتياح. لم تعد تشعر بالضيق حين تبدأ مارثا بالثرثرة، بل شعرت وكأنها تحب الاستماع إليها، وأخيرًا فكَّرت في أن تطرح عليها سؤالًا. وطرحته بالفعل بعد أن أنهت عشاءها وجلست على سجادة المدفأة أمام النار.

قالت: «لماذا يكره السيد كرافن هذه الحديقة؟»

وجعلت مارثا تبقى معها، ولم تَعترِض مارثا على ذلك على الإطلاق. فقد كانت لا تزال شابة، ومعتادة على كوخ مزدحم بالإخوة والأخوات، ووجدت الجلوس في قاعة الخدم في الأسفل مملًّا، حيث يسخر الخدم والخادمات الأعلى منها من حديثها بلكنة يوركشاير، وكانوا ينظرون إليها كشيء عادي لا قيمة له، وكانوا يجلسون ويتهامسون فيما بينهم دونها. كانت مارثا تحب الكلام، وكانت الفتاة الغريبة التي عاشت في الهند وكان خدمها كلهم من «السود»، شيئًا جديدًا بما فيه الكفاية ليجذبها.

جلست مارثا على سجادة المدفأة هي الأخرى ولم تتوقَّع أن تُسئل عن شيء.

قالت: «أما زلتِ تفكرين في تلك الحديقة؟ كنتُ أعلم أنكِ ستفعلين. فهذا ما حدث لي حين سمعتُ عنها لأول مرة.»

أصرَّت ماري على سؤالها وقالت: «لماذا يكرهها؟»

وضعت مارثا قدميها تحتها واعتدلت في جلستها، وقالت: «أنصتي إلى هدير الرياح حول المنزل. لو كنت بالخارج هذه الليلة، لوجدت صعوبة حتى في الوقوف على أرض المستنقع.»

لم تكن ماري تعلم معنى كلمة «هدير» حتى استمعت للصوت وفهمت المقصود. لا بدَّ أنه يعني ذلك الزئير الأجوف المخيف الذي يحوم حول المنزل في اندفاع كما لو أن عملاقًا لا يمكن لأحد أن يراه يَقرع المنزل ويضرب الجدران والنوافذ محاولًا اقتحامه. ولكن المرء يعلم أن هذا العملاق لا يستطيع الدخول، ما يخلق شعورًا بالأمان الشديد والدفء، بطريقة ما، داخل غرفة بها نيران مشتعلة بالفحم.

سألتها بعدما استمعت إلى الصوت: «لكن لماذا يَكرهها على هذا النحو؟» كانت تعتزم معرفة ما إذا كانت مارثا تعرف أم لا.

وهنا أفرغت لها مارثا مخزن معلوماتها.

قالت لها: «تذكَّري، لقد قالت السيدة ميدلوك إنه أمر محظور الحديث بشأنه. توجد أشياء كثيرة في هذا المنزل يُحظر الحديث عنها. تلك أوامر السيد كرافن. إنه يقول إن على الخدم ألا يتدخلوا في شئونه. لولا هذه الحديقة، لما صار على هذا الحال. لقد كانت حديقة السيدة كرافن، وهي من أنشأتها في بداية زواجهما وكانت تحبُّها كثيرًا، وكانا يتوليان رعاية الأزهار بأنفسهما. ولم يكن مسموحًا لأي بستاني بدخولها. فقد اعتادا دخولها وغلق الباب خلفهما والبقاء هناك ساعات يقرآن ويتحدثان. كانت فتاة رائعة، وكانت هناك شجرة قديمة وبها فرع مثنيٌّ مِثلَ مقعد عليها. جعلت الورود تنمو على هذا الفرع وكانت تجلس عليه. لكن في أحد الأيام وبينما هي جالسة على الفرع، انكسر وسقطت على الأرض وأصيبت إصابات بليغة وتُوفِّيت في اليوم التالي. ظن الأطباء أنه سيَفقِد عقله ويلحق بها، ولهذا السبب يَكرهها. ولم يدخلها أحد منذ ذلك الحين، ولا يدع أي شخص يتحدث عنها.»

لم تطرح ماري أي أسئلة أخرى، ونظرت إلى النار المستعرة واستمعت إلى «هدير» الرياح، التي بدت «تهدر» أعلى من أي وقت. في تلك اللحظة كان ثمَّة شيء رائع يحدث لها. في الواقع لقد حدثت لها أربعة أشياء جيدة منذ مجيئها إلى ضيعة ميسلثويت. فقد شعرت وكأنها تفهم طائر أبي الحنَّاء وهو يفهمها، وركضت في الرياح حتى سرى الدفء في دمائها، وشعرت بالجوع الصحي لأول مرة في حياتها، وعرفت معنى الشعور بالأسى لشخص ما.

ولكن بينما كانت تستمع إلى الرياح، بدأت تستمع إلى شيء آخر. لم تكن تعلم ما هو؛ إذ لم تستطع في البداية تمييزه عن صوت الرياح نفسها. كان صوتًا غريبًا، وكأن طفلًا يبكي في مكان ما. في بعض الأحيان كان صوت الرياح يبدو مثل صوت طفل باكٍ، لكن الآن شعرت الآنسة ماري يقينًا بأن هذا الصوت من داخل المنزل، وليس خارجه. كان بعيدًا للغاية، لكنه قادم من الداخل. استدارت ونظرت إلى مارثا.

قالت لها: «هل تسمعين أحدًا يبكي؟»

بدا على مارثا الارتباك فجأة.

أجابت: «لا، إنها الرياح، أحيانًا يبدو صوتها كما لو أن أحدًا تائهًا في المستنقَع ويَنتحِب. إنها تُصدر شتى أنواع الأصوات.»

قالت ماري: «لكن استمعي. إن الصوت داخل المنزل، في نهاية أحد تلك الأروقة الطويلة.»

وفي تلك اللحظة تمامًا لا بدَّ أن بابًا فُتح في مكان ما في الطابق السفلي؛ إذ هبَّ تيار هواء شديد عبر الممر وفُتح باب الغرفة التي كانتا جالستَين فيها محدثًا صوتًا عنيفًا، وحين هبت كلاهما واقفتين من الخوف، انطفأ المصباح ودوَّى صوت البكاء عبر الرواق البعيد حتى صار مسموعًا بوضوح أكبر من ذي قبل.

قالت ماري: «ها هو ذا! ألم أقل لك ذلك! ثمَّة شخص يبكي، وليس شخصًا بالغًا.»

هرعت مارثا وأغلقت الباب بالمفتاح، ولكن قبل أن تفعل هذا، سمعت كلاهما صوت باب في ممر ما بعيد يُغلق بعنف شديد، ثم ساد الصمت كل شيء، حتى الرياح توقفت عن «هديرها» لبضع لحظات.

قالت مارثا في عناد: «إنها الرياح، وحتى إن لم تكن هي، فهي بيتي باترورث الخادمة العاملة في المطبخ؛ فقد كانت تعاني من ألم في الأسنان طوال اليوم.»

غير أن شيئًا مزعجًا وغريبًا في أسلوبها جعل الآنسة ماري تُحدِّق فيها بشدة؛ فلم تصدق أنها تقول الحقيقة.

الفصل السادس

«هناك أحد يبكي، هناك أحد!»

في اليوم التالي هطلت الأمطار بغزارة مرةً أخرى، وحين نظرت ماري من نافذتها، كان المستنقع شبه مختفٍ خلف الضباب الرمادي والسحب الرمادية. ولم يكن الخروج من المنزل اليوم مُمكنًا.

سألت مارثا: «ماذا تفعلون في كوخكم حين تهطل الأمطار هكذا؟»

أجابتها مارثا: «نحاول معظم الوقت تدفئة بعضنا، ياه! إن عددنا كبير حقًّا. إن أمي سيدة بشوشة هادئة الطبع، ولكنها تَرتبِك وتنفعل بشدة. ويخرج الأطفال الكبار في حظيرة الماشية ويلعبون هناك. أما ديكون فلا يكترث بالبلل، ويخرج تمامًا كما لو كانت الشمس مشرقة. إنه يقول إنه يرى في الأيام المطيرة أشياء لا تظهر في الجو الصحو؛ فقد وجد ذات مرة ثعلبًا صغيرًا شبه غارق في المياه في جُحره، فأحضره معه إلى المنزل ملفوفًا في القميص الذي يرتديه حتى يدفأ. فقد قُتلت أم الثعلب في مكان قريب وغُمر الجُحر بالماء ومات باقي إخوته. لقد أصبح في منزلنا الآن. وفي مرة أخرى عثر على غراب صغير شبه غارق وأحضره معه إلى المنزل أيضًا وروَّضه، وأطلق عليه اسم سوت (بمعنى سناج)؛ لأنه شديد السواد، ويقفز ويطير في مكان معه.»

وجاء الوقت الذي نسيت فيه ماري استياءها من حديث مارثا الخالي من التكلُّف والرسميات، حتى إنها صارت تجده ممتعًا وتأسف حين تتوقَّف مارثا أو تنصرف تاركة إياها. فالقصص التي كانت تحكيها لها خادمتها حين كانت تعيش في الهند مختلفة تمامًا عن قصص مارثا عن الكوخ الكائن على أرض المستنقَع الذي يعيش فيه أربعة عشر فردًا في أربع غرف صغيرة، وليس لديهم أبدًا ما يكفيهم من الطعام. فقد بدا لها أن هؤلاء الأطفال يتشقلبون طوال الوقت ويستمتعون بوقتهم مثل جِراء صغيرة هائجة ولطيفة.

وكان أكثر مَن جذب ماري في هذه الأسرة الأم وديكون. فحين كانت مارثا تسرد لها القصص عمَّا تقوله «والدتها» أو تفعله، كانت تبدو دومًا قصصًا مريحة.

قالت ماري: «لو كان لديَّ غراب أو جرو ثعلب، لاستطعت اللعب معه، لكن ليس لديَّ أي شيء.»

بدت مارثا مرتبكة.

سألتها: «هل تجيدين أشغال الإبرة؟»

ردَّت عليها ماري: «لا.»

«هل تستطيعين الحياكة؟»

«لا.»

«هل تستطيعين القراءة؟»

«أجل.»

«إذن لماذا لا تقرئين شيئًا، أو تتعلَّمين التهجي؟ فأنتِ كبيرة بما يكفي لتعلم قراءة الكتب الآن.»

قالت ماري: «ليس لديَّ أي كتب. كل الكتب التي كانت عندي تركتها في الهند.»

قالت مارثا: «يا للأسف. ليتَ السيدة ميدلوك تسمح لكِ بدخول المكتبة؛ ففيها آلاف الكتب.»

لم تسأل ماري عن مكان المكتبة؛ إذ خطر بذهنها فجأة فكرة جديدة. فقد اعتزمت الذهاب والعثور عليها بنفسها. لم تكن تهتم لأمر السيدة ميدلوك؛ فهي تبدو طوال الوقت قابعة في غرفة الجلوس المريحة الخاصة بمدبِّرة المنزل في الطابق السُّفلي. وفي هذا المكان الغريب، نادرًا ما يرى المرء أي أحد على الإطلاق. في الواقع، لم يكن يوجد أحد إلا الخدم، وحين يغادر سيدهم المنزل، يعيشون حياةً مترفة تحت السلم، حيث يوجد مطبخ ضخم يزخر بأوانٍ نحاسية وقصديرية، وردهة كبيرة خاصة بالخدم يتناولون فيها أربع أو خمس وجباتٍ وفيرة كل يوم، ويحظون فيها بقدر وافر من المرح الصاخب وقت غياب السيدة ميدلوك.

كانت الوجبات تُقدَّم إلى ماري بانتظام، وكانت مارثا تخدمها، لكن لم يكترث أي شخص آخر بها على الإطلاق. فالسيدة ميدلوك كانت تأتي وتطمئن عليها كل يوم أو يومين، لكن لم يكن أحد يسأل عن أحوالها أو يخبرها بما تفعله. وظنَّت أن هذه ربما تكون الطريقة الإنجليزية في معاملة الأطفال. ففي الهند كانت خادمتها الخاصة تتولى

رعايتها طوال الوقت، وتتبعها أينما ذهبت، وتقوم على خدمتها على قدم وساق، حتى إنها كثيرًا ما كانت تملُّ من مرافقتها لها. أما الآن، فلم يعد أحد يتبعها وبدأت تتعلم ارتداء ملابسها بنفسها؛ إذ بدا وكأن مارثا ترى أن ماري بلهاء وغبية حين أرادت أن يحضر لها الآخرون الأشياء ويساعدونها في ارتداء ملابسها.

ففي إحدى المرات، كانت ماري تقف في انتظار أن تُلبسها قفَّازاتها، فإذ بها تقول: «أليس لديك شيء من الفِطنة؟ إن أختي سوزان آن لديها ضِعفَا ذكائكِ وهي لم تتخطَّ الرابعة من عمرها. أحيانًا يبدو تفكيرك محدودًا.»

ظلت ماري عابسة لمدة ساعة بعد ذلك، لكن دفعها هذا إلى التفكير في العديد من الأشياء الجديدة تمامًا عليها.

فقد وقفت عند النافذة لِما يقرُب من عشر دقائق في صباح هذا اليوم، بعدما نظَّفت مارثا المِدفأة لآخر مرة وذهبت إلى الطابق السُّفلي. كانت تُمعن التفكير في فكرتها الجديدة التي خطرت لها حين سمعت بوجود مكتبة. لم تكن تهتم كثيرًا بالمكتبة في حدِّ ذاتها؛ لأنها لم تقرأ إلا عددًا قليلًا من الكتب، لكن مجرد سماعها بوجودها جعلها تتذكَّر الغرف المائة ذات الأبواب المؤصدة. تساءلت عمَّا إذا كانت كلها مؤصدة بالفعل، وعما ستجده إن استطاعت دخول أي منها. هل توجد مائة غرفة حقًّا؟ لماذا لا تذهب وترى عدد الأبواب التي يُمكنها إحصاؤها؟ سيكون هذا أمرًا يشغلها في صباح الأيام التي لا يكون بمقدورها الخروج من المنزل فيها. لم تتعلَّم قط الاستئذان قبل فعل الأشياء، ولا تدري شيئًا مطلقًا عن السُّلطة؛ ولهذا لم تكن لترى أي ضرورة لاستئذان السيدة ميدلوك في التجول في أنحاء المنزل، حتى لو رأتها.

فتحت باب الغرفة وخرجت إلى الرواق، ثم بدأت تتجوَّل في المكان. كان الرواق طويلًا وتتفرع منه أروقة أخرى وقادها إلى مجموعة من السلالم القصيرة تؤدِّي إلى سلالم أخرى. كان ثمَّة الكثير والكثير من الأبواب، وصور على الجدران. أحيانًا تكون لوحات لمناظر طبيعية معتمة وغريبة، لكنها في معظم الأحيان تكون صورًا لرجال ونساء يرتدون ملابس غريبة وضخمة مصنوعة من الستان والقطيفة. وجدت نفسها في صالة عرض طويلة جميع جدرانها مُغطَّاة بمثل هذه الصور. لم تتصوَّر قط أن من الممكن أن يكون هناك مثل هذا الكم الهائل من الصور في أي منزل. سارت عبر أرجاء المكان بتُؤَدة، وحدَّقت في الأوجه التي بدت تُحدِّق فيها أيضًا. شعرت كأنما يتساءلون عما تفعله فتاة صغيرة من الهند في منزلهم. كان بعض هذه الصور لأطفال؛ فتيات صغيرات يرتدين

عباءات ثقيلة من الستان تصل إلى أقدامهن التي تظهر من أسفلها، وفِتيان يرتدون أكمامًا منفوشة وياقات من الدانتيل وشعرهم طويل، أو يَرتدون ياقات كبيرة منفوشة حول أعناقهم. كانت دائمًا ما تتوقف لتنظر إلى الأطفال، وتتساءل عن أسمائهم، وأين ذهبوا، ولماذا يَرتدون مثل هذه الملابس الغريبة. كانت ثمَّة فتاة صغيرة متعجرفة ذات ملامح عادية تشبهها إلى حدٍّ ما، ترتدي ثوبًا مُزركشًا أخضر اللون، وتحمل ببغاءً أخضر على إصبعها.

كانت في عينيها نظرة حادة غريبة.

قالت لها ماري بصوت مرتفع: «أين تعيشين الآن؟ أتمنى لو كنتِ هنا.»

بالطبع لم تقضِ أيُّ فتاة صغيرة أخرى صباحًا غريبًا مثل هذا الصباح. فقد بدا وكأن لا وجود لأحد في هذا المنزل الضخم المُتَّسع إلا هي، تتجول أعلاه وأسفله، وعبر الممرات الضيقة والواسعة، في أماكن يبدو أن أحدًا لم يسِر فيها غيرها. ونظرًا لوجود الكثير من الغرف، فلا بدَّ إذن أن أشخاصًا قد عاشوا فيها، لكن المكان بأسره بدا خاويًا على عروشه لدرجة جعلتها تشكُّ في حقيقة هذا الأمر.

لم تفكر في فتح مقبض أحد الأبواب إلا حين صعدت إلى الطابق الثاني. كانت كل الأبواب مغلقة تمامًا مثلما قالت السيدة ميدلوك، لكنها أخيرًا وضعت يدها على مقبض أحد هذه الأبواب وأدارته. شعرت بالخوف للحظة حين شعرت بأنه دار معها دون صعوبة، وأن الباب ذاته قد بدأ يُفتح ببطء وصعوبة حين دفعته. كان بابًا ضخمًا يُخفي وراءه غرفة نوم كبيرة. كانت بها لوحات مُطرَّزة على الحائط، وأثاث مُرصَّع كالذي كانت تراه في الهند. كانت ثمَّة نافذة واسعة ذات ألواح زجاجية مثبَّتة بشرائط من الرصاصي تُطلُّ على المستنقع — وفوق الموقد وجدت صورة أخرى للفتاة الصغيرة المتعجرفة البسيطة الملامح، والتي بدت تحدِّق فيها بفضول أكبر من ذي قبل.

قالت ماري: «ربما كانت هذه غرفة نومها في يوم من الأيام، إنها تُحدِّق فيَّ لتجعلني أشعر بغرابتي.»

بعد ذلك فتحت المزيد والمزيد من الأبواب، ورأت كثيرًا من الغرف حتى ضجرت، وبدأت تفكر في أنه لا بدَّ أن ثمَّة مائة غرفة بالفعل، على الرغم من أنها لم تعدَّها. ووجدت فيها جميعًا صورًا قديمة أو لوحات نسيجية قديمة مطرزة بمشاهد غريبة. كانت قطع الأثاث أيضًا غريبة والزخارف غريبة في جميعها تقريبًا.

في إحدى الغرف، التي بدت كغرفة جلوس خاصة بسيدة، كانت اللوحات المعلقة كلها من القطيفة المطرزة، وفي إحدى الخِزانات كان ثمَّة ما يقرب من مائة فيل صغير

مصنوع من العاج، بأحجام مختلفة، وبعضها كان يحمل سائقه أو مِحفَّة على ظهره. كان بعضها أكبر كثيرًا من البعض الآخر، وبعضها صغيرًا للغاية حتى إنها بدت وكأنها مجرد فِيَلَة صغيرة. وكانت ماري قد رأت منحوتات من العاج في الهند وتعرف كل شيء عن الفِيَلَة. فتحت باب الخزانة ووقفت على مسند للقدمين وبدأت تلعب بهذه الفيلة وقتًا طويلًا. وحين أصابها الملل أعادت الفيلة إلى ترتيبها وأغلقت باب الخزانة.

طوال جولاتها عبر الأروقة الطويلة والغرف الخالية، لم ترَ أي شيء على قيد الحياة، إلا أنها رأت شيئًا في هذه الغرفة. فبعدما أغلقت الخزانة سمعت صوت حفيف خافت، جعلها تقفز وتبحث في كل مكان عند الأريكة بجوار المدفأة، حيث بدا الصوت قادمًا من هناك. في ركن الأريكة كانت توجد وسادة، وفي الغطاء المصنوع من القطيفة الذي يُغطيها كان ثمَّة ثقب، ومن داخل الثقب نتأ رأس صغير للغاية به عينين مشدودتين.

تسللت ماري بهدوء عبر الغرفة لتنظر إليه. كانت هاتان العينان اللامعتان لفأرة صغيرة رمادية، وهي من أحدثت هذا الثقب في الوسادة وجعلت منها مأوًى آمنًا لها. كان بداخل هذا المأوى ستة فئران وليدة نائمة بالقرب منها. إذا لم يكن أحد آخر يعيش في الغرف المائة، فقد كان هناك هذه الفئران السبعة التي لم تبدُ وحيدة على الإطلاق.

قالت ماري: «لولا أنها خائفة مني، لأخذتها معي.»

مضت تتجول وقتًا طويلًا حتى شعرت بالتعب ولم تعد تقدر على التجول أكثر من ذلك، فعادت أدراجها. ضلت الطريق لمرتين أو ثلاث بالانعطاف نحو الرواق الخطأ، واضطرت للتجول ذهابًا وإيابًا حتى عثرت على الرواق الصحيح، لكنها في النهاية وصلت إلى طابقها مرةً أخرى، على الرغم من أنها كانت بعيدة بعض الشيء عن غرفتها ولم تعلم بالضبط أين هي.

قالت وهي تقف دون حِراك فيما بدا لها نهاية ممر قصير على جدرانه بساط حائط مُطرَّز: «أعتقد أنني سلكت منعطفًا خطأ مرةً أخرى، أنا لا أعرف أي طريق أسلك، يا للسكون المُطبق الذي يلف كل شيء!»

بينما كانت واقفة هناك وبعد أن ردَّدت تلك الكلمات مباشرة، كسر هذا السكون صوت ما. كان بكاءً آخر، لكنه لم يكن يشبه ذلك الذي سمعته الليلة الماضية؛ بل كان أقصر قليلًا؛ كان نحيبًا طفوليًّا مُتقطِّعًا بدا مكتومًا بفعل مروره عبر الجدران.

قالت ماري وقد تسارعت نبضات قلبها: «إنه أقرب مما كان من قبل. إنه صوت بكاء.»

وضعت يدها دون قصد على البساط المطرز الموجود بالقرب منها، ثم انتفضت للخلف في ذعر شديد. فلم يكن البساط الجداري إلا غطاءً لباب انفتح كاشفًا عن جزء آخر من الرواق خلفه، وكانت السيدة ميدلوك قادمة عبره وفي يدها مجموعة من المفاتيح وعلى وجهها نظرة غضب شديد.

قالت وهي تجذب ماري من ذراعها وتبعدها عن المكان: «ماذا تفعلين هنا؟ ماذا قلتُ لكِ؟»

شرحت لها ماري فقالت: «لقد دخلتُ الرواق الخطأ، لم أكن أعرف إلى أين أذهب وسمعتُ أحدًا يبكي.» كانت تكره السيدة ميدلوك كثيرًا في تلك اللحظة، ولكنها كرهتها أكثر في اللحظة التالية.

قالت مُدبِّرة المنزل: «أنتِ لم تسمعي شيئًا. إما أن تعودي إلى غرفتك وإلا لكمت أذنيكِ.»

وجذبتها من ذراعها ودفعتها نصف دفعة، وشبه جذبتها إلى ممرٍّ ثم إلى آخر حتى دفعتها عبر باب غرفتها.

قالت لها: «الآن، عليكِ البقاء في المكان الذي أخبرناكِ بالبقاء فيه وإلا ستتعرَّضين للحبس. كان من الأفضل أن يُحضر لكِ السيد مربية، مثلما قال إنه سيفعل. فأنتِ بحاجة إلى مَن يعتني بك ويُراقبك مراقبة دقيقة، وأنا عندي ما يشغلني.»

خرجت من الغرفة وأغلقت الباب بعنف خلفها، وذهبت ماري وجلست على السجادة أمام المدفئة، وقد شحب لونها من الغضب. لم تبكِ، لكنها أخذت تُصرُّ على أسنانها.

قالت في نفسها: «كان ثمة هناك أحد يبكي، كان هناك أحد!»

لقد سمعتْ هذا البكاء مرتين الآن، وستعرف مصدره في وقتٍ ما. فقد اكتشفت الكثير في هذا الصباح. شعرت كما لو كانت في رحلة طويلة، وعلى أي حال فقد وجدتْ شيئًا يُسلِّيها طوال الوقت، ولعبت بالأفيال المصنوعة من العاج ورأت الفأرة الرمادية وصغارها في عُشِّها في الوسادة المخملية.

الفصل السابع

مفتاح الحديقة

بعد مرور يومين على هذه الواقعة، حين فتحت ماري عينيها جلست منتصبة في سريرها على الفور ونادت على مارثا قائلة:

«انظري إلى المستنقع! انظري إلى المستنقع!»

كانت العاصفة المطيرة قد انتهت وأزاحت الرياح الضباب الرمادي والسحب الرمادية أثناء الليل. حتى الرياح نفسها هدأت وظهرت سماء زرقاء ساطعة طوَّقت أرض المستنقع. لم تحلم ماري قط برؤية سماء بمثل هذه الزرقة. فقد كانت السموات في الهند حارَّة وحارقة؛ أما هذه فكانت سماءً باردةً شديدةَ الزُّرقة بدت تلمَع مثل المياه في بحيرة جميلة لا قاع لها، وفي أعالي هذه الزرقة الساطعة تناثرت سحب صغيرة بيضاء كالثلج. حتى آفاق المستنقع الفسيحة البعيدة نفسها بدت مخضبةً بلون أزرق ناعم حلَّ محل لونها الأرجواني الكئيب المائل للأسود، أو الرمادي الكئيب البشع.

قالت مارثا بابتسامة مبهجة: «أجل، لقد انتهت العاصفة لفترة. هذا ما يحدث في هذا الوقت من السنة؛ تنتهي في ليلة واحدة كما لو أنها لم تحدث من الأساس، ولا تعتزم العودة مرةً أخرى. هذا لأن فصل الربيع على وشك البدء، لا يزال أمامه وقت طويل، لكنه قادم.»

قالت ماري: «لقد ظننتُ أن المطر يهطل دائمًا أو أن الجو يبدو مظلمًا دومًا في إنجلترا.»

قالت مارثا وهي تجلس منتصبةً على عقبيها بين فراشيها الرصاصية السوداء: «أوه! لا! ليس كما تتصوَّرين.» ولكنها تحدثَت بلهجة يوركشاير الغريبة ولم تفهمها ماري.

تساءلت ماري بجدية: «ماذا يعني ذلك؟» في الهند كان السكان الأصليون يتحدثون بلهجات مختلفة لم يكن يفهمها إلا القليل من الناس، ولهذا لم تُفاجأ حين استخدمت مارثا كلمات لم تفهمها.

ضحكت مارثا تمامًا كما فعلت في أول صباح قابلت فيه ماري.

ثم قالت ببطء وتأنٍ: «ها قد فعلتُها مرةً أخرى؛ لقد تحدثت بلهجة يوركشاير مرةً أخرى وهذا ما حذَّرتني منه السيدة ميدلوك. إن هذا يعني أن هذا لا يحدث كما تظنين، لكن قول هذا يستغرق وقتًا طويلًا للغاية. إن يوركشاير أكثر مكان مُشمِس على وجه الأرض حين تُشرق فيه الشمس. لقد أخبرتكِ أنكِ ستُحبِّين المستنقَع بعد فترة من الوقت. انتظري فقط حتى تَرَي أزهار نبات الجولق الذهبية وأزهار نبات القش وأزهار الخلنج، وكل هذه الأجراس الأرجوانية اللون، ومئات الفراشات الطائرة والنحل الطنَّان وطيور القُبَّرة التي تطير في الهواء وتغرد. حينها سترغبين في الخروج بمجرد شروق الشمس وتقضين اليوم بأكمله في الخارج مثلما يفعل ديكون.» سألت ماري بحزن، وهي تنظر عبر نافذتها إلى اللون الأزرق البعيد: «هل سأتمكن في وقت ما من الوصول إلى هناك؟» كان لونًا جديدًا عميقًا ورائعًا ومبهجًا للغاية.

أجابتها مارثا: «لا أعلم. يبدو لي كما لو أنكِ لم تَستخدِمي قدميكِ قط منذ ولادتك. فأنتِ لا تستطيعين السير لخمسة أميال، وهي المسافة إلى كوخنا.»

«كم أرغب في رؤية كوخكم!»

حدَّقت مارثا فيها للحظة بتعجُّب قبل أن تلتقط فرشاة التلميع الخاصة بها وتبدأ في فرك قضبان المدفأة مرةً أخرى. كانت تفكر في أن هذا الوجه الصغير غير الجميل لم يبدُ عليه الغضب في هذه اللحظة كما كان في صباح أول يوم رأته فيه. لقد بدا يُشبه قليلًا وجه سوزان آن حين يكون لديها رغبة شديدة في شيء ما.

قالت لها: «سأسأل أمي عن هذا؛ فهي تجد دومًا طريقة لفعل كل شيء تقريبًا. سأذهب إلى البيت اليوم، وأنا سعيدة للغاية. إن السيدة ميدلوك تحترم أمي وتقدرها كثيرًا. ربما بإمكانها الحديث إليها.»

قالت ماري: «أنا أحب والدتكِ.»

ردَّت مارثا بالإيجاب عليها وهي تواصل التلميع: «أعتقد ذلك.»

قالت ماري: «لكني لم أرَها قط.»

ردت مارثا: «لا، لم تريها أبدًا.»

جلست على عقبيها مرةً أخرى وفركت طرف أنفها بيدها من الخلف كمن وقع في حيرة للحظة، لكنها انتهت من تفكيرها وقد قطعت الشك باليقين.

«حسنًا، إنها إنسانة واعية ومجتهدة وحلوة المعشر ونظيفة، حتى إن كل الناس يحبونها سواء رأوها أم لا. حين أكون عائدة إلى المنزل لأقابلها في يوم إجازتي أقفز فرحًا وأنا أعبر أرض المستنقع.»

أضافت ماري: «وأحب ديكون أيضًا، مع أني لم أرَه.»

قالت مارثا بصرامة: «حسنًا، لقد أخبرتك أن الطيور تحبه والأرانب والماعز البرية والمهور وحتى الثعالب نفسها تحبه.» ثم حدَّقت فيها في تأمُّل وقالت: «أتساءل ماذا سيكون رأي ديكون حين يراكِ.»

قالت ماري بأسلوبها الصغير الجاف البارد: «لن يحبَّني؛ فلا أحد يحبني!»

نظرت مارثا في تأمُّل مرةً أخرى.

ثم سألتها بهدوء بالغ كما لو كان لديها فضول لتعرف حقًّا: «هل تُحبين أنتِ نفسك؟»

تردَّدت ماري للحظة وفكرت في الأمر.

ثم أجابتها: «في الواقع أنا لا أحب نفسي على الإطلاق، لكني لم أفكر في هذا الأمر من قبل.»

ابتسمت مارثا قليلًا كما لو كانت قد تذكَّرت إحدى ذكرياتها العائلية.

قالت: «قالت أمي لي ذلك ذات مرة. كانت تقف عند حوض الغسيل وكنتُ في حالة عصبية وأتحدث بالسوء عن الآخرين، فاستدارت لي وقالت: «أيتها المشاكسة الصغيرة! تقفين هكذا وتقولين إنكِ لا تُحبِّين هذا وذاك. هل تُحبِّين نفسك؟» جعلني هذا أضحك وسرعان ما أعادني إلى رُشدي.»

وانصرفت مارثا وهي مبتهجة فور تقديم الإفطار لماري. فقد كانت ستسير مسافة خمسة أميال عبر المستنقع إلى كوخها، وستُساعد والدتها في الغسيل وخبز الأسبوع وتستمتع بوقتها تمامًا.

شعرت ماري بالوحدة أكثر من أي وقت آخر حين علمت أنها لم تعدْ في المنزل. خرجت إلى الحديقة بأسرع ما يمكنها، وكان أول شيء فعلته أن ركضت حول حديقة الأزهار ذات النافورة عشر مرات. كانت تعدُّ المرات بعناية، وحين انتهت من ذلك صارت في حالة معنوية أفضل. جعل ضوء الشمس المكان بأكمله يبدو مختلفًا. فقد كانت السماء العالية بزُرقتها العميقة تُطوِّق ميسلثويت بأكملها وكذا أرض المستنقَع، وظلَّت ترفع

وجهها وتنظر إليها طوال الوقت، في محاولة منها لتخيل شعور المرء عند الاستلقاء على واحدة من هذه السحب الصغيرة ذات البياض الثلجي والتحليق بعيدًا. وحين دخلت إلى حديقة المطبخ الأولى، وجدت بِن ويذرستاف يعمل فيها مع بُستانيَين اثنين آخرَين. ويبدو أن حالته المزاجية قد تحسَّنت مع تغيُّر الطقس؛ فقد تحدث إليها من تلقاء نفسه، وقال: «الربيع قادم، ألا تشمين رائحته؟»

حاولت ماري أن تشمَّ الرائحة وظنت أنها استطاعت ذلك.

قالت: «أشم رائحة شيء ذكي ومُنعش ورطب.»

أجابها مواصلًا الحفر: «إنها رائحة الأرض الطيِّبة الغنية؛ فهي في حالة مزاجية تستعد لنمو الأشياء. إنها تسعد عندما يحين وقت الغرس، وتكون باهتةً كئيبةً في الشتاء حين لا يكون أمامها شيء لتفعله. في حدائق الأزهار بالخارج سوف تتحرك الأشياء تحت ظلام الأرض، وتقوم الشمس بتدفئتها، لذا سترين أجزاءً خضراء صغيرةً ناتئةً من الأرض السوداء بعد قليل.»

سألته ماري: «ماذا ستكون؟»

«نباتات الزعفران وزهرة اللبن الشتوية والنرجس. ألم تريها من قبل؟»

قالت ماري: «لا، فكل شيء يكون حارًّا ورطبًا وأخضر اللون عقب الأمطار في الهند. وأعتقد أن الأشياء تنمو هناك في ليلة واحدة.»

قال ويذرستاف: «هذه لن تنمو في ليلة، وسيكون عليَّ الاهتمام بها. ستبرز إلى أعلى قليلًا هنا، وتُخرج المزيد من السنابل هناك، وتُخرج ورقةً اليوم ثم واحدةً أخرى تليها. عليكِ مراقبتها.»

ردَّت عليه ماري: «سأفعل ذلك.»

وسرعان ما سمعت حفيف رفرفة الأجنحة اللطيف مرةً أخرى، وعلمت في الحال أنه أبو الحنَّاء قد عاد مرةً أخرى. كان أنيقًا ونشيطًا للغاية، وظل يتقافَز على مقربة بالغة من قدمَيها، ويميل برأسه جانبًا وينظر إليها بمكر شديد، ما دفعها إلى أن تطرح سؤالًا على بِن ويذرستاف.

قالت له: «أتظنُّ أنه يتذكرني؟»

قال لها ويذرستاف بسخط: «يتذكَّرك! إنه يعلم كل ورقة ملفوفة في الحدائق، ما بالكِ بالأشخاص. إنه لم يرَ فتاة صغيرة هنا من قبل، وينوي معرفة كل شيء عنكِ. فلا داعِ لأن تُحاولي إخفاء أي شيء عنه.»

سألت ماري: «هل تتحرك الأشياء في الظلام تحت سطح الأرض في الحديقة التي يعيش فيها أيضًا؟»

زمجر ويذرستاف وعاد إلى تجهمُّه مرةً أخرى، وقال: «أي حديقة؟»

لم تستطع منع نفسها من السؤال، لأنها أرادت أن تعرف بشدة: «الحديقة التي بها أشجار الورد القديمة. هل كل الورود فيها قد ماتت، أم يعود بعض منها إلى الحياة مرةً أخرى في الصيف؟ أتوجد ورود من الأساس؟»

قال بِن ويذرستاف وهو يحني أكتافه تجاه أبي الحنَّاء: «سليه. فهو الوحيد الذي يعلم هذا؛ فلم يرَ أحد ما بداخلها طوال عشر سنوات.»

قالت ماري في نفسها إن عشر سنوات فترة طويلة للغاية؛ فهي قد وُلِدت منذ عشر سنوات.

وانصرَفت وهي تفكر بترو. لقد بدأت تحب الحديقة تمامًا مثلما بدأت تحب أبا الحنَّاء وديكون ووالدة مارثا. حتى إنها بدأت تحب مارثا نفسها أيضًا. وبدا أن لديها مشاعر حب نحو عدد لا بأس به من الأشخاص، وهي التي لم تعتَدْ على حب الناس. واعتبرت أبا الحنَّاء ضمن هؤلاء الأشخاص. واصلت السير حتى ممشاها الكائن أمام السور الطويل المكسوِّ باللبلاب، الذي تستطيع رؤية قمم الأشجار من فوقه، وحين سارت فيه ذهابًا وإيابًا للمرة الثانية، حدث لها أكثر شيء مُشوِّق ومثير للاهتمام، وكان هذا بسبب طائر أبي الحنَّاء صديق بِن ويذرستاف.

سمعت صوت زقزقة وتغريد، وحين نظرت إلى حوض الأزهار الأجرد الموجود على يسارها، وجدته يقفز في أرجاء المكان ويتظاهر بأنه يلتقط أشياء من على الأرض بمنقاره ليُقنعها بأنه لم يكن يتبعها. لكنها كانت تعلم أنه يتبعها وأسعدتها هذه المفاجأة كثيرًا لدرجة جعلتها ترتجف قليلًا.

صاحت قائلةً: «أنت تذكرني! أنت تذكرني حقًّا! إنك أجمل من أي شيء آخر في العالم!»

أخذت تُزقزق وتتحدث إليه وتلاطفه وراح هو يقفز ويحرك ذيله ويغرد. بدا الأمر كما لو كان ثمَّة حديث يدور بينهما. وكان ريش صدره الأحمر مثل الحرير، وحين نفَخ صدره الصغير، بدا في غاية الجمال والبهاء والهيبة، حتى بدا وكأنه يريها مدى أهمية طائر أبي الحنَّاء ومدى الشبه بينه وبين البشر. أما الآنسة ماري، فنسيت أنها كانت مشاكسةً في وقتٍ من أوقات حياتها حين سمحت لنفسها بالاقتراب أكثر وأكثر منه، ومالت عليه وتحدَّثت إليه، وحاولت تقليد صوت طيور أبي الحنَّاء.

كم يبدو رائعًا أن تفكر أنه قد سمح لها بالاقتراب منه على هذا النحو! فلم يكن يعلم من الدنيا شيئًا من شأنه أن يجعلها تؤذيه أو تُخيفه بأي حال. لقد علم هذا لأنه كان مثل البشر حقًّا، لكنه كان ألطف من أي إنسان في العالم. تملكتها سعادة عارمة حتى إنها كانت لا تكاد تجرؤ على التنفس.

لم يكن حوض الأزهار أجرد تمامًا؛ فقد كان خاليًا من الأزهار لأن النباتات المُعمِّرة قد قُطعت من أجل راحتها الشتوية، لكن كان به شجيرات طويلة وقصيرة نمت معًا في الجزء الخلفي من الحوض، وفي أثناء قفزه تحت هذه الشجيرات، لاحظت أنه يقفز على كومة صغيرة من تراب مستخرج حديثًا، وتوقف عليها ليبحث عن دودة. كان التراب مستخرجًا، لأن كلبًا كان يحاول حفر هذا الجزء ليُخرج منه حيوان خُلْد، فحفر حفرةً شديدة العمق.

نظرت ماري إليه، وهي لا تعرف سبب وجود هذه الحفرة، وبينما هي تنظر رأت شيئًا شبه مدفون وسط التراب المُستخرَج حديثًا. كان شيئًا يُشبه حلقة من حديد صدئ أو نحاس، وحين طار أبو الحنَّاء إلى شجرة قريبة، مدَّت يدها والتقطت هذه الحلقة. غير أن هذا الشيء لم يكن مجرد حلقة، بل كان مفتاحًا قديمًا، بدا كأنما دُفن منذ وقت طويل.

وقفت الآنسة ماري ونظرت إليه وهو يتدلَّى من إصبعها بوجه يكسوه الخوف، ثم قالت بصوت هامس: «ربما دُفن منذ عشر سنوات. لعله مفتاح الحديقة!»

الفصل الثامن

أبو الحنَّاء مرشد الطريق

ظلت تنظر إلى المفتاح وقتًا طويلًا، وأخذت تقلبه في يدها مرارًا، وتفكر فيه. وكما ذكرت من قبل، لم تكن طفلة مدرَّبة على الاستئذان أو أخذ مشورة الأكبر سنًّا بشأن الأشياء. كل ما كانت تفكر فيه بشأن المفتاح أنه لو كان مفتاح الحديقة المغلَقة، واستطاعت هي العثور على مكان بابها، فربما يُمكنها فتح هذه الحديقة ورؤية ما بين أسوارها، وما حدث لأشجار الورد القديمة. لقد أرادت رؤيتها لأنها ظلَّت مغلقة وقتًا طويلًا؛ إذ تراءى لها أنها لا بدَّ وأنها مختلفة عن الأماكن الأخرى، وأن شيئًا غريبًا حدث لها بالتأكيد خلال تلك السنوات العشرة. بالإضافة إلى هذا، ربما إن أحبَّتها، فيمكنها أن تذهب إليها كل يوم وتغلق الباب خلفها، وتصنع بعض الألعاب الخاصة بها وتلعب بها وحدها؛ لأن أحدًا لن يعلم بمكانها على الإطلاق، بل سيظنون أن الباب ما زال مغلقًا وأن المفتاح مدفون في الأرض. كان في هذا التفكير سعادة جمَّة لها.

كانت حياتها على هذا النحو، وحيدةً تمامًا في منزل به مائة غرفة غامضة مغلقة دون أي شيء تُسلِّي به نفسها، تُعمِل عقلها الخامل وتوقظ خيالها. ولا شك في أن الهواء المنعش القوي النقي القادم من المستنقع كان له دور كبير في هذا. فمثلما فتح الهواء شهيتها للطعام، وحرَّكت مصارعة الرياح الدماء في عروقها، حرَّكت هذه الأشياء عقلها أيضًا. ففي الهند، كانت تشعر دومًا بالحر والوخم والضعف، فلم تكن تهتمُّ كثيرًا بأي شيء، لكن في هذا المكان بدأت تهتم وترغب في القيام بأشياء جديدة. لقد شعرت بالفعل أنها أصبحت أقل «مشاكسة»، وإن كانت لم تعرف السبب.

وضعت المفتاح في جيبها وأخذت تذرع الممشى ذهابًا وإيابًا. لم يكن يبدو أن أحدًا سواها يأتي إلى هذا المكان؛ ولهذا استطاعت أن تسير بتأنٍّ وتتفحَّص السور، أو بالأحرى، اللبلاب الذي ينمو عليه. كان اللبلاب هو الشيء المُحيِّر في الأمر بالنسبة إليها. فمهما كانت

تتفحَّصه بعناية، لم تكن تستطيع رؤية أي شيء عدا الأوراق الكثيفة اللامعة ذات اللون الأخضر الداكن. وأصابتها خيبة أمل كبيرة. عاودها شيء من مشاكستها وهي تذرع الممشى وتنظر منه إلى قمم الأشجار الموجودة بالداخل. بدا الأمر سخيفًا للغاية بالنسبة إليها أن تكون قريبة منها ولا تستطيع الدخول. وضعت المفتاح في جيبها حين عادت إلى المنزل، وقرَّرت أن تحمله معها طوال الوقت عند خروجها من المنزل، حتى تكون مستعدة إذا تمكنت يومًا ما من العثور على الباب الخفي.

سمحت السيدة ميدلوك لمارثا بقضاء الليل في كوخها، لكنها عادت إلى عملها في الصباح ووجنتاها أكثر حُمرةً من أي وقت مضى ومعنوياتها في أفضل حال.

قالت: «لقد استيقظت في الرابعة صباحًا، ويا لروعة المنظر على المستنقع! كانت الطيور تستيقظ والأرانب تركض والشمس موشكة على الشروق. لم أسِر الطريق بأكمله؛ فقد أوصلني رجل بعربته واستمتَعتُ كثيرًا بهذا.»

كانت لديها قصص كثيرة عن المباهج التي امتلأ بها يوم إجازتها. فقد فرحت والدتها برؤيتها وانتهيا معًا من الخبز والغسيل. حتى إنها صنعت لكل واحد من الأطفال كعكة صغيرة عليها قليل من السكر البُني.

«كانت كلها ساخنة حين عادوا جميعًا من اللعب في المستنقع، وعبق الكوخ بأكمله برائحة الخبيز الساخن الرائعة، وكنا قد أشعلنا نارًا في المدفئة، فصاح الأطفال في سعادة. قال أخي ديكون إن كوخنا يصلح ليعيش فيه مَلك.»

في المساء جلسوا جميعًا أمام النار، وخاطت مارثا ووالدتها رُقعًا على الثياب الممزقة وأصلحتا الجوارب، وأخبرتهم مارثا عن الفتاة الصغيرة القادمة من الهند، التي كان يقوم على خدمتها طوال حياتها من أطلقَت عليهم مارثا «السُّود» حتى أصبحت الفتاة لا تعرف كيف ترتدي جواربها.

قالت مارثا: «حسنًا! لقد أحبوا سماع قصص عنكِ؛ فقد أرادوا معرفة كل شيء عن السود وعن السفينة التي جئتِ على متنها. ولكن لم أستطع أن أخبرهم بالكثير عن هذا.»

فكرت ماري قليلًا.

ثم قالت: «سأُخبركِ بالكثير عن هذا قبل إجازتك المقبلة، حتى تجدي المزيد للحديث عنه. أعتقد أنهم سيُحبُّون سماع قصص عن ركوب الأفيال والجمال، وعن خروج الضباط لصيد النمور.»

صاحت مارثا في سعادة قائلة: «يا إلهي! إن هذا سيجعلهم يفقدون صوابهم. هل ستفعلين هذا حقًّا يا آنسة؟ سيكون هذا أشبه بعرض الحيوانات البرية الذي سمعنا عن إقامته ذات مرة في يورك.»

قالت ماري ببطء، وهي تفكر في الأمر: «إن الهند مختلفة كثيرًا عن يوركشاير، لكنني لم أفكر في هذا من قبل أبدًا. هل راق لديكون ووالدتك حديثكِ عني؟»

أجابتها مارثا: «أجل، لقد كادت عينا ديكون تخرجان من رأسه، وكانتا تدوران طوال الوقت. ولكن أمي انزعجت كثيرًا من كونك وحيدة طوال الوقت.» وقالت: «ألم يُحضر السيد كرافن معلمة لها، ولا حتى مربية؟» وقلت لها: «لا، لم يفعل، على الرغم من أن السيدة ميدلوك قالت إنه سيفعل، بعدما يفكر في الأمر، لكنها تقول إنه ربما لن يفكر فيه لسنتين أو ثلاث.»

قالت ماري بحدَّة: «أنا لا أريد معلمة.»

«لكن أمي تقول إن عليك التعلُّم في هذه السن، ولا بدَّ من وجود سيدة للاعتناء بكِ. وقالت: «حسنًا يا مارثا، فكِّري فيما كنتِ ستشعرين به وأنتِ في مكان كبير مثل هذا، تتجولين فيه وحدك تمامًا، وليس لك أم. عليكِ بذْل كل ما في وسعك للترفيه عنها»، وأخبرتُها أنني سأفعل.»

نظرت إليها ماري نظرة طويلة ثابتة.

ثم قالت لها: «أنتِ تُرفِّهين عني بالفعل. فأنا أحب الاستماع إلى حديثك.»

في تلك اللحظة خرجت مارثا من الغرفة، ثم عادت وهي تُمسِك بشيء بين يديها تحت مئزرها.

قالت لها بابتسامة مبتهجة: «ما رأيك؟ لقد أحضرت لكِ هدية.»

صاحت الآنسة ماري في تعجب: «هدية!» فكيف يمكن لكوخ يعيش به أربعة عشر فردًا جائعًا تقديم هدية لأي شخص!

شرحت لها مارثا فقالت: «كان ثمَّة بائع مُتجوِّل يسير عبر المستنقع، وتوقف بعربته أمام باب كوخنا. كان لديه قدور ومقالٍ وأشياء أخرى قديمة، لكن والدتي لم يكن لديها مال لتشتري منه أي شيء. وبينما كان يهُمُّ بالرحيل، صاحت أختي إليزابيث إلين وقالت: «أمي، إن لديه حبالًا للقفز بمقابض بالأحمر والأزرق.» فصاحت أمي فجأة، «توقف أيها السيد! كم ثمن هذه الحبال؟» فقال: «بنسان.» فبدأت أمي تتحسَّس جيبها وقالت لي: «أنتِ تُحضِرين لي أجرك كفتاة بارَّة، وأنا أضع كل بنس منه في أربعة مواضع، لكنني سآخذ منه بنسَين لأشتري لهذه الطفلة حبل قفز.» واشترت واحدًا بالفعل وها هو.»

أخرجت الحبل من تحت مئزرها وعرضته أمامها بفخر شديد. كان حبلًا قويًّا ورفيعًا، له مقبض مخطَّط بالأحمر والأزرق في كلا طرفيه، لكن ماري لينوكس لم ترَ حبل قفز من قبل في حياتها قط؛ فأخذت تُحدِّق فيه بتعبير ينم عن الحَيرة.

سألتها بفضول: «ما الغرض منه؟»

صاحت مارثا: «ماذا! هل هذا يعني أنه لا توجد حبال قفز في الهند، بينما توجد أفيال ونمور وجِمال! لا عجب أن معظمهم من السود. هذا هو الغرض منه، راقبيني.»

وهرعت إلى وسط الغرفة، وأمسكت بمقبض في كلتا يديها، وبدأت تقفز، وتقفز، وتقفز، بينما أدارت ماري كرسيها لتُحدِّق فيها، وبدت الوجوه الغريبة في الصور القديمة تُحدِّق فيها أيضًا، كأنما تتعجَّب من وقاحة هذه الفتاة الوضيعة ساكنة الكوخ لكي تفعل ما تفعله أمام أعينهم. إلا أن مارثا لم ترَهم حتى. فقد أسعدها الفضول والاهتمام المرتسمين على وجه الآنسة ماري، واستمرَّت في القفز والعد وهي تقفز حتى وصلت إلى مائة.

قالت حين توقفت: «بإمكاني القفز أكثر من هذا، فقد وصلت إلى خمسمائة حين كنتُ في الثانية عشر، لكني لم أكن بدينة حينها كما أنا الآن، وكنتُ أتدرب باستمرار.»

نهضت ماري من مقعدها وبدأت تشعر بالحماس.

قالت: «يبدو الأمر لطيفًا، إن والدتك امرأة طيبة. هل تعتقدين أن بإمكاني القفز هكذا؟»

حثَّتها مارثا وهي تُناولها حبل القفز قائلة: «فقط جربي. بالطبع لن تستطيعي القفز مائة قفزة في البداية، لكن مع الممارسة ستَصلين إلى هذا العدد. هذا ما قالته لي أمي. لقد قالت: «لن ينفعها شيء إلا قفز الحبل، إنها أنسب لعبة يُمكن أن يحصل عليها أي طفل. دعيها تلعب به في الهواء الطلق، فالقفز سيعمل على إطالة ساقيها وذراعيها ويجعلهم أكثر قوة».»

كان واضحًا أن الآنسة ماري لا تَملِك الكثير من القوة في ذراعيها وساقيها حين بدأت تقفز لأول مرة. لم تكن بارعة كثيرًا فيه، لكنها أحبَّته كثيرًا حتى إنها لم تكن تريد التوقف.

قالت مارثا: «ارتدي ملابسك الثقيلة واركضي واقفزي بالخارج. لقد قالت أمي لا بدَّ أن أخبرك أن عليكِ قضاء الوقت خارج المنزل قدر استطاعتك، حتى حين تمطر بعض الشيء، حتى تشعري بالدفء.»

ارتدت ماري معطفها وقبعتها وأخذت حبل القفز فوق ذراعها، وفتحت الباب وخرجت، ثم خطر لها شيء فجأة وعادت أدراجها ببطء نوعًا ما.

قالت: «مارثا، إن هذا الحبل من أجرك. فقد كان البنسان لكِ، شكرًا لكِ.» قالتها بصرامة؛ لأنها لم تكن معتادة على شكر الآخرين، أو ملاحظة أنهم فعلوا شيئًا من أجلها. قالت لها «أشكركِ»، ومدت لها يدها مصافحة لأنها لم تكن تعرف ماذا تفعل غير ذلك.

صافحت مارثا يدها مصافحة هزيلة قصيرة، كما لو كانت غير معتادة أيضًا على مثل هذه الأشياء، ثم ضحكت.

قالت: «ياه! يا لكِ من فتاة غريبة تتصرَّف مثل السيدات المسنات. لو كانت إليزابيث إلين مكانك، لأعطتْني قبلة.»

بدت الصرامة على ماري أكثر من أي وقت.

«أتريدين مني أن أقبلك؟»

ضحكت مارثا مرةً أخرى.

أجابتها: «لا، ليس أنا. لو كنتِ شخصًا آخر، لربما أردتِ أنت نفسك هذا. لكنكِ لستِ كذلك. هيا أسرعي إلى الخارج والعبي بالحبل.»

شعرت الآنسة ماري ببعض الحرج وهي تغادر الغرفة. لقد بدا لها أهل يوركشاير أناسًا غرباء، وكانت مارثا دومًا ما تُشكِّل لها لغزًا محيِّرًا نوعًا ما. ففي البداية كانت تبغضها كثيرًا، لكنها ليست كذلك الآن. كان حبل القفز شيئًا رائعًا. فأخذت تقفز وتعدُّ، وتعدُّ وتقفز، حتى احمرَّت وجنتاها بشدة، وانتابها شعور بالإثارة لم تعهده من قبل منذ ولادتها. كانت الشمس ساطعة، ورياح خفيفة تهب عليها. لم تكن رياحًا شديدة، بل رياحًا تأتي في شكل نسمات خفيفة مبهجة، وجلبت رائحة عطِرة للأرض المحروثة حديثًا. ظلت تقفز حول الحديقة ذات النافورة، ذهابًا عبر ممشى وإيابًا عبر ممشى آخر. وفي النهاية قفزت في حديقة المطبخ ورأت بِن ويذرستاف وهو يحفر ويتحدث إلى أبي الحنَّاء، الذي كان يتقافز بدوره حوله. أخذت تقفز عبر الممشى المؤدِّي إليه، فرفع رأسه ونظر إليها وقد ارتسم على وجهه الفضول. تساءلت عمَّا إذا كان سيُلاحظ وجودها؛ فقد أرادت أن يراها وهي تقفز.

صاح قائلًا: «حسنًا! يا إلهي! ربما تكونين فتاة صغيرة، في النهاية، وربما تجري في عروقك دماء الأطفال وليس حليب رائب حامض. لقد دبَّت الدماء في وجنتيكِ من القفز، أنا متأكد من هذا مثلما أنا متأكِّد من أن اسمي بِن ويذرستاف. لم أكن أتصور أن بإمكانكِ فعل هذا.»

قالت ماري: «لم أقفز بالحبل من قبل؛ لقد بدأت للتوِّ، ولم أتمكن من الوصول إلا إلى عشرين قفزة.»

قال بن: «عليكِ بالمواظبة؛ فأنتِ تجيدينها بالنسبة إلى فتاة صغيرة عاشت مع أناس همجيين. انظري كيف يُراقبكِ»، ومال برأسه نحو أبي الحنَّاء. «لقد تبعكِ أمس، وسيفعل هذا مجدَّدًا اليوم. سوف يصمِّم على معرفة ما هو القفز بالحبل. فهو لم يرَ أحدًا من قبل يفعل هذا.» ثم هزَّ رأسه متحدثًا للطائر وقال: «يا إلهي! إن فضولك هذا سيكون سببًا في موتك يومًا ما لم تحترس.»

استمرت ماري في القفز عبر جميع الحدائق وفي أرجاء البستان، وكانت تستريح كل بضع دقائق. وبعد فترة ذهبت إلى ممشاها الخاص، وعقدت العزم على محاولة القفز على طول امتداده. كانت مسافة طويلة وكانت بدايتها بطيئة، ولكن بعد وصولها إلى منتصفه، شعرت بالحر الشديد وانقطعت أنفاسها فاضطرت إلى التوقف. لم تكترث كثيرًا بذلك، لأنها كانت قد وصلت إلى ثلاثين قفزة.

توقفت وقد ارتسمت على وجهها ضحكة صغيرة تنمُّ عن السعادة، وهناك، وعلى حين غِرة، رأت طائر أبي الحنَّاء وهو يتأرجَح على فرع طويل من اللبلاب. لقد تتبعها بالفعل وحيَّاها بزقزقته. وعندما همَّت ماري بالقفز نحوه، شعرت بشيء ثقيل في جيبها يصطدم بجسدها مع كل قفزة، وحين رأت أبا الحنَّاء ضحكت مرةً أخرى.

قالت له: «لقد أرشدتني إلى مكان المفتاح يوم أمس، وعليك أن تُرشدني إلى مكان الباب اليوم، لكني لا أعتقد أنك تعرف مكانه!»

طار أبو الحنَّاء من فرع اللبلاب الذي يتأرجح عليه إلى قمة السور، وفتح منقاره وغرَّد تغريدةً عاليةً وجميلةً على سبيل الاستعراض لا أكثر. فما من شيء في العالم أجمل من طائر أبي الحنَّاء حين يستعرض، وهذا ما تفعله هذه الطيور طوال الوقت تقريبًا.

لقد سمعت ماري لينوكس كثيرًا عن السحر في قصص خادمتها الخاصة في الهند، وكانت دائمًا ما تقول إن ما حدث في تلك اللحظة كان أشبه بالسحر.

فقد هبَّت واحدة من عصفات الرياح الخفيفة الجميلة على الممشى وكانت أقوى من نظيراتها. كانت قوية لدرجة جعلتها تحرك فروع الأشجار، وكان لديها من القوة ما مكَّنها من إزاحة أفرع اللبلاب غير المُشذَّبة المتدلية على السور. اقتربت ماري من أبي الحنَّاء، وفجأة أزاحت عصفة ريح بعض أفرع اللبلاب المتدلية، وفجأة أيضًا قفزت نحوه وأمسكت به في يدها. لقد فعلت هذا لأنها رأت شيئًا ما تحته؛ كان مقبضًا مستديرًا تغطيه أوراق الشجر المتدلية عليه. كان مقبض باب.

وضعت يديها أسفل أوراق الشجر وبدأت تجذبها وتدفعها جانبًا. كان اللبلاب كثيفًا للغاية، فبدا مثل ستارة مرتخية ومتأرجحة، على الرغم من زحف بعضها على الخشب والحديد. بدأ قلب ماري يخفق ويداها ترتعشان قليلًا من السعادة والحماس. استمر أبو الحنَّاء في الغناء والتغريد ومال برأسه إلى أحد الجوانب، كما لو كان متحمِّسًا مثلها تمامًا. ماذا كان هذا الشيء الموجود تحت يديها، الذي كان مربع الشكل ومصنوعًا من الحديد، والذي حين تحسَّسته بأصابعها وجدت فيه ثقبًا؟

لقد كان هذا قفل الباب الذي ظلَّ مغلقًا طوال عشر سنوات. وضعت يدها في جيبها، وأخرجت المفتاح لتجده قد دخل في ثقب المفتاح. وضعت المفتاح داخل ثقب القفل وأدارته. تطلب الأمر استخدام كلتا يديها، لكنه دار بالفعل.

أخذت نفسًا طويلًا، ونظرت خلفها على طول الممشى لترى إن كان أحد قادمًا. لم يكن أحد قادمًا. يبدو أن أحدًا لم يكن يأتي إلى هذا المكان، فأخذت نفسًا طويلًا آخر، رغمًا عنها، وأزاحت ستارة اللبلاب المتدلية ودفعت الباب ففُتح ببطء شديد.

انسلت عبر الباب، وأغلقته وراءها، ووقفت موجهةً ظهرها إليه، ونظرت حولها وهي تتنفس سريعًا من الحماس والتعجب والفرحة.

إنها الآن تقف داخل الحديقة السرية.

الفصل التاسع

أغرب منزل عاش فيه إنسان

كان هذا المكان أجمل وأكثر غموضًا مما يتخيَّل أي إنسان. فقد كانت أسواره العالية المحيطة به مغطَّاة بجذوع تخلو من الأوراق لأشجار ورد متسلِّقة، وكانت كثيفة لدرجة جعلتها تتشابك معًا. كانت ماري لينوكس تعلم أنها أشجار ورد؛ كونها رأت الكثير من الورد في الهند. كانت الأرض كلها مغطاة بحشائش اكتسَت بذبول الشتاء، ونمت منها كتل من الشجيرات كانت بالتأكيد ستصبح شجيرات ورد، إن ظلَّت على قيد الحياة. كان يوجد عدد من شجيرات الورد المعروفة، التي نشرت فروعها حتى بدت كما لو كانت أشجارًا صغيرة.

كان بالحديقة أشجار أخرى، وكان من الأشياء التي جعلت هذا المكان الأغرب والأجمل على الإطلاق الورد المُتسلِّق الذي امتدَّت عروشه عبر تلك الأشجار جميعًا، وتدلَّى منه أجزاء لولبية الشكل صنَعت ما هو أشبه بستائر خفيفة متأرجِحة، وتشابكت هذه الأجزاء هنا وهناك إما مع بعضها أو مع فرع بعيد عنها وزحفت من شجرة إلى أخرى، فصنعت بذلك لنفسها جسورًا بديعة الجمال.

لم يكن ثمَّة أزهار ولا أوراق عليها الآن، ولم تعلم ماري أماتت أم ما زالت حية، إلا أن أغصانها وفروعها الرفيعة الرمادية أو البُنية بدت أشبه بغطاء ضبابي يفترش كل شيء، الأسوار والأشجار وحتى الحشائش البُنية، حيث سقطت من مواضعها وانتشرت عبر الأرض. كان هذا التشابك الضبابي من شجرة إلى أخرى هو ما أضفى على المكان كله هذا الغموض الشديد. حدَّثت ماري نفسها بأن هذه الحديقة لا بدَّ أنها مختلفة عن الحدائق الأخرى التي تُركت فترة طويلة دون اعتناء، بل مختلفة عن أي مكان آخر رأته في حياتها.

قالت في همس: «يا لهذا السكون! يا له من مكان هادئ!»

انتظرت لحظة وأنصتت للصمت. وكان أبو الحنَّاء، الذي طار إلى قمة شجرته، ساكنًا مثل كل شيء آخر. فلم يكن يرفرف حتى بجناحيه، بل جلس دون حِراك، ينظر إلى ماري.

قالت في همس مرةً أخرى: «لا عجب في هذا السكون؛ فأنا أول شخص يتحدَّث هنا منذ عشر سنوات.»

ابتعدت عن الباب وظلت تخطو بهدوء كما لو كانت تخشى إيقاظ شخص ما. كانت سعيدة بوجود حشائش تحت قدميها وخفوت صوت خطواتها. سارت تحت أحد الأقواس الرمادية الذي يُشبه أقواس الجنيات بين الأشجار، ونظرت إلى أعلى نحو الغصون والأجزاء اللولبية المتدلية التي شكلت هذه الأقواس، ثم قالت: «تُرى هل كل هذه الأشياء ميتة؟ أهي مجرد حديقة ميتة بكل ما فيها؟ آمُل ألا تكون كذلك.»

لو كانت بِن ويذرستاف لعرفت على الفور ما إذا كانت هذه الأشجار على قيد الحياة أم لا بمجرد النظر إليها، لكنها لم تكن ترى إلا أغصانًا وفروعًا رمادية أو بُنية اللون فقط، ولم يظهر على أيٍّ منها أي أثر لبرعم ورقة ولو صغير في أي مكان.

لكنها كانت بداخل الحديقة العجيبة، ويُمكنها العبور من الباب الموجود تحت نبات اللبلاب في أي وقت، وشعرت كما لو كانت قد وجدت عالمًا يخصها وحدها.

كانت الشمس ساطعة داخل جدران الأسوار الأربعة، وبدت السماء الزرقاء الصافية فوق هذا الجزء الخاص من ميسلثويت أكثر نقاءً وصفاءً من أي مكان آخر في المستنقَع. طار أبو الحنَّاء من قمة شجرته إلى أسفل، وظل يقفز أو يطير وراءها من شجيرة إلى أخرى. أخذ يُزقزق كثيرًا وبدا عليه الانشغال كما لو كان يريها الأشياء. كان كل شيء غريبًا وصامتًا، وبدا أنها قد ابتعدت مئات الأميال عن الجميع، لكنها لم تكن تشعر بالوحدة على الإطلاق.

كان كل ما يشغلها هو رغبتها في معرفة ما إذا كانت كل هذه الأزهار قد ماتت، أم ربما ما زال بعضها على قيد الحياة ويُمكنه إخراج أوراق وبراعم حين يُصبح الطقس أكثر دفئًا. لم ترِد أن تكون مجرد حديقة ميتة. فكم سيكون رائعًا لو أن هذه الحديقة على قيد الحياة؛ وكم من أزهار ستنمو فيها على كل جانب!

كان حبل القفز معلقًا على ذراعها حين دخلت الحديقة، وبعدما تجولت فيها لفترة، فكرت في أن تقفز به عبر أنحاء الحديقة، وتتوقف حين تريد فحص شيء ما. بدت الممرات العشبية منتشرة في كل مكان، وفي ركن أو اثنين وجدت مظلات من نباتات دائمة الخضرة، بها مقاعد حجرية أو أُصص أزهار طويلة تُغطِّيها الطحالب.

حين اقتربت من المظلة الثانية توقَّفت عن القفز. فقد كان بها حوض أزهار في وقتٍ ما، وظنت أنها رأت شيئًا ناتئًا من التراب الأسود؛ شيء أشبه بنتوءات صغيرة حادة ذات لون أخضر باهت. تذكَّرت حينها ما قاله بِن ويذرستاف فجثَت على ركبتيها لتفحصها عن قرب.

قالت في همس: «أجل، إنها أشياء صغيرة نامية، وربما تكون نبات الزعفران أو زهرة اللبن الشتوية أو النرجس.»

انحنت أكثر لتقترب منها واستنشقت الرائحة المنعشة للأرض الرطبة، وأحبتها كثيرًا.

قالت: «ربما يوجد غيرها نامٍ في أماكن أخرى. سأتجول في الحديقة بأكملها لأرى.»

لم تقفز هذه المرة، بل مشَت. كانت تسير ببطء وتُثبِت عينَيها على الأرض. راحت تنظر داخل الأحواض القديمة، وبين الحشائش، وبعدما تجوَّلت في المكان محاولة ألا تغفل شيئًا، عثرت على العديد من النتوءات الحادة ذات اللون الأخضر الباهت، ما أثار حماسها مرةً أخرى.

صاحت في نفسها بهدوء: «إنها ليست حديقة ميتة. حتى لو كانت الأزهار قد ماتت، ففيها أشياء أخرى على قيد الحياة.»

لم تكن تعرف أي شيء عن العناية بالحدائق، لكن الحشائش بدت كثيفة للغاية في بعض الأماكن حيث تحاول النتوءات الخضراء شق طريقها بصعوبة نحو السطح، حتى إنها رأت أن هذه النتوءات ربما ليس لديها مساحة كافية للنمو. بحثت في جميع الأرجاء حتى عثرت على قطعة حادة من الخشب وانحنت على ركبتيها وبدأت تحفر وتُزيل الحشائش والأعشاب الضارة حتى أفسحَت مواضع صغيرة ومناسبة حولها.

قالت بعدما انتهت من المجموعة الأولى من هذه النتوءات: «يبدو بإمكانها التنفُّس الآن، سأفسح المزيد من الأماكن للبقية. سأبذل كل ما في وسعي، وإن لم يُتَح لي الوقت اليوم، يمكنني الحضور غدًا.»

تنقلت من مكان لآخر، وظلَّت تحفر وتزيل الأعشاب، واستمتعت بوقتها كثيرًا حتى إنها تنقلت بين أحواض الأزهار، ووصلت حتى إلى الحشائش الموجودة تحت الأشجار، حتى شعرت بالحر الشديد، ما جعلها في البداية تخلع عنها معطفها، ثم قبعتها، ودون أن تشعر، كانت تبتسم للحشائش والنتوءات الخضراء الباهتة اللون طوال الوقت.

أما أبو الحنَّاء، فكان منشغلًا للغاية. وكان في قمة سعادته برؤية حديقته وقد شرع أحد في الاهتمام بها. فكثيرًا ما كان ينبهر ببِن ويذرستاف؛ فأينما تمارس أعمال البَستَنة،

يخرج من التربة شتى أنواع الأشياء الرائعة التي يُمكن أكلها. والآن، جاءت هذه المخلوقة الجديدة التي لا تبلغ نصف حجم بِن، ولكن هداها حدسها لدخول الحديقة والبدء في الاعتناء بها على الفور.

عملت الآنسة ماري في حديقتها حتى جاء موعد وجبة منتصف النهار. في الواقع، تأخرت نوعًا ما في تذكُّر موعده، وحين ارتدت معطفها وقبعتها والتقطت حبل القفز، لم تصدق أنها ظلت تعمل لساعتين أو ثلاث. فقد كانت تشعر بسعادة حقيقية طوال الوقت، وصار من الممكن رؤية الكثير والكثير من النتوءات الصغيرة ذات اللون الأخضر الباهت في أماكن نظيفة خالية من أي حشائش، وقد بدت أكثر بهجة وسعادة مما كانت عليه من قبل حين كانت الحشائش والأعشاب الضارَّة تخنقها.

قالت وهي تنظر حولها في مملكتها الجديدة، مُحدِّثة الأشجار وشجيرات الورد كما لو كانت تسمعها: «سآتي بعد الظهيرة.»

بعدها ركضت بخفة عبر الحشائش ودفعت الباب القديم البطيء لتفتحه، وانسلَّت عبره تحت اللبلاب. كانت وجنتاها حمراوين وعيناها تلمعان، وتناولت قدرًا كبيرًا من طعام الغداء لدرجة أسعدت مارثا.

قالت: «قطعتان من اللحم وحصتين من الأرز بالحليب! ياه! ستَسعَدُ أمي كثيرًا حين أخبرها بمفعول حبل القفز.»

في أثناء عمليات الحفر التي قامت بها باستخدام عصاها المدببة، وجدت الآنسة ماري نفسها تستخرج نوعًا من الجذور البيضاء يشبه البصل من التربة. فأعادتها إلى مكانها وسوَّت التربة بضربات خفيفة بعناية، وراحت تتساءل الآن ما إذا كان بإمكان مارثا إخبارها بماهيتها.

قالت: «مارثا، ما تلك الجذور البيضاء التي تشبه البصل؟»

أجابتها مارثا: «إنها بُصيلات. كثير من زهور الربيع تنمو منها. فتنمو منها الأزهار الصغيرة مثل زهرة اللبن الشتوية والزعفران، والأزهار الكبيرة مثل النرجس والجونكليس والنرجس البري. أما أكبرها على الإطلاق، فأزهار الزنبق والأزهار البنفسجية. إنها أزهار جميلة. إن ديكون يزرع كمًّا كبيرًا منها في حديقتنا الصغيرة.»

سألت ماري، وقد سيطرت عليها فكرة جديدة: «هل يعلم ديكون كل شيء عنها؟»

«إن أخي ديكون يستطيع أن يجعل الأزهار تنمو من ممشًى صخري. تقول أمي إنه يهمس فقط للأشياء فيجعلها تخرج من الأرض.»

تساءلت ماري في لهفة: «هل تعيش هذه البصيلات فترة طويلة؟ هل تعيش لسنوات طويلة إن لم يساعدها أحد على ذلك؟»

قالت مارثا: «إن هذه الأشياء تساعد نفسها؛ ولهذا يستطيع الفقراء شراءها. فإن لم يُزعجها أحد، يظل معظمها على قيد الحياة تحت الأرض عمرًا بأكمله فتنتشر وتنتج بصيلات صغيرة. يوجد مكان في غابة المتنزَّه هنا به آلاف من أزهار اللبن الشتوية، وهي الأجمل على الإطلاق في يوركشاير حين يأتي الربيع. لا أحد يعرف متى زُرعت لأول مرة.»

قالت ماري: «أتمنى لو جاء الربيع الآن. فأنا أريد رؤية كل الأشياء التي تنمو في إنجلترا.»

فرغت من غدائها، وذهبت لتَجلس على مقعدها المفضل على سجادة المدفأة.

وقالت: «أتمنَّى، أتمنَّى لو كان لديَّ مجرَفةً صغيرةً.»

فسألتها مارثا ضاحكةً: «ما الذي تُريدين فعله بالمجرفة؟ هل ستحفرين الأرض؟ لا بدَّ أن أُخبر أمي بهذا أيضًا.»

نظرت ماري إلى النار وفكرت قليلًا. فعليها الحذر إن أرادت الحفاظ على مملكتها السرية. إنها لم تُسبِّب أي ضرر، لكن إن علم السيد كرافن بأمر فتحها للباب، سيثور ثورة عارمة ويُغيِّر المفتاح ويُبقي الحديقة مغلَقة إلى الأبد، وهي لا تستطيع أن تتحمَّل ذلك فعليًّا.

قالت ببطء كما لو كانت تُقلِّب الأمور في رأسها: «إن هذا مكان كبير ومنعزل؛ فالمنزل منعزل، والمتنزَّه منعزل، والحدائق منعزلة. وكثير من الأماكن تبدو مغلقة. لم أكن أفعل كل هذا القدر من الأشياء في الهند، لكن كان يوجد أناس أكثر من هذا يُمكن النظر إليهم — أهالي محليين وضباط يسيرون في الطرقات — وأحيانًا توجد فرق تَعزف وكانت خادمتي تقصُّ عليَّ القصص. أما هنا فلا يوجد أحد أتحدَّث إليه إلا أنتِ وبِن ويذرستاف. وأنتِ عليكِ أداء عملك، وبِن ويذرستاف لا يتحدَّث إليَّ كثيرًا. ولهذا فكرتُ أنه لو كان عندي مجرفة صغيرة، يُمكنني أن أحفر الأرض في مكان ما كما يفعل هو، وربما صنعت حديقة صغيرة إن أعطاني بعض البذور.»

تهلَّل وجه مارثا، وقالت في دهشة: «هكذا إذن! كان هذا أحد الأشياء التي قالتها أمي؛ فقد قالت: «هذا المكان الكبير به مساحات كبيرة شاغرة، لماذا لا يُخصِّصون لها جزءًا، حتى إن لم تزرع إلا البقدونس والفُجْل؟ سوف تستطيع الحفر وتقليب الأرض والشعور بالسعادة.» كان هذا ما قالته أمي حرفيًّا.»

قالت ماري: «حقًّا؟ إنها تعرف الكثير من الأشياء، أليس كذلك؟»

قالت مارثا: «أجل، فكما تقول دومًا: «إن المرأة التي تُربي اثني عشر طفلًا تتعلَّم شيئًا بجانب حروف الهجاء. فالأطفال الصغار تمامًا مثل علم الحساب يجعلون المرء يكتشف الأشياء.»

سألتها ماري: «كم تتكلَّف مجرفة صغيرة؟»

أجابتها مارثا بعد تفكير: «حسنًا، يوجد في قرية ثوايت متجر أو ما شابه، وقد رأيت أطقم معدات صغيرة للعناية بالحدائق تشمل مجرفة ومِدمَّة وشوكة كلها معًا تُباع بشلنين. وكانت متينة بما يكفي للعمل بها أيضًا.»

قالت ماري: «لديَّ أكثر من هذا في حقيبتي. فقد أعطتني السيدة موريسون خمسة شلنات وأعطتني السيدة ميدلوك بعض المال من السيد كرافن.»

صاحت مارثا في تعجب: «هل يَتذكركِ إلى هذه الدرجة؟»

«لقد قالت السيدة ميدلوك إنني سأحصُل على شلن في الأسبوع لأنفقه، وتُعطيني واحدًا كل سبت، ولكني لم أعرف فيما أنفقه.»

قالت مارثا: «يا إلهي! هذه ثروة. يمكنك شراء أي شيء تريدينه في العالم. نحن ندفع شلنًا وثلاثة بنسات إيجارًا لكوخنا، ونحصل على هذا المبلغ بشقِّ الأنفس. لقد خطر لي شيء الآن.» ثم وضعت يديها على شفتيها.

قالت ماري بلهفة: «ماذا؟»

«إنهم يبيعون في المتجر في ثوايت مجموعات من بذور الأزهار سعر الواحدة بنسًا، ويعرف ديكون أيها الأجمل وطريقة العناية بها لتنمو. وهو يذهب سيرًا إلى ثوايت في كثير من الأيام لمجرد المتعة.» ثم سألتها فجأة: «هل تعرفين كيف تطبعين الأحرف؟»

أجابتها ماري: «أعرف كيف أكتبها.»

هزت مارثا رأسها، وقالت: «إن ديكون لا يجيد إلا قراءة الأحرف المطبوعة. إن استطعت طباعة الأحرف، يمكننا كتابة خطاب له ونطلب منه الذهاب وشراء معدات البسْتَنة والبذور في الوقت نفسه.»

صاحت ماري: «ياه! يا لكِ من فتاة طيبة! أنتِ حقًّا طيبة! لم أكن أعلم أنكِ لطيفة إلى هذه الدرجة. أعتقد أن بإمكاني طباعة الأحرف إن حاولتُ ذلك. دعينا نطلب من السيدة ميدلوك قلمًا وحبرًا وبعض الأوراق.»

قالت مارثا: «عندي هذه الأشياء؛ فقد اشتريتُها حتى أستطيع أن أكتب خطابًا لأمي في يوم الأحد. سأذهب وأحضرها.» خرجت مارثا من الغرفة مسرعة، بينما وقفت ماري بجوار المدفأة وشبَّكت يديها الصغيرتين النحيلتين معًا من فرط السعادة.

قالت في همس: «إن حصلتُ على مجرفة، يُمكنني العناية بالأرض وتسويتها والتخلُّص من الأعشاب الضارة. وإن صار عندي بذور واستطعتُ جعل الأزهار تنمو في الحديقة، فلن تُصبح ميتة بعد الآن ... ستعود إليها الحياة مرةً أخرى.»

لم تخرج مرةً أخرى بعد الظهيرة؛ لأنها حين عادت مارثا بالقلم والحبر والورقة كان عليها إزالة الأشياء من على الطاولة وحمل الأطباق والأواني إلى الأسفل، وحين دخلت إلى المطبخ كانت السيدة ميدلوك موجودة فيه وطلبَت منها فعل شيء ما، لذلك انتظرت ماري وقتًا بدا لها طويلًا للغاية قبل أن تعود إلى غرفتها. بعد هذا كانت كتابة الخطاب لديكون عملًا شاقًّا عليها. فلم تكن ماري قد تعلَّمت كل شيء لأن معلِّماتها كنَّ يكرهنها كثيرًا ولا يَبقين معها وقتًا طويلًا. لم تكن تستطيع الهجاء جيدًا، لكنها اكتشفَت أنها تستطيع طباعة الأحرف حين حاولت فعل هذا. وكان هذا هو محتوى الخطاب الذي أملته مارثا عليها:

عزيزي ديكون

أتمنى أن تكون في أحسن حال حين يصلك هذا الخطاب. إن الآنسة ماري لديها الكثير من المال، وسوف تذهب إلى ثوايت وتشتري لها بعض بذور الأزهار ومجموعة أدوات العناية بالحديقة حتى يُمكنَها صنع حوض أزهار. عليك اختيار أجمل الأنواع وأسهلها نموًّا لأنها لم تفعل هذا من قبل، وكانت تعيش في الهند حيث يختلف كل شيء تمامًا عن هنا. مع حبي لأمي والجميع. ستخبرني الآنسة ماري بالمزيد من القصص حتى تستطيع في إجازتي التالية سماع قصص عن الأفيال والجِمال والسادة الذي يخرجون لصيد الأسود والنمور.

أختك المُحبَّة،

مارثا فيبي سويربي

قالت مارثا: «سنضع المال في الظرف، وسأجعل الصبي الذي يعمل لدى الجزار يأخذه معه في عربته؛ فهو صديق عزيز لديكون.»

«وكيف سأحصل على الأشياء حين يشتريها ديكون؟»

«سيحضرها إليكِ بنفسه؛ فهو يحب السير إلى هنا.»

صاحت ماري في تعجب: «يا إلهي! إذن يمكنني رؤيته! لم أتخيَّل قط أن بإمكاني رؤية ديكون.»

سألتها مارثا فجأةً، لمَّا بدا على ماري من سعادة غامرة: «هل تريدين رؤيته؟»

«نعم. فأنا لم أرَ قط فتى تُحبه الثعالب والغربان. أريد أن أراه بشدة.»

انتفضت مارثا قليلًا كأنما تذكرت شيئًا ما، ثم قالت فجأة: «تذكرتُ الآن. لقد نسيت الأمر بأكمله، وكنتُ أنوي أن يكون أول شيء أُخبرك به هذا الصباح. لقد سألت أمي وقالت إنها ستطلب من السيدة ميدلوك بنفسها.»

قالت ماري: «هل تقصدين …»

«ما قلته لكِ يوم الثلاثاء بشأن ذهابكِ إلى كوخنا في أحد الأيام وتناول بعض من كعكة الشوفان الساخنة التي تُعدُّها أمي مع الزبد وكوب من الحليب.»

بدا كما لو أن كل الأشياء الممتعة تحدث في يوم واحد. كان الأمر مثيرًا لها أن تفكر في اجتياز المستنقع في وضح النهار وتحت السماء الزرقاء! أن تتخيل الذهاب إلى هذا الكوخ الذي يَضم اثني عشر طفلًا!

سألتها ماري بلهفة شديدة: «وهل تعتقد أن السيدة ميدلوك ستسمح لي بالذهاب؟»

«أجل، إنها تعتقد أنها ستوافق؛ فهي تعلم كم أن أمي سيدة منظمة وإلى أي مدى تحافظ على نظافة الكوخ.»

قالت ماري وهي تفكر في الأمر ومعجبَة كثيرًا بالفكرة: «وإذا ذهبت إلى هناك سأرى والدتك وديكون أيضًا. يبدو أنها ليست مثل الأمهات في الهند.»

بعد انتهاء عملها في الحديقة وحماس ما بعد الظهيرة، شعرت بالهدوء واستغرقت في التفكير. ظلت مارثا معها حتى موعد تناول الشاي، لكنها جلست في هدوء تام ولم تتحدث إلا قليلًا. لكن قبل أن تنزل مارثا مباشرةً لتحضر صينية الشاي، طرحت عليها ماري سؤالًا.

«مارثا، هل عاود ألم الأسنان خادمة المطبخ اليوم مرة أخرى؟»

أجفلت مارثا قليلًا بالطبع.

وقالت لها: «ما الذي يجعلك تسألين هذا السؤال؟»

«لأني حين ظللتُ منتظرة عودتك وقتًا طويلًا، فتحت الباب وسرتُ عبر الرواق لأرى أين أنتِ، وسمعت صوت البكاء القادم من بعيد مرةً أخرى، تمامًا كما سمعناه معًا تلك الليلة. ولم تكن توجد رياح اليوم، إذن بالتأكيد لم يكن هذا صوت الرياح.»

قالت مارثا بعدم ارتياح: «آه! يجب ألَّا تتجولي عبر الأروقة وتسترقي السمع؛ فسوف يغضب السيد كرافن لذلك، ولا يدري أحد ماذا يمكن أن يفعل.»

قالت ماري: «لم أكن أسترق السمع، بل كنتُ في انتظارِكِ، وسمعت الصوت، وهذه هي المرة الثالثة.»

قالت مارثا: «يا إلهي! إنه جرس السيدة ميدلوك!» وخرجت من الغرفة شبه مهرولة.

قالت ماري في كسل، وهي تسند رأسها على المقعد الموسد للكرسي القريب منها: «إنه أغرب منزل عاش فيه إنسان على الإطلاق.» جعلها الهواء الطلق والحفر والقفز بالحبل تشعر بإرهاق شديد أرخى جسدها، فغطت في نوم عميق.

الفصل العاشر

ديكون

أشرقت الشمس لنحو أسبوع على الحديقة السرية، وهو الاسم الذي أطلقته ماري عليها حين تفكر فيها. أحبت هذا الاسم كثيرًا، وأحبت أكثر شعورها بألا أحد يعلم بمكانها مطلقًا حين تغلق عليها جدران سورها القديم. كانت كأنها تنعزل عن العالم وتذهب إلى مكان خيالي ينتمي إلى عالم الجنِّيَّات. فقد كانت الكتب القليلة التي قرأتها وأحبتها عبارة عن قصص عن الجنِّيَّات، وقد قرأت عن حدائق سرية في بعض منها. فأحيانًا يذهب الناس وينامون فيها مائة عام، وهو ما رأته ضربًا من الحمق بالتأكيد. فلم يكن لديها أي نية للنوم، والواقع أنها كانت تزداد نشاطًا ويقظة مع كل يوم يمر عليها في ميسلثويت. فقد بدأت تحب قضاء الوقت خارج المنزل، ولم تعد تكره الرياح، بل تستمتع بها. وصارت قادرة على الركض بخطًى أسرع ولمسافات أطول، وتمكَّنت من الوصول إلى مائة قفزة بالحبل. ولا بدَّ أن البصيلات في الحديقة السرية قد أصابها الذهول؛ فهذه المواضع النظيفة الرائعة التي أصبحت حولها أتاحت لها مساحة أكبر للتنفس كما تشاء، وليت الآنسة ماري تعرف أن هذه البصيلات بدأت بالفعل تَنتعش تحت الأرض الداكنة وتنشط على نحو هائل. فقد تمكَّنت الشمس من الوصول إليها وتدفئتها، وحين هطلت الأمطار، تمكنت من الوصول إليها على الفور، فبدأت تشعر بأن الحياة تدبُّ فيها بقوة.

كانت ماري شخصية غريبة وقوية العزيمة، والآن أصبح لديها شيء مثير للاهتمام يُوقد عزيمتها، وكانت غارقة فيه حتى أذنيها بالفعل. فقد داومت على العمل والحفر وإزالة الأعشاب الضارة، وكانت سعادتها تزداد بالعمل مع كل ساعة تمرُّ بدلًا من الضجر منه.

بدا لها الأمر كنوع شائق من اللعب. وعثرت على المزيد من النتوءات النامية الخضراء الباهتة تجاوزت أمانيها. لقد بدت كما لو كانت تظهر في كل مكان، وكانت تعثر بالتأكيد

على نتوءات صغيرة جديدة كل يوم، وبعضها كان صغيرًا للغاية يكاد يظهر فوق سطح الأرض. كانت هذه البُصيلات كثيرة للغاية حتى إنها تذكرت ما قالته مارثا عن زهور اللبن الشتوية المنتشِرة بالآلاف، وعن أن البصيلات تنتشر وتُنتج أخرى جديدة. لقد تُركت هذه البصيلات دون اعتناء طوال عشر سنوات، وربما تكون قد انتشرت، مثل زهور اللبن الشتوية، بالآلاف. تساءلت عن الوقت الذي تستغرقه هذه البصيلات لتظهر أنها كانت أزهارًا. في بعض الأحيان كانت تتوقف عن الحفر وتنظر إلى الحديقة، محاولة تخيُّل شكلها حين كانت مغطاة بآلاف من الأشياء الجميلة المزهرة. وخلال ذلك الأسبوع المشمس، وطَّدت علاقتها ببِن ويذرستاف. فقد فاجأته عدة مرات بظهورها دون إنذار بجواره كما لو كانت قد خرجت من تحت الأرض. والحقيقة أنها كانت تخشى أن يجمع أدواته وينصرف إن رآها قادمة؛ ولهذا كانت تسير دومًا نحوه بأقصى هدوء ممكن. لكنه في الواقع لم يعد معترضًا على وجودها بالقدر نفسه كما كان في البداية. لعله كان في قرارة نفسه يشعر بالإطراء من رغبتها الواضحة في صحبتِه على كِبَر سنه. ثم إنها قد أصبحت أيضًا أكثر تحضُّرًا مما كانت عليه. فلم يكن يعلم أنها حين رأته لأول مرة، تحدثت إليه كما لو أنها تتحدث لأحد السكان المحليين، ولم تكن تعلم أن عجوزًا نزقًا عبوسًا من يوركشاير لم يكن معتادًا على الانحناء عند تحية سادته، وأنه مجرد يُؤتمَر ويُلبِّي أوامرهم فحسب.

قال لها ذات صباح حين رفع رأسه ورآها واقفة بجواره: «أنتِ مثل أبي الحنَّاء؛ لا أعرف أبدًا متى أراه أو من أي مكان سيأتي.»

قالت ماري: «إنه صديقي الآن.»

قال بِن ويذرستاف سريعًا: «هذا طبعه؛ فهو يحبُّ التعرُّف على النساء لمجرد التباهي والزهو. إنه لا يتوانى عن فعل شيء من أجل الاستعراض والتباهي بجمال ريش ذيله. فالغرور يملؤه مثلما يمتلئ البيض بالمُح.»

كان نادرًا جدًّا ما يكثر من الحديث، وأحيانًا لم يكن يجيب عن أسئلة ماري سوى بزمجرة غاضبة، لكنه في هذا الصباح تحدَّث إليها أكثر من عادته. فقد وقف واضعًا إحدى قدميه التي انتعل فيها حذاءً طويلًا ذي نعل مثبَّت بمسامير على طرف مجرفته، ونظر إليها.

سألها في اندفاع وغضب: «منذ متى وأنتِ هنا؟»

أجابته: «منذ شهر تقريبًا.»

فقال لها: «لقد بدأتِ تستفيدين من إقامتك في ميسلثويت. فقد زاد وزنك قليلًا عمَّا كنتِ عليه، ولم يعدْ لونك أصفر كما كان. فقد كنتِ أشبه بغراب صغير منتوف الريش

حين دخلتِ إلى هذه الحديقة لأول مرة؛ وحدَّثت نفسي حينها بأنني لم أرَ قط طفلة صغيرة لها وجه أقبح أو أكثر عبوسًا منكِ.»

لم تكن ماري مُختالة بشكلها، وبما أنها لم تكن يومًا مُعتدَّة بشكلها، فلم تنزعج كثيرًا من حديثه.

قالت له: «أعلم أن وزني قد زاد؛ فقد ضاقت عليَّ جواربي، بعد أن كانت تنزلق من على ساقي وتتغضَّن. ها هو أبي الحنَّاء يا بِن ويذرستاف.»

وبالفعل جاء أبو الحنَّاء، ورأت أنه بدا أجمل من أي وقت. فكان صدره الأحمر لامعًا مثل الحرير، وكان يُرفرف بجناحيه ويهز ذيله ويَميل برأسه ويقفز في كل مكان برشاقة ممتزجة بالحيوية. بدا عازمًا على الظفر بإعجاب بِن ويذرستاف، لكن بِن كان يتهكَّم عليه.

قال: «ها أنت ذا قد أتيت! أحيانًا تستطيع أن تتحمَّلني بعض الوقت حين لا تجد أحدًا أفضل مني. لقد ازداد صدرك حمرة وأصبح ريشُك أكثر لمعانًا في الأسبوعين الماضيين. أعلم السبب في هذا؛ إنك تتودَّد إلى شابة صغيرة جريئة في مكان ما وتُخبرها أكاذيب حول كونك أجمل ذكر في فصيلتك في مستنقع ميسل بأكمله، ولديك استعداد لقتال الجميع من أجلها.»

صاحت ماري في دهشة: «ياه! انظر إليه!»

بدا واضحًا أن أبا الحنَّاء كان في مزاج رائع تَغلب عليه الجرأة؛ فقد أخذ يقفز أقرب فأقرب، وأطال النظر إلى بِن ويذرستاف بتركيز شديد، ثم طار إلى أقرب شجيرة مشمش وأمال رأسه وبدأ يغني له أغنية صغيرة.

قال بِن مُغضنًا وجهه بطريقة جعلت ماري تتيقَّن من أنه يحاول عدم إظهار سعادته: «أنت تعتقد أنك ستَكسب رضاي بهذه الطريقة، وتعتقد أن أحدًا لا يستطيع أن يقف أمامك ... أنت تعتقد هذا.»

فرَدَ أبو الحنَّاء جناحيه، ولم تَستطِع ماري تصديق عينيها. فقد طار مباشرةً نحو مقبض مجرفة بن ويذرستاف وحطَّ على طرفها، حينئذٍ تغضَّن وجه العجوز ببطء مُتَّخذًا تعبيرًا جديدًا. فقد وقف ساكنًا كما لو كان يخشى أن يتنفَّس، وكأنه لن يتحرك مهما حدث، خشية أن يطير أبو الحنَّاء بعيدًا، وراح يتحدَّث في همس شديد.

قال بهدوء شديد تنافى مع ما قاله تمامًا: «حسنًا، تبًّا لي! فأنت تعرف كيف تُؤثِّر في المرء، حقًّا تعرف! يا له من أمر خارق للطبيعة؛ فأنت تعرف الكثير.»

ووقف دون حِراك، ودون حتى أن يتنفس، حتى رفرف أبو الحنَّاء مرةً أخرى بجناحيه وطار بعيدًا. بعدها وقف ينظر إلى مقبض المجرفة كما لو أنه قد يجد سحرًا عليه، ثم بدأ في الحفر مرةً أخرى ولم يَنطِق بكلمة لعدة دقائق.

ولكنه ظل يُلقي ابتسامة بطيئة من آن لآخر، ما جعل ماري لا تخشَ الحديث معه.

سألته: «هل لديك حديقة خاصة بك؟»

«لا؛ فأنا أعتني بالحدائق فقط وأعيش مع مارتن عند البوابة.»

قالت ماري: «لو كان لديكَ واحدة، ماذا كنت ستزرع فيها؟»

«ملفوف وبطاطس وبصل.»

واصلت ماري أسئلتها وقالت: «لكن لو أردت الحصول على حديقة زهور، ماذا كنت ستزرع؟»

«بصيلات لأشياء طيبة الرائحة، لكن ستكون في أغلبها بصيلات ورد.»

تهلَّل وجه ماري، وقالت: «هل تحب الورود؟»

اقتلع بِن ويذرستاف عشبًا ضارًّا وألقاه جانبًا قبل أن يُجيبها.

«أجل، أحبه. لقد تعلمت حبها على يد سيدة شابة كنت أعمل لديها بستانيًّا. فقد كان لديها الكثير منها في مكان كانت تحبه كثيرًا، وكانت تحبُّ هذه الورود مثل أطفالها، أو طيور أبي الحنَّاء. لقد رأيتها تنحني عليها وتقبلها.» واقتلع عُشبًا ضارًّا آخر ونظر إليه بغضب، ثم قال: «كان هذا منذ نحو عشر سنوات.»

سألته ماري وقد زاد اهتمامها كثيرًا: «أين هي الآن؟»

أجابها وهو يَضرب بمجرفته في عمق التربة: «في الجنة، على حد قول الكاهن.»

سألته ماري باهتمام أكبر من ذي قبل: «وماذا حدث للورد؟»

«تُرك وحيدًا تمامًا.»

اشتدَّ حماس ماري وغامرت بسؤاله: «هل ماتت بالفعل؟ هل يموت الورد حقًّا حين يُترك دون عناية؟»

اعترف لها بِن ويذرستاف مترددًا وقل: «حسنًا، لقد أحببتُ الورود وأحببتُ السيدة، وهي كانت تحب الورود كثيرًا. لذا أذهب مرة أو مرتين في السنة وأعتني بها قليلًا؛ فأُقلِّمها وأثبت الجذور. إنها تنمو بجموح، لكنها أيضًا مزروعة في تربة خصبة، لذلك ظل بعضها على قيد الحياة.»

سألته ماري: «وكيف يُمكن تحديد ما إذا كانت قد ماتت أم ما زالت على قيد الحياة حين لا يكون بها أوراق، وتبدو جافة وتتَّخذ اللون الرمادي والبني؟»

«انتظري حتى يهلَّ عليها الربيع؛ انتظري حتى تشرق الشمس بعد المطر ويَهطل المطر بعد الشمس، وستعرفين.»

صاحت ماري، وقد نسيَت حذرها: «كيف، كيف؟»

«انظري إلى الفروع والأغصان وإذا رأيتِ كُتلًا بُنية هنا وهناك، راقبيها بعد هطول المطر الدافئ، وانظري ماذا سيحدث.» ثم توقَّف فجأة ونظر إلى وجهها المتلهف بفضول وسألها: «لمَ كل هذا الاهتمام المفاجئ بالورد وهذه الأشياء؟»

شعرت الآنسة ماري بحُمرة تكسو وجهها، وخشيت أن تُجيب.

قالت متلعثمة: «أنا ... أنا أريد أن ألعب ... ألعب وكأنَّ لديَّ حديقة خاصة بي. فأنا ... لا يوجد لديَّ ما أفعله، لا يوجد عندي أي شيء، ولا أي أحد.»

قال بِن ويذرستاف ببطء وهو يراقبها: «حسنًا، هذا صحيح. أنتِ ليس لديكِ أي شيء.»

قالها بطريقة غريبة جعلت ماري تتساءل عما إذا كان يشعر بالفعل بقليل من الأسف لها. لم يحدث من قبل أن شعرت بالأسف لنفسها؛ لم تكن تشعر إلا بالملل والغضب، لأنها كانت تكره الناس والأشياء كثيرًا. أما الآن فيبدو أن العالم يتغيَّر، ويُصبح أكثر لطفًا. وإن لم يعرف أحد بشأن الحديقة السرية، ستستمر متعتها.

بقيت معه لعشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أخرى وطرحت عليه العديد من الأسئلة قدر ما تجرَّأت، وأجاب عن كل سؤال من هذه الأسئلة بأسلوبه ونخره الغريب دون أن يبدُو عليه الغضب مطلقًا، ودون أن يلتقط مجرفته ويتركها ويرحل. وبينما كانت تهمُّ بالانصراف قال شيئًا عن الورد، ذكرها بالورد الذي قال إنه يعشقه.

فسألته: «هل تذهب لرؤية ذلك الورد حاليًّا؟»

«لم أذهب إليه هذه السنة؛ فقد أدى الروماتيزم إلى تيبُّس شديد بمفاصلي.»

قالها بصوته المتذمِّر، وفجأة بدا أنه غضب منها، ولكنها لم تستطع إدراك السبب في ذلك.

قال لها بحدَّة: «والآن اسمعي! عليكِ ألا تطرحي كل هذا الكم من الأسئلة. فأنتِ تُصبحين أسوأ فتاة قابلتها في حياتي حين تطرحين أسئلة. هيا اذهبي للعب؛ فقد أنهيت حديثي معكِ اليوم.»

قالها بغضب شديد جعلها تعلم أنه لا فائدة على الإطلاق من البقاء دقيقة واحدة أخرى. أخذت تقفز ببطء عبر الممشى الخارجي، وهي تفكر فيه وتُحدِّث نفسها، بأنه على

الرغم من غرابة الأمر، فها هي لديها شخص آخر تحبُّه على الرغم من عبوسه. لقد أحبت بِن ويذرستاف؛ أجل، أحبته بالفعل. لطالما كانت تحاول دومًا أن تدفعه للتحدث إليها. كما بدأت ترى أنه يعرف كل شيء في العالم عن الأزهار.

كان ثمَّة ممشًى مُحاط بسياج من نبات إكليل الغار يُطوِّق الحديقة السرية وينتهي عند بوابة تؤدي إلى غابة في المتنزَّه. فكَّرت في التسلل حول هذا الممشى وتفحص هذه الغابة لترى إن كان بها أي أرانب تقفز فيها. كانت مُستمتعةً بالقفز بالحبل كثيرًا، وحين وصلت إلى البوابة الصغيرة فتحتْها ومرت عبرها؛ إذ سمعت حينها صوت صفير منخفضًا وغريبًا، وأرادت أن تعرف ماهية هذا الصوت.

كان هذا شيئًا غريبًا للغاية حقًّا؛ فقد حبست أنفاسها حين توقفت لتنظر إليه. فقد رأت فتًى يجلس تحت إحدى الأشجار، مُتَّكئًا عليها، ويعزف على مزمار خشبي بدائي. كان فتًى ذا مظهر مُضحِك في الثانية عشرة تقريبًا. بدا نظيفًا للغاية، وله أنف صغير ووجنتان حمراوان تمامًا كالجِراء، وعينان مُستديرتان زرقاوان لم ترَ الآنسة ماري مثلهما قط في وجه صبي من قبل. وعلى جذع الشجرة التي كان متَّكئًا عليها وقف سنجاب بُني اللون متشبِّثًا بالجذع ويراقب الفتى، ومن خلف إحدى الشجيرات القريبة وقف ديك بري يمد عنقه برفق ليختلس النظر إليه، وعلى مقربة كبيرة منه، كان ثمَّة أرنبان جالسان يتنشَّقان بأنفيهما المرتجفتين؛ وفي الواقع بدا الأمر كما لو أن الجميع كانوا يقتربون لمشاهدة الفتى وسماع الصوت المنخفض الغريب الذي بدا يصدر من مزماره.

حين رأى ماري رفع يده وتحدَّث إليها بصوت منخفض كالصوت مزماره.

قال لها: «لا تتحركي، فهذا سيجعلها تهرب»، فظلَّت ماري بلا حِراك. توقَّف عن العزف على مزماره وبدأ ينهض من على الأرض. تحرك ببطء شديد حتى إنه لم يبدُ أنه يتحرَّك على الإطلاق، لكنه وقف أخيرًا على قدميه، فعاد السنجاب مسرعًا إلى فروع الشجرة، وسحب الديك البري رأسه، ووقف الأرنبان على أطرافها الأربعة وبدآ في القفز مبتعدَين، وإن لم يبدُ عليهما الخوف مطلقًا.

قال الفتى: «أنا ديكون، وأعرف أنكِ الآنسة ماري.»

حينها أدركت ماري أنها، قد عرفت، بشكل أو بآخر، من البداية أنه ديكون. فمَن غيره بإمكانه ترويض الأرانب والديوك البرية هكذا مثلما يُروِّض السكان المحليون الثعابين في الهند؟ كان له فم عريض أحمر ومقوس، وملأت الابتسامة وجهه.

شرح لها ما حدث قائلًا: «لقد نهضتُ ببطء، لأن المرء إذا تحرك سريعًا فإن هذا يخيفها كثيرًا. فعليكِ أن تتحرَّكي برفق، وتتحدثين بصوت خفيض حين يكون حولك حيوانات برية.»

لم يكن يتحدث إليها كما لو أنهما لم يلتقيا من قبل، بل كما لو كان يعرفها حق المعرفة. لم تكن ماري تعرف أي شيء عن الأولاد، وتحدثت إليه ببعض الجدية؛ لشعورها ببعض الخجل.

سألته: «هل وصلك خطاب مارثا؟»

أومأ برأسه ذي الشعر المجعَّد الذي تلَّون بلون بني مائل إلى الأحمر كلون الصدأ: «هذا ما أتيت من أجله.»

انحنى ليلتقط شيئًا كان مُلقًى بجواره على الأرض وهو يعزف على المزمار.

«لقد أحضرتُ أدوات العناية بالحديقة. هذه مجرفة صغيرة ومِدمَّة، وشوكة صغيرة وفأس صغير. يا إلهي! إنها حقًّا أشياء جيدة. ويوجد أيضًا مقلاع لاقتلاع الحشائش. وقد أضافت بائعة المتجر عبوة صغيرة من بذور الخشخاش الأبيض وأخرى من بذور نبات العائق الأزرق حين اشتريتُ البذور الأخرى.»

قالت ماري: «أيمكنني رؤية البذور؟»

كانت تتمنى لو تحدثت مثله؛ فقد كان حديثه سريعًا وسلسًا للغاية. بدا الأمر كما لو كان يحبها ولم يكن يخشى على الإطلاق ألا تكون هي تحبه، على الرغم من كونه مجرد فتى مستنقع متواضِع، يرتدي ملابس مُرقَّعة وله وجه مضحك وشعر أشعث بلون الصدأ. حين اقتربت منه أكثر، لاحظت رائحة جميلة منعشة لنبات الخلنج والأعشاب وأوراق الأشجار تفوح منه، كما لو كان مخلوقًا منها. وأعجبها هذا كثيرًا، وحين نظرت إلى وجهه المضحك بوجنتَيه الحمراوين وعينيه الزرقاوين المستديرتين، نسيت خجلها.

قالت له: «لنجلس على جذع الشجرة هذا ونفحصها.»

جلسا وأخرج لفافة ورقية بُنية صغيرة غير مرتبة من جيب معطفه. فتح الخيط الذي يحوطها فظهر بداخلها لفافات أصغر حجمًا وأكثر ترتيبًا وعلى كل واحدة منها صورة زهرة من الأزهار.

قال لها: «يوجد كثير من بذور الخزامى والخشخاش. والخزامى هي أطيب النباتات رائحةً، وتنمو في أي مكان تضعينها فيه، تمامًا مثل الخشخاش. إنها تنمو وتزهر بمجرد أن تُصفِّري لها، إنها أجمل الزهور على الإطلاق.» ثم توقَّف وأدار رأسه سريعًا وتهلَّل وجهه بوجنتيَه الحمراوين.

قال: «أين أبو الحنَّاء ذاك الذي ينادينا؟»

جاء صوت الزقزقة من شجيرة كثيفة شائكة الأطراف، مزدهرة بثمار التوت القرمزية، وظنت ماري أنها تعرف صاحب هذا الصوت.

سألته: «أهو حقًّا ينادينا؟»

قال ديكون، كما لو كان أمرًا طبيعيًّا للغاية: «أجل، إنه يُنادي شخصًا صديقًا له. كأنه يقول: «أنا هنا، انظر إليَّ، أنا أريد التحدث إليك.» إنه هناك في هذه الشجيرة، مَن صديقه هذا؟»

أجابته ماري: «إنه بِن ويذرستاف، لكني أعتقد أنه يعرفني قليلًا.»

قال ديكون بصوته المنخفِض مرةً أخرى: «آه، إنه يعرفكِ إذن، ويحبكِ أيضًا. لقد قبِلَ صداقتكِ، وسيُخبرني بكل شيء عنكِ في الحال.»

اقترب كثيرًا من الشجيرة بحركته البطيئة نفسها التي لاحظتها ماري من قبل، ثم أصدر صوتًا أشبه بتغريد أبي الحنَّاء. استمع أبو الحنَّاء لبضع ثوانٍ بإنصات تام، ثم أجاب كما لو كان يردُّ على سؤال.

ضحك ديكون وقال: «حسنًا، إنه صديقكِ بالفعل.»

صاحت ماري في لهفة: «هل تعتقد هذا؟» كانت تريد بالفعل التأكد من الأمر. «هل تعتقد أنه يحبني حقًّا؟»

أجابها ديكون: «لم يكن ليَقترب منكِ لو لم يكن يحبك. فالطيور نادرًا ما تألف البشر، ويمكن لأبي الحنَّاء أن يهزأ بالمرء أكثر مما يفعل البشر. انظري، إنه يتودَّد إليكِ الآن. إنه يقول: «ألا يُمكنكِ رؤيتي؟»»

وبدا الأمر حقًّا كما لو أن كلامه صحيح بلا أدنى شك. فقد مشي مشية جانبية وغرَّد وأمال رأسه وهو يقفز على شجيرته الصغيرة.

قالت ماري: «هل تفهم كل شيء تقوله الطيور؟»

اتَّسعت ابتسامة ديكون حتى بدا فمه المُتَّسع الأحمر المقوَّس يملأ كل وجهه، وحكَّ رأسه الأشعث.

قال لها: «أعتقد هذا، وهي أيضًا تعتقد هذا. لقد عِشتُ معها في المستنقع لفترة طويلة. شاهدتها وهي تَفقِس ويكسو الريش أجسامها وتتعلم الطيران وتبدأ في الغناء، حتى صرت أعتقد أني واحد منها. أحيانًا أعتقد أني طائر أو ثعلب أو أرنب أو سنجاب أو حتى خنفساء، وأنا لا أعرف هذا.»

ضحك وعاد إلى جذع الشجرة وبدأ يتحدث عن بذور الأزهار مرةً أخرى. أخبرها عن شكلها حين تُزهر، وأخبرها عن طريقة زراعتها، ومراقبتها، وتغذيتها وريِّها.

قال فجأة وهو يلتفت لينظر إليها: «اسمعي، سأزرعها لكِ بنفسي. أين حديقتك؟»

شبَّكت ماري يديها النحيلتَين معًا وهي تضعهما على ساقيها. لم تكن تدري ماذا تقول، فظلَّت صامتة دون أن تقول أي شيء طوال دقيقة كاملة. فلم تُفكِّر في هذا قط. شعرت بالبؤس، وشعرت كما أن وجهها قد تحوَّل إلى اللون الأحمر ثم شحَب.

قال ديكون: «أنتِ لديك حديقة صغيرة، أليس كذلك؟»

لقد احمرَّ وجهها بالفعل ثم شحَب. وقد رأى ديكون ذلك، ولما لم تقُل أي شيء حتى الآن، بدأ يشعر بالحيرة.

سألها: «ألم يُعطوكِ قطعة من الحديقة؟ ألم تحصلي عليها بعد؟»

اعتصرت يديها معًا أكثر وحولَّت عينيها نحوه.

ثم قالت ببطء: «أنا لا أعلم أي شيء عن الأولاد. هل تستطيع كتمان سرٍّ إذا أخبرتك به؟ إنه سرٌّ كبير. أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل إن علم أحد به. أعتقد أني سأموت!» وقالت هذه الجملة الأخيرة بعنف شديد.

بدت الحيرة على ديكون أكثر من ذي قبل حتى إنه حكَّ يده في رأسه الأشعث مرةً أخرى، لكنه ردَّ عليها بأسلوب مرح: «أنا أكتم الأسرار طوال الوقت. فلو لم يكن بإمكاني أن أكتم الأسرار وأخفيها عن الصبية الآخرين؛ أسرار عن جِراء الثعالب، وأعشاش الطيور، وجحور الكائنات البرِّية، فلن يعمَّ السلام والأمان في المستنقع. أجل، بإمكاني كتمان الأسرار.»

لم تقصد الآنسة ماري أن تمدَّ يدها وتمسك بكمه، لكنها فعلت.

قالت بسرعة بالغة: «لقد سرقتُ حديقة؛ إنها ليست ملكي، وليست ملكًا لأحد. فلا أحد يريدها، ولا أحد يَعتني بها، ولا أحد يدخلها. ولعل كل شيء فيها قد مات بالفعل، لا أعرف.»

بدأت تشعر بالانفعال والعِناد كما لم تشعر من قبل طوال حياتها.

أنهت حديثها بانفعال وقالت: «أنا لا أهتم، لا أهتم! لا يحقُّ لأحد أن يأخذها مني، وأنا أعتني بها ولا أحد غيري يفعل هذا. إنهم يتركونها تموت، ويغلقون عليها ويتركونها وحدها.» ثم وضعت ذراعيها على وجهها وانفجرت الآنسة ماري الصغيرة المسكينة في البكاء.

اتَّسعت عينا ديكون الزرقاوان اللَّتان ملأهما الفضول أكثر وأكثر، وقال: «هكذا إذن!» وقال هذا التعجب ببطء شديد كما لو كان يعني به التعجب والتعاطف في الوقت نفسه.

قالت ماري: «ليس لديَّ أي شيء أفعله؛ فلا شيء يخصُّني. لقد وجدتُها وحدي ودخلتُها وحدي. أنا أشبه تمامًا أبا الحنَّاء، وهم لا يُمكنهم حرمان أبا الحنَّاء منها.»

سألها ديكون بصوت منخفض: «أين هي؟»

نهضت الآنسة ماري من على جذع الشجرة على الفور، فهي تعلم أن مشاعر المشاكسة والعناد قد عاوداها مرةً أخرى، ولم تكن تعبأ بهذا على الإطلاق. فقد كانت متغطرسة وهندية، وفي الوقت نفسه تشعر بالغضب والأسى.

قالت له: «تعالَ معي وسأُريك.»

قادته عبر ممر إكليل الغار وصولًا إلى الممشى حيث ينمو نبات اللبلاب بكثافة شديدة، وتبعها ديكون وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب يُقارب الشعور بالشفقة. لقد شعر وكأن شخصًا يقوده إلى فحص عُش طائر غريب ولا بدَّ أن يتحرَّك بهدوء. وحين توجَّهت إلى السور ورفعت نبات اللبلاب المتدلِّي تفاجأ بشدة. فقد رأى تحته بابًا ودفعته ماري ببطء ففتحتْه، ودخلا منه معًا، ثم وقفت ماري وأشارت بيدها في تحدٍّ.

قالت: «ها هي. إنها حديقة سرية، وأنا الوحيدة في العالم التي تريد أن تعود الحياة إليها.»

تفقَّد ديكون جميع أرجاء الحديقة مِرارًا، وقال بصوت أقرب إلى الهمس: «يا إلهي! يا له من مكان غريب وجميل! أشعر كما لو أني في حلم.»

الفصل الحادي عشر

عُش طائر سمنة الدبق

وقف لدقيقتين أو ثلاث وهو ينظر حوله، بينما ماري تراقبه، ثم بدأ يتجوَّل في المكان بهدوء وخِفَّة ربما فاقت خفَّة خُطوات ماري حين وجدت نفسها لأول مرة داخل جدران الحديقة. بدت عيناه تُسجل كل شيء؛ الأشجار الرمادية، والنباتات المتسلِّقة الرمادية التي تسلقت عليها وتتدلى من أفرعها، وكذلك الكتل المتشابكة على الأسوار وبين الحشائش، والمظلات ذات النباتات دائمة الخضرة بما فيها من مقاعد حجرية، وأُصص الأزهار الطويلة القابعة فيها.

وأخيرًا قال في همس: «لم أتخيَّل قط أني سأرى هذا المكان.»

سألته ماري: «هل كنت تعلم بشأنه؟»

تحدثتْ بصوت مرتفع فأشار إليها وقال: «علينا التحدث بصوت منخفِض وإلا سيَسمعُنا أحد ويتساءل عما نفعله هنا.»

قالت ماري وقد شعرت بالخوف وسارعت تضع يدها على فمها: «آه! لقد نسيت.» سألته مرةً أخرى حين تمالكت نفسها: «هل كنت تعلم بشأن هذه الحديقة؟»

أومأ لها ديكون بالإيجاب، ثم أجابها قائلًا: «لقد أخبرتْني مارثا بوجود حديقة لم يدخلها أحد قط، وكنا نتساءل دومًا كيف تبدو.»

ثم توقَّف عن الكلام والتفت إلى كتلة متشابكة رمادية قريبة منه، وظهرت سعادة غريبة في عينيه المستديرتَين.

قال: «يا إلهي! إن الطيور ستبني أعشاشها هنا عندما يأتي الربيع؛ فهذا أكثر مكان آمن لبناء الأعشاش في إنجلترا. فلا أحد يقترب من هذه التشابكات على الأشجار والأزهار، ومن الأمان بناء الأعشاش عليها. أتساءل لمَ لا تبني كل الطيور في المستنقع أعشاشها هنا.»

وضعت الآنسة ماري يدها على ذراعه مرةً أخرى دون أن تشعر، وهمست قائلة: «هل ستُزهر الورود؟ هل يمكنك معرفة هذا؟ أظن أنها ربما ماتت جميعًا.»

أجابها قائلًا: «لا! ليس كلها، ليس كلها! انظري هنا!»

واتَّجه إلى أقرب شجرة، وكانت شجرة بالغة القِدم لحاؤها مغطًّى بالكامل بنباتات الأشنة الذابلة، لكن يتدلَّى منها ستار من الفروع والأغصان المتشابكة. أخرج سكينًا سميكًا من جيبه وفتح أحد أنصاله.

قال لها: «توجد الكثير من الأشجار الميتة لا بدَّ من قطعها، وتوجد أيضًا الكثير من الأشجار القديمة، لكنها أنتجت براعم جديدة في العام الماضي. وهنا توجد بعض البراعم الجديدة.» ولمس برعمًا منها ذا لون أخضر مائل للبني، وليس قاسيًا وجافًّا ورمادي اللون. لمسته ماري نفسها في لهفة وإعجاب.

قالت: «تقصد هذه؟ أهي على قيد الحياة حقًّا؟»

قوَّس ديكون فمه الواسع المبتسم.

وقال: «إنها تنبض مثلي ومثلك تمامًا.» وتذكرت ماري أن مارثا أخبرتها بأن كلمة «تنبض» تعني «على قيد الحياة».

صاحت في همس: «أنا سعيدة أنها تنبض! فأنا أريدها جميعًا أن تنبض. لنتجول في الحديقة لنرى عدد الأشياء النابضة فيها.»

ركضت في حماس شديد، وكان ديكون لا يقلُّ حماسًا عنها، وراحا يتنقَّلان من شجرة لأخرى، ومن شجيرة لأخرى. وكان ديكون يحمل سكينه في يده ويريها أشياء رأتها مذهلة.

قال: «لقد نمت على نحو جامح، لكن الأشجار والشجيرات الأقوى ازدهرت على نحو معتدل. أما الأضعف فقد ماتت، في حين نمَت الأخرى حتى استفحلت وانتشرت في كل مكان حتى أصبحت بمثابة أعجوبة مُذهلة. انظري هنا!» وجذب فرعًا سميكًا رماديًّا يبدو جافًّا إلى أسفل، وقال: «قد يظن المرء أن هذا الفرع ميت، لكني لا أعتقد كذلك؛ فهو حي حتى جذوره. سأقطعه الآن حتى أسفله لنرى.»

وجثا على ركبتيه، وبسكينه شقَّ الفرع الذي يبدو عديم الحياة، حتى وصل بالقرب من الأرض.

قال مهلِّلًا: «ها هو! ألم أخبرك! ما زال يوجد جزء أخضر في هذه الشجرة. انظري إليه.»

كانت ماري قد جثت على ركبتيها قبل أن يتحدث، وكانت تُحدِّق بكل تركيزها.

شرح لها قائلًا: «حين يبدو مائلًا بعض الشيء للون الأخضر ورطبًا هكذا، يكون على قيد الحياة. أما حين يكون الجزء الداخلي جافًّا ويَنكسِر بسهولة، مثل هذا الجزء الذي قطعتُه هنا، فقد انتهى أمره. يوجد جذر كبير هنا تخرج منه كل هذه الأشجار التي لا تزال على قيد الحياة، وإذا قُطعت الأشجار القديمة وحُفر حولها واعتنى أحد بها، سيكون هناك ...» ثم توقَّف عن الكلام ورفع رأسه نحو الأغصان المتسلقة والمتدلية فوقه، ثم أردف: «سيكون هناك فيض من الأزهار هنا هذا الصيف.»

تنقَّلا بين الشجيرات والأشجار، وكان هو في غاية القوة والبراعة في استخدام سكينه، ويعرف كيف يقطع الأغصان الجافة الميتة ويزيلها، ويمكنه أن يُحدِّد متى يكون فرع أو غصن غير واعد لا يزال على قيد الحياة من الداخل. وفي غضون نصف ساعة رأت ماري أن بإمكانها هي أيضًا معرفة هذا، وحين شقَّ فرعًا يبدو ميِّتًا، صاحت في فرح بصوت خفيض حين لمحت درجة باهتة للغاية من الأخضر الداكن. وكانت المجرَفة والفأس والشوكة مفيدة للغاية. فقد أراها طريقة استخدام الشوكة في أثناء حفره حوله الجذور باستخدام المجرفة وتقليبه للتربة لإدخال الهواء فيها.

كانا يعملان بجدٍّ حول واحدة من كبرى أشجار الورد العادية حين لمح شيئًا جعله يطلق صيحة تعجب من وقع المفاجأة.

صاح مشيرًا إلى الحشائش التي تبعد عنه بضع أقدام: «يا إلهي! مَن فعل هذا هناك؟»

كانت هذه إحدى الرُّقع الصغيرة التي قامت ماري بتنظيفها من الحشائش حول النتوءات الخضراء الباهتة.

قالت ماري: «أنا من فعلها.»

قال متعجبًا: «أحقًّا، لقد اعتقدتُ أنكِ لا تعلمين شيئًا عن العناية بالحدائق.»

ردت ماري: «أنا لا أعلم عنها شيئًا بالفعل، لكنها كانت صغيرة للغاية، وكانت الحشائش كثيفة وقوية، وبدت كما لو أنها بحاجة إلى مساحة للتنفُّس، لذلك أفسحتُ هذا المكان لها. أنا حتى لا أعرف ماهيتها.»

ذهب إليها ديكون وجثا على ركبتيه بالقرب منها، مبتسمًا ابتسامة عريضة.

قال: «كان تصرفًا صائبًا، وما كان لأي بستاني أن يخبرك بأفضل من ذلك. الآن ستنمو هذه النتوءات مثل شجرة الفاصوليا الخاصة بجاك. إنها زهور الزعفران وزهور

اللبن الشتوية، وهذه زهور النرجس.» ثم استدار إلى رُقعة أخرى وقال: «وهذه أزهار النرجس البري. يا إلهي! ستبدو آيةً في الجمال.»

صار يركض من رُقعة إلى أخرى.

قال وهو ينظر إليها: «لقد قمتِ بالكثير من العمل رغم صغرك.»

قالت ماري: «إن وزني يزيد، وأزداد قوة أيضًا. لقد اعتدت دومًا الشعور بالتعب، لكني حين أحفر في الأرض، لا أشعر بالتعب على الإطلاق. فأنا أحب رائحة التربة حين تُقلَّب.»

قال لها مومِئًا برأسه بحكمة: «سينفعكِ هذا كثيرًا؛ فما من رائحة أزكى من رائحة التربة الجيدة النظيفة، عدا رائحة الأشياء حديثة النمو عند هطول الأمطار عليها. فأنا أخرج إلى المستنقع كثيرًا حين تُمطر السماء وأستلقي أسفل إحدى الشجيرات وأنصت إلى حفيف قطرات الماء العذب وهي تسقط على نبات الخلنج، وأظل أشم فقط دون أي شيء آخر. وترتجف أرنبة أنفي تمامًا مثل الأرانب، على حدِّ قول أمي.»

سألته ماري وهي تنظر إليه باندهاش: «ألم تصبْ يومًا بالبرد؟» فهي لم ترَ في حياتها فتًى في مثل ظُرفه أو لُطفه.

قال لها مبتسمًا: «لست أنا؛ فأنا لم أصب بالبرد منذ ولادتي. فأنا لم أنشأ ضعيف الجسم. لقد طاردتُ الحيوانات في المستنقع في جميع أحوال الطقس تمامًا مثلما تفعل الأرانب. تقول أمي إنني استنشقتُ كثيرًا من الهواء النقي بالنسبة إلى طفل في الثانية عشرة، وإن هذا يقيني من البرد. فأنا صلد مثل عصا ذات مِقبض من الشوك.»

كان يعمل طوال الوقت وهو يتحدث، وكانت ماري تتبعه وتساعده بشوكتها أو بالمِقلع.

قال لها ذات مرة وهو ينظر حوله ببهجة: «هذا المكان يحتاج إلى كثير من العمل!»

رجته ماري قائلة: «أيمكن أن تأتي مرةً أخرى وتساعدني فيه؟ أنا متأكدة أن بإمكاني مساعدتك أيضًا. يُمكنني حفر الأرض واقتلاع الأعشاب الضارة، والقيام بأي شيء تخبرني به. يا إلهي! أرجوك أن تأتي يا ديكون!»

أجابها بحسم: «سوف آتي كل يوم إذا أردتِ، سواء كان الطقس مطيرًا أو مشمسًا. فهذا أكثر شيء ممتع فعلته في حياتي؛ أن نُغلق على أنفسنا في هذا المكان ونُعيد الحياة إلى هذه الحديقة.»

قالت ماري: «إذا أتيت إلى هنا وساعدتني في إحياء هذه الحديقة، سوف ... لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل لك بالمقابل.» وأنهت حديثها بنبرة بائسة؛ فما الذي يمكنها فعله لفتًى مثل هذا؟

قال ديكون بابتسامته المبهجة: «سأُخبرك بما يمكنك فعله. أن تزدادي وزنًا، وتتناولي طعامك مثل ثعلب صغير جائع، وتتعلَّمي الحديث مع أبي الحنَّاء تمامًا مثلما أتحدَّث أنا إليه. يا إلهي! أعتقد أننا سنحظى بكثير من المرح والمتعة.»

بدأ يتجول في المكان، وينظر نحو الأشجار والجدران والشجيرات وعلى وجهه تعبير ينمُّ عن تأمل وتفكير عميق.

قال لها: «لا أريدها أن تبدو مثل حديقة يرعاها بستاني، حيث كل شيء مُقلَّم ومُرتَّب ومنظَّم، ألا توافقيني الرأي؟ فمن الأفضل ترك الأشياء على حالها تنمو بحرية، وتتدلَّى وتتشابك مع بعضها.»

قالت ماري بشغف: «دعنا لا نُنظمها، فلن تبدو كحديقة سرية إن كانت منظَّمة ومرتَّبة.»

وقف ديكون يحكُّ رأسه الأحمر الصدئ وتكسو وجهه الحيرة. قال: «إنها حديقة سرية بالتأكيد، لكن يبدو أن أحدًا آخر غير أبي الحنَّاء يأتي إليها منذ إغلاقها من عشر سنوات.»

قالت ماري: «لكن الباب كان مغلقًا والمفتاح مدفونًا، ولا يمكن لأحد دخولها.»

أجابها: «هذا صحيح، إنه مكان غريب للغاية. يبدو لي كما أن عمليات تقليم وتشذيب قد حدثت هنا وهناك في وقت أحدث من عشر سنين.»

قالت ماري: «لكن كيف يُمكن لهذا أن يحدث؟»

كان يفحص أحد فروع شجرة وردٍ عادية ثم هزَّ رأسه.

ثم تمتم قائلًا: «أجل، كيف يُمكن لهذا أن يحدث، في حين كان الباب مغلقًا والمفتاح مدفونًا؟»

طالما شعرت الآنسة ماري أنها مهما تقدم بها العمر، فلن تنسى أبدًا أول صباح بدأت فيه حديقتها في النمو. بالطبع بدا لها أنها قد بدأت تنمو في ذلك الصباح. وحين بدأ ديكون في إجلاء مساحات لغرس البذور، تذكرت الأغنية التي كان بازل يغنيها حين أراد إغاظتها.

سألته: «هل توجد أي أزهار تبدو مثل الأجراس؟»

أجابها ديكون وهو يقتلع الحشائش الصغيرة بالِمقلع: «زنابق الوادي تشبه الأجراس، وتوجد أيضًا أزهار أجراس كانتربري وزهور الجُريس.»

قالت ماري: «دعنا نزرع بعضًا منها.»

توجد أزهار زنابق الوادي هنا بالفعل، لقد رأيتها. لقد نمَت على مقربة شديدة من بعضها وسوف يكون علينا فصلها، لكن يوجد الكثير منها. أما النوعان الآخران فيَستغرقان عامين حتى يُزهرا من البذور، لكن بإمكاني أن أحضر إليكِ بعض النباتات من حديقة كوخنا. لماذا تريدين هذه الأزهار؟»

فأخبرته ماري عن بازل وإخوته وأخواته في الهند وكيف أنها كانت تكرههم وتكره لقب «الآنسة ماري المشاكسة» الذي كانوا يُطلقونه عليها.

«لقد اعتادوا أن يَرقصوا حولي ويغنوا هذه الأغنية لي:

الآنسة ماري فتاة مشاكسة،
كيف تنمو حديقتك؟
بأجراس فضية وأصداف بحرية،
وأزهار مخملية متراصَّة في صف واحد.

لقد تذكرتُ هذه الأغنية للتوِّ وجعلتْني أتساءل عما إن كان يوجد بالفعل زهور تشبه الأجراس الفضية.»

وعبست قليلًا وغرست مِقلعها في الأرض ببعض العنف.

«لم أكن مشاكسة مثلهم.»

ولكن ديكون ضحك.

قال لها وهو يُفتِّت التربة الطينية الخصبة التي رأته يتنشَّق رائحتها: «حسنًا! أعتقد أنه لا يبدو هناك ما يدعو أحدًا لأن يكون مشاكسًا في وجود الأزهار وما شابه، والكثير من الكائنات البرية الأليفة، تَمضي من حوله تصنع مساكن لأنفسها، أو تبني أعشاشًا وتُغني وتصفر، أليس كذلك؟»

نظرت ماري إليه وهي تجثو على ركبتيها بجواره وتحمل في يدها البذور وتوقَّفت عن العبوس.

قالت: «ديكون، أنت لطيف للغاية تمامًا مثلما قالت عنك مارثا. أنا أحبك كثيرًا، وهكذا تكون خامس شخص أحبه. لم أعتقد قط أني سأحب خمسة أشخاص.»

جلس ديكون على عقبيه تمامًا كما تجلس مارثا عندما تُلمِّع قضبان المدفأة. رأت ماري أنه يبدو بالفعل مضحكًا ومبهجًا بعينيه الزرقاوين المستديرتين، ووجنتيه الحمراوين، وأنفه الأذلف اللطيف.

قال لها: «هل تحبين خمسة أشخاص فقط؟ مَن الأربعة الآخرون؟»

أحصتهم ماري على أصابعها وقالت: «والدتك ومارثا وأبو الحنَّاء وبن ويذرستاف.»

انفجر ديكون في الضحك حتى إنه اضطرَّ إلى كتمان صوت ضحكه بوضع ذراعه على فمه.

قال لها: «أعرف أنكِ ترين أني فتًى غريب الأطوار، لكنى أعتقد أنكِ أغرب فتاة رأيتها في حياتي.»

عندئذٍ فعلت ماري شيئًا غريبًا؛ فقد مالت إلى الأمام وطرحت عليه سؤالًا لم تحلم أبدًا بأن توجهه لأحد على الإطلاق، وحاولت طرحه بلهجة يوركشاير لأن هذه لهجته، وفي الهند كان السكان الأصليون يسعدون دومًا إذا كنت تعلم لغتهم.

قالت له: «هل تحبني؟»

أجابها ديكون بمودَّة: «أجل، أحبك. فأنا أجدكِ رائعة، وأعتقد أن أبا الحنَّاء يرى هذا أيضًا!»

قالت ماري: «لقد صرتما اثنين. صار لديَّ اثنان يُحبَّاني.»

وبعد ذلك بدآ يعملان بجد أكبر من ذي قبل، وبسعادة أكثر. فزعت ماري وشعرت بالأسف حين سمعت دقَّات الساعة الكبيرة في الساحة معلنةً حلول موعد وجبة منتصف النهار.»

قالت له بأسًى: «أنا مضطرة إلى الرحيل الآن، وسيكون عليك أنت أيضًا أن ترحل، أليس كذلك؟»

ابتسم ديكون، وقال: «من السهل عليَّ أن أحمل غدائي معي؛ فأمي تدعني دومًا أضع بعض الطعام في جيبي.»

التقط معطفه من فوق الحشائش وأخرج من جيبه صُرة صغيرة بها متكورة ملفوفة في منديل أبيض في أزرق نظيف خشن، كان بها قطعتان سميكتان من الخبز بينهما شريحة من شيء ما.

قال: «عادةً ما يكون غدائي خبزًا فقط، لكني اليوم حصلتُ على شريحة من اللحم المقدد الدسم.»

بدا هذا الغداء لماري غريبًا، لكن بدا على أهبة الاستعداد للاستمتاع به.

قال لها: «هيا أسرعي لتناول طعامك. سأنهي طعامي قبلكِ. سأُنجز المزيد من العمل قبل أن أعود إلى المنزل.»

وجلس مسندًا ظهره إلى إحدى الأشجار وقال: «سأُنادي على أبي الحنَّاء وأعطيه قطعة من اللحم ليتناولها. فهذه الطيور تحب بعض الطعام الدسم.»

لم تتحمَّل ماري أن تتركه وتذهب؛ فقد بدا لها فجأة كما لو كان جنيًّا ممن يعيشون في الغابات، وربما يكون قد اختفى عندما تعود إلى الحديقة مرةً أخرى. فقد كان أروع من أن تصدق أن لمثله وجود. سارت ببطء حتى نصف المسافة التي تفصلها عن الباب الموجود في السور، ثم توقفت وعادت أدراجها.

قالت له: «مهما حدث فأنت لن تخبر أحدًا بأي شيء أبدًا عن هذه الحديقة، أليس كذلك؟»

كانت وجنتاه الحمراوان منتفختين بأول قضمة كبيرة يتناولها من الخبز واللحم، لكنه استطاع أن يبتسم ضحكة مُشجِّعة.

قال لها: «لنفترض أنكِ طائر من طيور السمنة وأرشدتني إلى مكان عُشك، هل تعتقدين أني سأخبر به أحدًا؟ لستُ أنا من يفعل ذلك. إن سِرك في طي الكتمان لديَّ مثل سر طائر السمنة.»

وكانت متأكدة تمامًا من ذلك.

الفصل الثاني عشر

«هل يمكنني الحصول على قطعة من الأرض؟»

ركضت ماري بسرعة شديدة لدرجة أنها وصلت إلى غرفتها لاهثة متقطِّعة الأنفاس. كان شعرها متناثرًا على جبهتها وكسا وجنتيها لون وردي فاقع. كان طعام الغداء مُعدًّا على الطاولة ومارثا في انتظارها بجواره.

قالت لها: «لقد تأخرتِ قليلًا، أين كنتِ؟»

قالت ماري: «لقد رأيتُ ديكون! رأيتُ ديكون!»

قالت مارثا بسعادة: «كنتُ أعلم أنه سيأتي، هل أعجبكِ؟»

قالت ماري بنبرة قاطعة: «أعتقد أنه ... أنه جميل!»

بدت مارثا مندهشةً بعض الشيء، لكنها بدت سعيدةً أيضًا.

قالت لها: «حسنًا، إنه أفضل فتى على وجه الأرض، لكننا لم نرَ قط أنه وسيم. فأنفه صغير للغاية.»

قالت ماري: «وأنا أحب الأنف الصغير.»

قالت مارثا بقليل من التردد: «كما أن عينيه مستديرتان، على الرغم من أن لونهما جميل.» قالت ماري: «وأنا أحب الأعين المستديرة، كما أنها بلون السماء التي تُظلِّل المستنقع بالضبط.»

تهلَّل وجه مارثا من الارتياح.

«تقول أمي إن لونهما قد صار كذلك بسبب نظره الدائم إلى الطيور والسحب. لكن فمه كبير، أليس كذلك؟»

قالت ماري بتصميم: «أنا أحب فمه الكبير، وأتمنى لو كان فمي مثل فمه.»

ضحكت مارثا بابتهاج، وقالت: «سيبدو هذا مضحكًا للغاية في وجهك الصغير، لكني كنتُ أعرف أن هذا ما سيحدث عندما تلتقين به. هل أعجبتكِ البذور وأدوات العناية بالحديقة؟»

سألتها ماري: «كيف عرفتِ أنه أحضرها؟»

«حسنًا! لم أشك للحظة في أنه لن يحضرها. كنتُ متأكدةً من أنه سيحضرها إن كانت موجودةً في يوركشاير؛ فهو فتًى أمين.»

خشيت ماري أن تبدأ مارثا في طرح أسئلة صعبة عليها، لكنها لم تفعل. فقد كانت مهتمة أكثر بالبذور وأدوات العناية بالحديقة، ولم تشعر ماري بالخوف إلا للحظة واحدة، حين بدأت تسألها عن المكان الذي ستزرع فيه هذه البذور.

سألتها: «مَن سألتِ بخصوص هذا الأمر؟»

ردَّت ماري في تردُّد: «لم أسأل أحدًا حتى الآن.»

«حسنًا! لو كنتُ مكانكِ، لم أكن لأطلب من كبير البستانيِّين؛ فالسيد روتش مهيب للغاية.»

قالت ماري: «لم أرَه قط؛ فلم أرَ إلا صغار البستانيِّين وبِن ويذرستاف.»

نصحتها مارثا: «لو كنتُ مكانك، لطلبتُ من بن ويذرستاف. إنه ليس سيئًا كما يبدو عليه؛ هو فقط عَكِر المِزاج. والسيد كرافن يتركه يفعل ما يشاء؛ لأنه كان هنا حين كانت السيدة كرافن على قيد الحياة، وكان دومًا ما يُضحكها. لقد كانت تُحبه، وربما يمكنه إيجاد ركن لك تزرعينه في مكان منعزل.»

قالت ماري بتوتر: «لو كان في مكان منعزل ولا أحد يريده، فلن يُمانع أحد إن حصلتُ عليه، أليس كذلك؟»

أجابتها مارثا: «لن يكون ثمَّة سبب لذلك؛ فلن تُسببي ضررًا لأحد.»

تناولت ماري طعامها بأسرع ما يُمكن وحين نهضت من على الطاولة، كانت على وشك الركض إلى غرفتها لترتدي قبعتها مرةً أخرى، ولكن أوقفتها مارثا وقالت: «لديَّ شيء أريد أن أخبركِ به. لقد رأيتُ أن أتركِ تتناولين طعامك أولًا ثم أخبركِ. لقد عاد السيد كرافن هذا الصباح وأعتقد أنه يريد رؤيتك.»

شحب لون ماري كثيرًا.

قالت: «يا إلهي! لماذا! لماذا! لم يكن يريد رؤيتي حين أتيتُ إلى هنا. لقد سمعتُ بيتشر يقول ذلك.» أوضحت لها مارثا قائلةً: «حسنًا، تقول السيدة ميدلوك إن هذا بسبب أمي.

فقد كانت تسير في قرية ثوايت والتقت به. إنها لم تتحدَّث إليه من قبل على الإطلاق، لكن السيدة كرافن جاءت لزيارة كوخنا مرتين أو ثلاث مرات. نسيَ هو هذا الأمر، لكن أمي لم تنسَ وتجرأت وأوقفته. لا أعلم بالضبط ما الذي قالته له عنكِ، لكنها قالت له شيئًا جعله يرغب في رؤيتك قبل أن يرحل مرةً أخرى غدًا.»

صاحت ماري: «يا إلهي! هل سيرحل غدًا؟ أنا سعيدة للغاية!»

«هذه المرة سيغيب لفترة طويلة؛ ربما لن يعود حتى حلول الخريف أو الشتاء. سيسافر إلى أماكن أجنبية؛ فهو يفعل هذا دومًا.»

قالت ماري بامتنان: «آه! أنا سعيدة، سعيدة للغاية!»

إن لم يعد السيد كرافن حتى حلول الشتاء أو حتى الخريف، فسيتوافر لديها وقت لمتابعة عودة الحياة للحديقة السرية. وحتى إن عرف بالأمر حينها وأخذها منها ستكون على الأقل قد أمضت فيها كل هذا الوقت.

قالت: «متى يريد رؤيتي في ظنك؟ ...»

لم تكد تكمل الجملة، حتى فُتح الباب، ودخلت السيدة ميدلوك إلى الغرفة. كانت ترتدي ثوبها الأسود الرائع وقبعتها، وثبَّتت ياقته بدبوس زينة كبير عليه صورة لوجه رجل ما. كانت هذه صورة بالألوان للسيد ميدلوك الذي تُوفِّي منذ سنوات، وكانت ترتدي هذا الدبوس دومًا حين تتأنَّق بأبهى ثيابها. كان يبدو عليها التوتر والقلق.

قالت سريعًا: «إن شعرك أشعث، اذهبي ومشطيه. مارثا، ساعديها في ارتداء أفضل ثوب لديها؛ فالسيد كرافن أرسلني لكي أحضرها معي إلى غرفة مكتبه.»

غادر اللون الوردي وجنتي ماري تمامًا، وبدأ قلبها يخفق بشدة، وشعرت بنفسها تعود فتاةً جامدةً صامتةً قبيحة الشكل مرة أخرى كسابق عهدها. لم تُجب حتى على السيدة ميدلوك، بل استدارت وسارت نحو غرفة نومها، وتبعتها مارثا. لم تقُل أي شيء وهي تُغيِّر ثوبها، وتُصفِّف شعرها، وبعدما صارت في أحسن هندام، تبعت السيدة ميدلوك عبر الأروقة في صمت. ما الذي ستقوله له؟ كانت مضطرة إلى الذهاب ومقابلة السيد كرافن، وتعرف أنه لن يحبها وهي لن تحبه، وتعرف جيدًا ماذا سيكون رأيه فيها.

اقتيدت إلى جزء من المنزل لم تذهب إليه من قبل. وأخيرًا طرقت السيدة ميدلوك بابًا، وجاء صوت يقول: «ادخل»، فدخلتا الغرفة معًا. كان بها رجل يجلس على مقعد وثير أمام النار، وتحدثت السيدة ميدلوك إليه.

قالت له: «هذه هي الآنسة ماري يا سيدي.»

قال السيد كرافن: «يمكنك أن تغادري الآن وتتركيها هنا. وسأرن لكِ الجرس حين أريد منكِ أن تأخذيها من هنا.»

حين خرجت وأغلقت الباب خلفها، لم يسَع ماري إلا الوقوف في انتظار، كطفلة صغيرة يخلو وجهها من أي تعبير، وتعتصر يديها النحيلتَين. استطاعت أن ترى أن الرجل الجالس في هذا الكرسي لم يكن أحدب للدرجة، بل كانت كتفاه مرتفعتين قليلًا ومنحنيتَين، وكان شعره الأسود به خطوط بيضاء. أدار رأسه من فوق كتفيه المرتفعتين وبدأ يتحدث إليها.

قال: «تعالي إلى هنا!»

فذهبت ماري إليه.

لم يكن قبيح الشكل؛ كان وجهه سيبدو وسيمًا لولا ما يكسوه من بؤس شديد. بدا قلقًا ومنزعجًا من مجرد رؤيتها، كما لو أنه لا يعرف ماذا يفعل معها.

سألها: «هل أنتِ على ما يرام؟»

أجابته ماري: «أجل.»

«هل يعتنون بكِ جيدًا؟»

«أجل.»

حكَّ جبهته بتوتُّر وهو يتفحَّصها.

قال لها: «أنتِ نحيلة للغاية.»

ردت عليه ماري بأكثر أسلوب صارم تعرفه: «إن وزني يزداد.»

كم كان وجهه حزينًا! بدت عيناه السوداوان كما لو كانتا تريانها بصعوبة بالغة، وكأنهما تريان شيئًا آخر، وبالكاد استطاع التركيز معها.

قال لها: «لقد نسيتكِ. كيف يُمكنني أن أتذكركِ؟ لقد كنتُ أنوي أن أرسل إليكِ بمربية أو جليسة أطفال، أو شخص من هذا القبيل، لكني نسيتُ تمامًا.»

رجته ماري قائلة: «أرجوك، أرجوك!» ثم شعرت بغُصة في حلقها فلم تكمل.

سألها: «ماذا تريدين أن تقولي؟»

قالت ماري: «أنا ... أنا أكبر من أن تكون لي جليسة أطفال، ومن فضلك، من فضلك لا تحضر لي مربية أيضًا.»

حكَّ جبهته مرةً أخرى وحدَّق فيها، ثم تمتم في شرود: «هذا ما قالته السيدة سويربي.»

استجمعت ماري قليلًا من الشجاعة وقالت بتلعثم: «هل هذه، هل هذه والدة مارثا؟»

أجابها قائلًا: «أجل، أعتقد هذا.»

قالت ماري: «إن لديها خبرة بالأطفال؛ فلديها اثنا عشر طفلًا، ولديها دِراية جيدة بهم.»

بدا يتنبَّه من شروده، فقال لها: «ماذا تريدين أن تفعلي؟»

أجابته ماري آملةً ألَّا يرتعش صوتها: «أريد أن ألعب خارج المنزل. أنا لم أكن أحب حياتي في الهند. أما هنا، فأشعر بالجوع، ويزداد وزني.»

كان يراقبها طوال الوقت، فقال لها: «إن السيدة سويربي قالت إن هذا سيفيدكِ كثيرًا، وربما يحدث هذا. لقد رأت أنه من الأفضل لكِ أن تُصبحي أكثر قوة قبل إحضار مربية لكِ.»

جادلته ماري: «إنني أشعر بالقوة تدبُّ في جسدي حين ألعب وأتعرض لرياح المستنقع.»

بعد ذلك سألها: «أين تلعبين؟»

قالت له ماري في لهفة: «في كل مكان. فقد أرسلت لي والدة مارثا حبل قفز؛ فأقفز وأركض، وأتجول في كل مكان لأرى إن كانت الأشياء قد بدأت تنمو وتخرج من الأرض، دون أن أُؤذي أحدًا.»

قال لها بصوت قلق: «لا تخافي هكذا؛ فلا يُمكن لطفلة مثلك أن تؤذي أحدًا! يمكنكِ فعل ما يحلو لكِ.»

وضعت ماري يدها على عنقها، خوفًا من أن يرى الكتلة التي أحسَّت أنها تقفز داخل حلقها من الإثارة والفرح، واقتربت منه خطوة.

قالت له بصوت مرتجف: «هل يُمكنني ذلك؟»

بدا وجهها الصغير المضطرب يسبِّب له القلق أكثر من أي وقت آخر.

صاح في دهشة: «لا تخافي هكذا، بالطبع يُمكنك، فأنا الوصيُّ عليكِ، على الرغم من أني لا أصلح للاعتناء بأي طفل على الإطلاق؛ فلا يُمكنني إعطاؤكِ الوقت أو الاهتمام؛ فأنا مريض للغاية وبائس ومُشتَّت، لكني أتمنَّى أن تشعري بالسعادة والراحة. أنا لا أعرف أي شيء عن الأطفال، لكن مهمة السيدة ميدلوك التأكد من حصولك على كل ما تحتاجين إليه. لقد بعثتُ لكِ اليوم لأن السيدة سويربي أخبرتني بأنني يجب أن أراكِ. فقد حدثتْها ابنتها عنكِ؛ وهي ترى أنكِ بحاجة إلى الهواء النقي، والحرية والركض في كل مكان.»

قالت له ماري مرةً أخرى رغمًا عنها: «إنها تعرف كل شيء عن الأطفال.»

قال السيد كرافن: «يُفترض ذلك. أعتقد أنها كانت جرأة منها أن تستوقفني في المستنقع لتتحدث إليَّ، لكنها قالت إن السيدة كرافن كانت تعطف عليها.» بدا من الصعب عليه النطق باسم زوجته المتوفاة. «إنها سيدة محترمة. والآن بعدما رأيتكِ، أعتقد أنها كانت مُحقَّة في كل ما قالت. يُمكنكِ اللعب في الخارج كما تشائين. إن المكان كبير، ويمكنكِ الذهاب أينما تريدين والاستمتاع بوقتكِ كيفما شئتِ. هل تريدين أي شيء؟» قالها كما لو كان قد خطرت له فكرة مفاجئة. «هل تريدين ألعابًا، أو كتبًا أو دمي؟»

ارتعشت ماري وقالت: «هل يُمكنني ... هل يمكنني الحصول على قطعة من الأرض؟»

منعها حماسها من إدراك إلى أيِّ مدًى ستبدو كلماتها هذه غريبة وأنها لم تكن بالضبط الكلمات التي أرادت أن تقولها، وبدا على السيد كرافن الاندهاش الشديد وردد كلماتها قائلًا: «الأرض! ماذا تقصدين؟»

قالت متلعثمة: «حتى أزرع فيها البذور ... حتى أزرع أشياء وتنمو ... وأراها والحياة تدبُّ فيها.»

حدَّق فيها للحظة ثم مرَّر يده سريعًا على عينيه.

قال لها ببطء: «هل تهتمِّين بالحدائق إلى هذا الحد؟»

قالت ماري: «لم أكن أعرف شيئًا عنها وأنا في الهند؛ فقد كنتُ مريضة ومتعبة طوال الوقت وكان الجو شديد الحرارة. كنت في بعض الأحيان أصنع أحواضًا صغيرة في الرمال وأغرس فيها أزهارًا. لكن الوضع مختلف تمامًا هنا.»

نهض السيد كرافن من مقعده وبدأ يسير ببطء في أرجاء الغرفة.

قال في نفسه: «قطعة من الأرض.» واعتقدت ماري أنها لا بدَّ وأنها ذكَّرته بشيء ما. وعندما توقف وتحدث إليها بدت في عينيه السوداوين نظرة رقيقة وحانية.

قال لها: «يمكنكِ الحصول على ما تشائين من الأرض. أنت تُذكرينني بشخص آخر كان يحب الأرض كثيرًا والأشياء التي تنمو منها.» ثم ارتسم على وجهه ما يشبه الابتسامة وأردف قائلًا: «حين ترين قطعة الأرض التي تريدينها، خذيها على الفور، واجعلي الحياة تعود إليها.»

«هل يُمكنني أخذها من أي مكان، إن لم يكن لأحد حاجة لها؟»

ردَّ عليها قائلًا: «من أي مكان. والآن عليكِ أن ترحلي، فأنا أشعر بالتعب.» ولمس الجرس حتى يستدعي السيدة ميدلوك، وقال لها: «إلى اللقاء؛ سوف أغيب طوال فصل الصيف.»

حضرت السيدة ميدلوك سريعًا، حتى إن ماري ظنت أنها لا بدَّ وأنها كانت تنتظر في الرواق.

قال السيد كرافن لها: «سيدة ميدلوك، الآن بعدما رأيتُ الطفلة، فهمت ما كانت تعنيه السيدة سويربي. لا بدَّ أن تقوى صحتها قليلًا قبل أن تبدأ دروسها. قدِّمي لها غذاءً صحيًّا وبسيطًا. دعيها تركض كما يحلو لها في الحديقة، ولا تبالغي في العناية بها؛ فهي بحاجة إلى الحرية والهواء المنعش واللعب بمرح. ويُمكن للسيدة سويربي أن تأتي لرؤيتها بين الحين والآخر ويمكنها أيضًا الذهاب إلى كوخها بين حين وآخر.»

بدت السعادة على السيدة ميدلوك، فقد شعرت بارتياح حين سمعت أنها لن يكون عليها أن تبالغ في العناية بماري. فقد كانت تشعر بأنها عبء ثقيل عليها، ولم تكن تراها إلا نادرًا للغاية كلما تسنَّى لها ذلك، إلى جانب أنها كانت تحبُّ والدة مارثا كثيرًا.

قالت له: «أشكرك يا سيدي. أنا وسوزان سويربي كنا نذهب إلى المدرسة معًا، وهي امرأة عاقلة وطيبة القلب تمامًا كما رأيت حين قابلتها. إنني لم أُرزق بأطفال، وهي لديها اثنا عشر طفلًا وهم جميعًا في أحسن صحة وأفضل حال، ولا يُمكن أن تُصاب الآنسة ماري بأي أذًى منهم. وأنا نفسي طالما كنتُ أستشير سوزان سويربي في أي شيء يتعلق بالأطفال. يمكنك أن تُطلِق عليها أنها امرأة راجحة العقل ... إن كنت تفهم ما أعنيه.»

رد عليها السيد كرافن: «أجل أفهم. خذي الآنسة ماري الآن وأرسلي لي بيتشر.»

حين تركتها السيدة ميدلوك عند نهاية الرواق المؤدِّي إلى غرفتها، ركضت ماري عائدة إلى غرفتها، وهناك وجدت مارثا في انتظارها. فقد كانت مارثا قد عادت إلى الغرفة سريعًا بعدما رفعت أواني الغداء.

صاحت ماري قائلة: «يُمكنني أن يكون لي حديقة لي وحدي! ويمكنني الحصول عليها في أي مكان أريده! ولن يكون لي مربية وقتًا طويلًا! ويُمكن لوالدتك الحضور لزيارتي ويمكنني الذهاب إلى كوخكم أيضًا! إنه يقول إن فتاة صغيرة مثلي لا يُمكن أن تسبب الضرر بأي شكل، وُيمكنني فعل كل ما يحلو لي ... وفي أي مكان!»

قالت مارثا بابتهاج: «يا إلهي! كان هذا لُطفًا منه، أليس كذلك؟»

قالت ماري بجدية: «مارثا، إنه رجل لطيف بالفعل؛ لولا أن وجهه بائس للغاية وجبهته مُقطبة طوال الوقت.»

ركضت بأقصى ما استطاعت إلى الحديقة؛ فقد غابت عنها لفترة أطول كثيرًا مما توقعت، وكانت تعرف أن ديكون عليه التحرك مبكرًا ليبدأ مسيرته ذات الخمسة أميال.

وحين انسلَّت عبر الباب تحت أفرع اللبلاب، رأته لا يعمل في المكان الذي تركته فيه. كانت أدوات البستَنَة ملقاةً معًا تحت إحدى الأشجار. هرولت نحوها وتفقَّدت المكان من حولها، لكنها لم تستطع رؤية ديكون في أي مكان. فقد ذهب وخلَتِ الحديقة السرية إلا من أبي الحنَّاء الذي عبر السور لتوِّه وجلس على شُجيرة من شجيرات الورد وظلَّ يُراقبها. قالت بأسًى: «لقد ذهب، هل كان، هل كان مجرد جنِّي ممَّن يعيشون في الغابات؟»

لفَتَ انتباهها شيء أبيض اللون مُثبت بشجيرة الورد. كانت قطعة من الورق، وفي الواقع كانت قطعة من الخطاب الذي طبعته لمارثا حتى تُرسلَه إلى ديكون. كانت مثبتة بالشجيرة بشوكة طويلة، وعلى الفور علمت أن ديكون قد تركها لها هناك. كانت ثمَّة بعض الأحرف المطبوعة على نحو غير مُنتظِم وصورة ما. لم تستطع للوهلة الأولى أن تُحدِّد ما تُعبر عنه الصورة، ثم رأت أنها تعبر عن عُش يجلس عليه طائر، وتحته الأحرف المطبوعة كُتبت عبارة:

سوف أعود.

الفصل الثالث عشر

«أنا كولن»

عادت ماري بالصورة إلى المنزل حين حان موعد العشاء، وأرتْها لمارثا.

قالت مارثا بفخر شديد: «هكذا إذن! لم أكن أعرف قطُّ أن أخي ديكون بهذا القدر من المهارة. هذه صورة لأنثى طائر السمنة رابضة في عُشها، وبالحجم الطبيعي أيضًا.»

عندئذٍ علمت ماري أن ديكون أراد أن يُوصِّل لها رسالة من خلال هذه الصورة. فقد أراد إخبارها بأن تطمئنَّ بأنه سيكتم سرها. فالحديقة هي عُشها وهي مثل أنثى طائر السمنة. يا إلهي! كم تحب هذا الفتى الريفي الغريب الأطوار!

كانت تأمل أن يعود في اليوم التالي مباشرةً، وخلدت إلى النوم وهي تتطلَّع إلى الصباح.

إلا أن أحدًا لا يُمكنه أبدًا توقُّع حالة الطقس في يوركشاير، خاصةً في فصل الربيع. فقد استيقظت ليلًا على صوت المطر الغزير وارتطام قطراته الثقيلة بنافذتها. كان المطر ينهمر سيولًا والرياح «تهدر» في جميع أركان هذا المنزل الضخم القديم وداخل مداخنه. جلست ماري في السرير وشعرت بالبؤس والغضب.

قالت: «إن هذه الرياح مشاكسة وعنيدة مثلما كنتُ أنا؛ لقد جاءت لأنها تعرف أني لا أريدها.»

ارتمت على وسادتها ودفنت وجهها فيها. لم تبكِ، لكنها ظلت مستلقيةً وهي تشعر بالكراهية الشديدة لصوت المطر الذي كان يهطل بقوة، وكرهت الرياح وصوتها «الهادر». لم تستطع العودة إلى النوم مرةً أخرى؛ فقد جعلها هذا الصوت البائس مستيقظةً لشعورها هي نفسها بالبؤس والأسى. فلو كانت تشعر بالسعادة، لربما هدأت وعادت إلى النوم مرةً أخرى.

كم كانت الرياح «تعوي» وقطرات المطر الكبيرة تَنهمر وتضرب زجاج نافذتها!

قالت لنفسها: «يبدو هذا الصوت كما لو أن أحدًا قد ضلَّ طريقه في المستنقع ويتجوَّل هنا وهناك باكيًا.»

ظلَّت مُستلقية في السرير تتقلَّب على الجانبين لِمَا يقرب من ساعة، وفجأة حدث شيء دفعها إلى النهوض والجلوس في السرير وتحويل رأسها نحو الباب والإنصات جيدًا. وظلت تُنصت وتُنصت.

قالت بهمس عالٍ: «هذا ليس صوت الرياح الآن. تلك ليست الرياح، بل صوت مختلف! إنه صوت البكاء الذي سمعته من قبل.»

كان باب الغرفة مفتوحًا جزئيًّا وكان الصوت قادمًا من آخر الممر، وكان صوتًا بعيدًا وخافتًا من بكاء متقطع. ظلَّت تُنصت إلى الصوت لبضع دقائق، ومع كل دقيقة تمر، كان يقينها يزداد أكثر وأكثر. شعرت بأنها لا بدَّ أن تعرف مصدر هذا الصوت. فقد بدا الأمر أغرب حتى من الحديقة السرية والمفتاح المدفون. وربما استمدَّت جرأتها من حقيقة أنها كانت في حالة مزاجية ثورية. أنزلت قدميها من على السرير ووقفت على الأرض.

قالت: «سأعرف ما هذا الصوت بالضبط؛ فالجميع الآن يغطُّ في النوم وأنا لا أبالي بالسيدة ميدلوك … لا أبالي!»

كانت ثمَّة شمعة بجوار سريرها فأخذتها وخرجت بهدوء من غرفتها. بدا الرواق طويلًا ومظلمًا للغاية، لكن حماسها أكبر من أن تكترث لهذا. اعتقدت أنها تتذكر الزوايا التي عليها أن تنعطف عندها لتعثر على الرواق القصير الذي به الباب المغطَّى بالبساط الجداري المطرز، ذلك الذي خرجت منه السيدة ميدلوك في اليوم الذي ضلَّت فيه طريقها. كان الصوت قادمًا من هذا الرواق. لذلك واصلت السير بما لديها من ضوء خافت، وهي شبه تتحسَّس طريقها، وكان قلبها يخفق بصوت مرتفع للغاية حتى ظنت أنها تسمع دقاته. استمر صوت البكاء الخافت القادم من بعيد وكان دليلها في الطريق. كان يتوقف أحيانًا للحظة أو نحو ذلك، ثم يبدأ مرةً أخرى. أهذا هو المنعطف الصحيح الذي عليها أن تسلكه؟ توقَّفت وفكَّرت في الأمر؛ أجل إنه هو. عليها أن تسير في هذا الممر ثم تنعطف يسارًا، ثم عليها أن تخطو خطوتين واسعتين، ثم تنعطف يمينًا مرةً أخرى. أجل هذا هو الباب المغطى بالبساط المطرز.

دفعته بهدوء شديد لتفتحه، وأغلقته خلفها ووقفت في الرواق وتمكَّنت من سماع صوت البكاء بوضوح شديد، على الرغم من أنه لم يكن عاليًا. كان قادمًا من الجانب الآخر من الجدار الموجود على يسارها، وعلى بُعد بضع ياردات وجدت بابًا، واستطاعت أن

ترى بصيص نور قادمًا من أسفله. كان الشخص الذي يبكي هذا البكاء موجودًا في تلك الغرفة، وكان واضحًا أنه صغير السن.

لذا اتَّجهت نحو هذا الباب ودفعته لتفتحَه، فوجدت نفسها تقف داخل الغرفة!

كانت غرفة كبيرة بها أثاث قديم وجميل. وكان بها نار خافتة تتوهَّج في المدفأة ومصباح ليلي مشتعل بجانب سرير منحوت من الخشب ذي أربعة أعمدة يحيط به قماش مطرَّز، وعلى السرير يوجد صبي مُستلقٍ يبكي بكاءً متقطعًا.

تساءلت ماري عما إذا كانت في مكان حقيقي، أم ربما يكون قد غلبها النوم مرةً أخرى وهي الآن تحلم دون أن تدرك ذلك.

كان للصبي وجه صغير حاد الملامح بلون العاج، وبدت عيناه كبيرتين للغاية بالنسبة إليه. كان شعره كثيفًا أيضًا متناثرًا على جبهته في خُصَل سميكة ما جعل وجهه النحيل يبدو أصغر حجمًا. بدا من شكله أنه مريض، لكنه كان يبكي من شعوره بالتعب والغضب أكثر من شعوره بالألم.

وقفت ماري بالقرب من الباب وهي تحمل شمعتها في يدها وتكتم أنفاسها، ثم تحركت ببطء عبر الغرفة ومع اقترابها أكثر وأكثر، انتبه الصبي إلى الضوء فاستدار برأسه على الوسادة وحدَّق فيها، وانفتح عيناه الرماديتان عن آخرهما فظهرتا مُتَّسعتين.

قال لها أخيرًا بهمس يشوبه الخوف: «مَن أنتِ؟ هل أنتِ شبح؟»

ردت ماري وفي صوتها الهامس بعض الخوف: «لا، لستُ كذلك. هل أنتَ شبح؟»

ظل يُحدِّق فيها طويلًا، ما جعل ماري تلاحظ إلى أيِّ مدًى كانت عيناه غريبتين. كان لونهما بلون العقيق الرمادي، وكانتا كبيرتين للغاية بالنسبة إلى وجهه الصغير؛ إذ كانت تُحيط بهما أهداب سوداء بالكامل.

أجابها بعدما انتظر للحظة أو نحو ذلك: «لا، أنا كولن.»

قالت وهي تتلعثم في الكلام: «مَن كولن؟»

«أنا كولن كرافن. ومَن أنتِ؟»

«أنا ماري لينوكس، والسيد كرافن هو زوج عمتي.»

قال الفتى: «إنه والدي.»

قالت ماري بدهشة: «والدك! لم يُخبِرْني أحد قط أن لديه ولدًا! لماذا لم يخبروني؟»

قال وهو ما زال يثبت عينيه الغريبتين عليها وعلى وجهه تعبير ينمُّ عن القلق: «تعالي إلى هنا.»

اقتربت من السرير ومدَّ هو يده ولمسها.

قال: «أنتِ حقيقية، أليس كذلك؟ كثيرًا ما أرى أحلامًا حقيقيةً من هذا النوع. لعلكِ واحد من هذه الأحلام.»

كانت ماري قد ارتدت دِثارًا صوفيًّا قبل أن تغادر غرفتها ووضعت قطعة منه بين أصابعه.

قالت له: «افرك هذا لترى مدى دفئه وسمكه، وسوف أقرصك بخفة إن أردتَ ذلك، لأريك أنني حقيقية. أنا أيضًا ظننتُك حلمًا لوهلة.»

سألها قائلًا: «من أين أتيتِ؟»

«من غرفتي. كانت الرياح تعوي ولم أتمكَّن من الخلود إلى النوم وسمعتُ أحدًا يبكي وأردتُ معرفة لمن هذا الصوت. لماذا كنتَ تبكي؟»

«لأني لم أستطع الخلود للنوم أيضًا وكان رأسي يؤلمني. أخبريني باسمك مرةً أخرى.»

«ماري لينوكس. ألم يُخبِرْك أحد قط أني قد أتيت للعيش هنا؟»

كان لا يزال ممسكًا بطيَّة دِثارها بين أصابعه، لكن بدأ يبدو عليه أنه يصدق أنها حقيقية.

رد عليها قائلًا: «كلا، فهم لا يجرءون على ذلك.»

سألته ماري: «لماذا؟»

«لأني حينها كنتُ سأخاف من أن تريني؛ وأنا لا أدع الناس يرونني ويتحدثون إليَّ.»

سألته ماري مرةً أخرى، وهي تشعر بمزيد من الغموض والحيرة مع مرور كل لحظة: «لماذا؟»

«لأني طوال الوقت على هذا الحال؛ مريض ويجب أن أبقى مستلقيًا. كذلك لا يسمح والدي للناس بالحديث معي. فليس مسموحًا للخدم بأن يتحدثوا معي، ولو كُتب لي البقاء على قيد الحياة، فقد أُصبِح أحدب، لكني لن أعيش. ووالدي يكره التفكير في أنني ربما أصبح مثله.»

قالت ماري: «يا له من منزل غريب! إنه منزل غريب بالفعل! كل شيء فيه سرٌّ بشكل أو بآخر. فالغرف مؤصدة والحدائق مؤصدة أيضًا، وأنت! هل أنتَ أيضًا محبوس هنا؟»

«لا، إنني أمكث في هذه الغرفة لأني لا أريد الخروج منها؛ فهذا يرهقني كثيرًا.»

تجرأت ماري وسألته: «هل يأتي والدك لرؤيتك؟»

«أحيانًا، عادةً ما يأتي وأنا نائم؛ فهو لا يرغب في رؤيتي.»

لم تستطع ماري أن تمنع نفسها من تكرار السؤال: «لماذا؟»

خيَّمت ملامح الغضب على وجه الفتى إلى حدٍّ ما.

«لقد ماتت أمي حينما وُلدتُ وهذا يجعله يبتئس عندما ينظر إليَّ. إنه يعتقد أني لا أعلم هذا، لكني سمعته يتحدث إلى بعض الأشخاص. إنه يكرهني تقريبًا.»

قالت ماري وهي شبه تتحدث إلى نفسها: «إنه يكره الحديقة لأنها ماتت فيها.»

سألها الفتى: «أي حديقة؟»

تلعثمت ماري وقالت له: «إنها مجرد ... مجرد حديقة كانت تحبها. هل تبقى هنا طوال الوقت؟» «تقريبًا. أحيانًا يأخذوني إلى أماكن على شاطئ البحر، لكني لا أريد البقاء فيها لأن الناس يُحدِّقون بي. لقد اعتدتُ ارتداء قطعة من الحديد لتبقي ظهري مفرودًا، لكن طبيبًا كبيرًا من لندن جاء ليراني وقال إن هذه حماقة. وأخبرهم أن يَنزعوها عني ويتركوني أخرج في الهواء الطلق. أنا أكره الهواء الطلق ولا أريد الخروج أبدًا.»

قالت له ماري: «لم أكن أحبه أيضًا في البداية حين جئتُ إلى هنا. لماذا تطيل النظر إليَّ هكذا؟»

أجابها بصوت متقطع نوعًا ما: «بسبب الأحلام التي تبدو حقيقيةً للغاية. أحيانًا حين أفتح عيني لا أصدق أني مستيقظ.»

قالت له ماري: «نحن الاثنان مستيقظان»، وأخذت تنظر عبر أرجاء الغرفة ذات السقف المرتفع والأركان المظلمة وضوء النار الخافت، ثم قالت: «يبدو هذا أشبه بحلم. فنحن في منتصف الليل، وجميع مَن في المنزل يغطُّون في النوم، عَدانا. فنحن الاثنان مستيقظان.»

قال الفتى متململًا: «لا أريده أن يكون حلمًا.»

وعلى الفور خطر لماري شيء.

بدأت حديثها قائلة: «إذا كنتَ لا تريد أن يراك الناس، فهل تريدني أن أذهب؟»

كان ما زال ممسكًا بطية دثارها في يده فجذبها قليلًا وقال: «كلا، فإذا ذهبتِ سأتأكد من أنه حلم. إذا كنتِ حقيقية، فلتجلِسي على مسند القدمين الكبير هذا وتتحدثي إليَّ؛ فأنا أريد معرفة كل شيء عنكِ.»

وضعت ماري شمعتها على الطاولة بالقرب من السرير وجلست على المسند الوثير. لم تكن تريد الذهاب على الإطلاق. لقد أرادت أن تبقى في هذه الغرفة السرية الخفية وتتحدث إلى هذا الفتى الغامض.

قالت له: «ما الذي تريد أن أخبرك به؟»

أراد أن يعرف كم مضى على مجيئها إلى ميسلثويت؛ وأراد معرفة الممر الذي توجد فيه غرفتها؛ وأراد معرفة ما كانت تفعله طوال هذا الوقت؛ وما إذا كانت تكره المستنقع مثلما يكرهه؛ وأين كانت تعيش قبل قدومها إلى يوركشاير. أجابت على جميع هذه الأسئلة وغيرها الكثير، واستلقى هو على وسادته وظل يستمع إليها. جعلها تخبره الكثير عن الهند وعن رحلتها عبر المحيط. أما هي، فعرفت أنه بسبب مرضه وعجزه، لم يتعلَّم الأشياء التي يتعلمها غيره من الأطفال. وقد علمته إحدى ممرضاته القراءة حين كان صغيرًا للغاية، وكان دائمًا يقرأ كتبًا رائعة وينظر إلى الصور الموجودة فيها.

على الرغم من أن والده كان نادرًا ما يراه وهو مستيقظ، فقد توافرت له كل أنواع الأشياء الرائعة ليُسلي نفسه بها. ومع ذلك لم يبدُ عليه قط أنه مستمتع على الإطلاق. كان بإمكانه الحصول على أي شيء يطلبه، ولم يكن عليه فعل أي شيء لا يريد فعله. قال بلا مبالاة: «إن الجميع ملزم بفعل كل ما يُرضيني. لقد أعياني الغضب؛ فلا أحد يعتقد أني سأعيش حتى أكبر.»

قال هذا كما لو كان معتادًا على هذه الفكرة حتى إنها لم تعد تُهمه على الإطلاق. بدا أنه يحب سماع صوت ماري؛ فبينما كانت ماضيةً في الحديث، أصغى إليها باهتمام شابه بعض النعاس. تساءلت لمرة أو مرتين إذا ما كان يغلبه النعاس، إلا أنه في النهاية طرح سؤالًا فتح موضوعًا جديدًا للحديث.

سألها: «كم عمرك؟»

أجابت ماري وقد نسيت نفسها وتخلت عن حذرها للحظة: «أنا في العاشرة، وأنتَ أيضًا.»

سألها بصوت غلب عليه الدهشة: «كيف عرفتِ ذلك؟»

«لأنك حين ولدتَ، أُغلق باب الحديقة ودُفن المفتاح، وقد مضى على إغلاق الحديقة عشر سنوات.»

نهض كولن من استلقائه وجلس نصف جلسة والتفت إليها متكئًا على مرفقيه.

صاح في دهشة وقد صار فجأةً في غاية الاهتمام بالأمر: «أي باب حديقة هذا الذي أُغلق؟ ومَن أغلقه؟ وأين دُفن المفتاح؟»

قالت ماري بتوتر: «إنها ... إنها الحديقة التي يَكرهها السيد كرافن. لقد أغلق بابها، ولا أحد ... لا أحد يعلم أين دفن المفتاح.» استمر كولن في سؤالها بلهفة: «ما نوع هذه الحديقة؟»

أجابته ماري بحرص: «لم يُسمح لأحد بدخولها منذ عشر سنوات.»

لكن الحرص لم يعد يجدي نفعًا الآن؛ فقد كان كولن مثلها تمامًا، ليس لديه ما يفكر فيه وجذبته فكرة وجود حديقة خفية تمامًا مثلما جذبتها. وأخذ يطرح عليها سؤالًا تلو الآخر؛ أين هي؟ ألم تبحث عن الباب من قبل؟ ألم تسأل البستانيِّين عنها أبدًا؟

قالت ماري: «إنهم لا يتحدثون عنها، وأعتقد أن لديهم تعليمات بعدم الإجابة عن الأسئلة.»

قال كولن: «سأجبرهم أنا على هذا.»

قالت ماري متلعثمةً وقد بدأت تشعر بالخوف: «أيمكنكَ هذا؟» فإن استطاع إجبار الناس على الإجابة عن الأسئلة، مَن يدري ماذا يمكن أن يحدث.

قال لها: «إن الجميع مجبر على إرضائي، كما أخبرتكِ. وإن كُتبت لي الحياة، سيصير هذا المكان ملكًا لي في وقت من الأوقات، وهم جميعًا يعرفون هذا، ولهذا يمكنني جعلهم يخبروني بما أريد.»

لم تكن ماري تعلم أنها كانت فتاةً مدَّللةً، لكنها استطاعت أن ترى بوضوح أن هذا الفتى الغامض كان مدلَّلًا للغاية. فقد كان يظن أن العالم كله ملكًا له. كم كان فتًى غريبًا، وكم كان يتحدث عن الموت ببرود!

سألته: «أتظن أنك لن تعيش؟»؛ فقد كانت من ناحية تشعر بالفضول، ومن ناحية أخرى تأمل أن تجعله ينسى أمر الحديقة.

أجابها باللامبالاة نفسها التي كان يتحدث بها من قبل: «لا أعتقد هذا. فمنذ وعيت على الدنيا وأنا أسمع الناس يقولون إني لن أعيش. في البداية كانوا يعتقدون أني صغير ولن أفهم؛ أما الآن فهم يعتقدون أني لا أسمعهم. لكني أسمعهم. فطبيبي هو ابن عم والدي، وهو فقير للغاية وإن متُّ، ستئول إليه ملكية ميسلثويت بالكامل بعد وفاة والدي. أعتقد أنه لا يريدني أن أعيش.»

سألته ماري: «وهل تريد أنت أن تعيش؟»

أجابها في غضب وإعياء: «كلا، لكني لا أريد أن أموت. حين أشعر بالتعب، أستلقي هنا وأفكر في هذا الأمر حتى أبكي وأبكي.»

قالت له ماري: «لقد سمعتكُ تبكي ثلاث مرات، لكني لم أكن أعرف ممن يَصدر هذا البكاء. هل كنتَ تبكي لهذا السبب؟»

لقد أرادت بالفعل أن ينسى أمر الحديقة.

أجابها قائلًا: «أعتقد هذا. لنتحدث عن شيء آخر؛ لنتحدث عن الحديقة. ألا تريدين رؤيتها؟»

ردت ماري بصوت خفيض: «بلى!»

واصل حديثه بإصرار: «أنا أريد رؤيتها، ولا أعتقد أني أردتُ رؤية أي شيء من قبل في حياتي، لكني أريد رؤية تلك الحديقة. وأريد العثور على المفتاح، وفتْح الباب. سأجعلهم يأخذوني إلى هناك على كرسي؛ فهكذا سأحصل على الهواء النقي، وسأجعلهم يفتحون الباب لي.»

كان قد أصبح متحمسًا للغاية وبدأت عيناه الغريبتان تلمعان مثل النجوم، وبدتا أكثر اتِّساعًا من أي وقت مضى.

قال لها: «إن عليهم إرضائي؛ ولهذا سأجعلهم يأخذوني إلى هناك وسأجعلك تذهبين معي أيضًا.»

اعتصرت ماري يديها معًا من التوتُّر؛ فكلُّ شيء سيفسد ... كل شيء! فلن يعود ديكون أبدًا، ولن تشعر بعد الآن بأنها طائر سمنة لديه عُش سري آمن.

صاحت فيه قائلة: «يا إلهيَ! لا تفعل، لا تفعل ... لا تفعل ... لا تفعل هذا!»

حدَّق فيها كمن يظن أنها قد جُنَّت!

قال لها مستفسرًا: «لماذا؟ لقد قلتِ إنكِ تريدين رؤيتها.»

أجابته وفي صوتها نحيب: «أنا أريد رؤيتها بالفعل، ولكن إن أجبرتهم على فتح هذا الباب وإدخالك إياها على هذا النحو، لن تصبح حديقة سرية بعد الآن.»

مال بجسده إلى الأمام أكثر، وقال: «سرية؟ ماذا تقصدين؟ أخبريني.»

خرجت كلمات ماري متلاطمة تسابق إحداها الأخرى.

قالت في اضطراب ولهاث: «أتعلم ... أتعلم، إن لم يعرف أحدٌ بأمرها سوانا ... في حالة وجود باب خفي في مكان ما تحت نبات اللبلاب ... إن وجد ... واستطعنا العثور عليه، وإن استطعنا التسلل عبره خلسة معًا وإغلاقه من خلفنا، دون أن يعلم أحد بوجود أي شخص بالداخل، وأطلقنا عليها حديقتنا، وتظاهرنا بأننا طيور سمنة تعيش وهذه الحديقة هي عُشنا، وإذا لعبنا هناك كل يوم تقريبًا وحفرنا الأرض وغرسنا البذور ونجعل الحديقة تعود إليها الحياة ...»

قاطعها قائلًا: «هل ماتت الحديقة؟»

تابعت قائلة: «سيَحدث هذا قريبًا إن لم يهتم بها أحد. فالبصيلات ستعيش لكن الورد ...»

أوقفها مرةً أخرى عن الكلام؛ إذ كانت هي نفسها في غاية الحماس.

وأضاف سريعًا: «ما هي البصيلات؟»

«توجد أزهار النرجس البري والزنبق وزهور اللبن الشتوية. كلها تنبت في الأرض الآن، وتخرج أطرافًا خضراء باهتة؛ لأن الربيع على وشك المجيء.»

قال لها: «هل الربيع على وشك أن يأتي؟ ما شكله؟ فالمرء لا يراه داخل الغرف إذا كان مريضًا.»

قالت ماري: «إنه ضوء الشمس حين يسقط على المطر، والمطر حين يسقط على ضوء الشمس، والنباتات وهي تشق طريقها إلى الأرض ونموُّها تحت الأرض. فلو كانت الحديقة سرية واستطعنا دخولها، يمكننا رؤية هذه الأشياء وهي تنمو وتكبر كل يوم، ونعرف عدد الورود التي ما زالت على قيد الحياة، أليس كذلك؟ أترى؟ أترى كم سيكون من الأفضل كثيرًا إن بقيت هذه الحديقة سرًّا؟»

استند كولن إلى وسادته واستلقى وعلى وجهه تعبير غريب.

قال لها: «لم يكن لديَّ سر قط من قبل، عدا السر الخاص بأني لن أعيش حتى سن متقدمة. فهم لا يعرفون أني أعرف هذا، لذلك يُعتبَر سرًّا. لكني أحب هذا النوع من الأسرار أكثر.»

قالت ماري متوسِّلةً: «إن لم تجعلهم يأخذونك إلى الحديقة، ربما ... بل أنا واثقة أن بإمكاني أن أعرف طريقة نستطيع الدخول بها في وقت ما. ثم إن كان الطبيب يريد منك الخروج على كرسيك، وإن كان بوسعك دومًا أن تفعل ما يحلو لك، فربما ... ربما نعثر على فتًى يمكنه أن يدفع كرسيك، ونذهب وحدنا وهكذا ستظلُّ دومًا حديقة سرية.»

قال ببطء شديد وعينين حالمتين: «سأحب هذا كثيرًا، سأحبه؛ فلا مانع لديَّ من استنشاق هواء نقي في حديقة سرية.»

بدأت ماري تلتقط أنفاسها وتشعر بالأمان لأن فكرتها عن كتمان السر بدت تروق له. وشعرت بالثقة بأنها إن استمرَّت تتحدث إليه واستطاعت أن تجعله يرى الحديقة بعين عقله مثلما رأتها، فسيحبها كثيرًا ولن يتحمَّل فكرة دخول أي شخص إليها متى أراد.

قالت له: «سأخبرك بالصورة التي أتخيَّلها عليها، إن أمكننا دخولها. لقد مرَّ وقت طويل منذ إغلاقها، وربما نمَتِ النباتات فيها حتى أصبحت متشابكة.»

استلقى في سكون تامٍّ وأصغى إليها وهي تواصل حديثها عن الورود التي ربما تكون قد تسلَّقت من شجرة إلى أخرى وتدلَّت منها؛ وعن الطيور الكثيرة التي ربما

تكون قد بنت أعشاشها هناك لأنه مكان آمن للغاية. بعد ذلك أخبرته عن أبي الحنَّاء وبِن ويذرستاف، وكان لديها الكثير من القصص عن أبي الحنَّاء وتحدثت عنه بسهولة واطمئنان حتى لم تعد تشعر بالخوف. أسعده الحديث عن أبي الحنَّاء كثيرًا، حتى إنه ابتسم حتى بدت ملامح وجهه جميلة، وكانت ماري في البداية ترى أن ملامحه حتى أكثر قبحًا من ملامحها، بعينيه الكبيرتين وخُصلات شعره الكثيفة.

قال لها: «لم أكن أعلم أن الطيور قد تكون لطيفة هكذا. ولكنك حين تمكثين دومًا في غرفة، لا يمكنك رؤية أي شيء. إنكِ تعرفين الكثير من الأشياء، وأشعر كما لو كنتِ قد دخلتِ تلك الحديقة.»

لم تعرف ماذا تقول له، ولهذا لم تقل أي شيء. ومن الواضح أنه لم يكن ينتظر منها إجابة، وفي اللحظة التالية حمل إليها مفاجأة.

«سأجعلكِ ترين شيئًا ما. أترين هذه الستارة الحريرية الوردية المتدلِّية هناك على الجدار فوق رفِّ الموقد؟»

لم تكن ماري قد لاحظت وجودها من قبل، لكنها رفعت بصرها ورأتها. كانت ستارة من الحرير الناعم تدلَّت فوق شيء بدا أنه صورة.

أجابته قائلة: «أجل.»

قال كولن: «يوجد حبل متدلٍّ منها، اذهبي واجذبيه.»

نهضت ماري وقد تملكتها حَيرة شديدة، ووجدت الحبل. حين جذبته انحسرت الستارة الحريرية إلى الخلف على حلقات، كاشفة عن صورة. كانت صورة لفتاة ذات وجه ضاحك. كان شعرها لامعًا مربوطًا بشريط أزرق اللون، وعيناها الجميلتان الغريبتان تُشبهان تمامًا عيني كولن الحزينتين ذات اللون الرمادي اللامع اللتين تبدوان ضعف حجمهما الحقيقي، بسبب الرموش السوداء المحيطة بهما.

قال كولن في تبرم: «إنها والدتي. لا أعرف سبب موتها وأحيانًا أكرهها لذلك.»

قالت ماري: «يا له من أمر غريب!»

قال متذمِّرًا: «أعتقد أنها لو كانت قد عاشت، لما عانيتُ من المرض طوال الوقت هكذا، ولربما كنت سأعيش أيضًا. ولم يكن والدي سيكره النظر إليَّ. وأعتقد كذلك أنني كنتُ سأتمتع بظهرٍ قوي. فلتُسدلي الستارة مرةً أخرى.»

فعلت ماري ما قاله لها وعادت إلى كرسيها.

قالت له: «إنها أجمل منكَ بكثير، لكن عينَيها تُشبهان عينيك تمامًا ... على الأقل في الشكل واللون. لماذا توجد تحت الستارة؟»

تحرَّك في تململ وضيق وقال: «أنا من طلبت منهم ذلك. أحيانًا لا أحب أن أرى نظرتها إليَّ؛ فهي تضحك طوال الوقت بينما أنا مريض وبائس. كما أنها تخصُّني وحدي ولا أريد أن يراها أحد.» ساد صمت لبضع لحظات قطعته ماري.

«ماذا ستفعل السيدة ميدلوك إن علمت بمجيئي إلى هنا؟»

أجابها قائلًا: «ستفعل كما أقول لها، وأنا سأُخبرها أنني أريدكِ أن تأتي إلى هنا وتتحدثي معي كل يوم؛ فأنا سعيد بمجيئكِ.»

قالت ماري: «وأنا أيضًا، سآتي إليك كلما استطعتُ، لكن ...» ثم تردَّدت للحظة «سيكون عليَّ البحث كل يوم عن باب الحديقة.»

قال كولن: «أجل، لا بدَّ أن تفعلي هذا، ويُمكنك أن تخبريني عنها فيما بعد.»

استلقى يفكر لبضع دقائق، كما فعل من قبل، ثم تحدث مرةً أخرى.

«أعتقد أن عليكِ أن تظلِّي أنتِ أيضًا سرًّا. فلن أخبرهم بمجيئك حتى يكتشفوا هذا بأنفسهم. يُمكنني دومًا إرسال الممرضة إلى خارج الغرفة وإخبارها بأني أريد البقاء وحدي. أتعرفين مارثا؟»

قالت ماري: «أجل، أعرفها جيدًا؛ فهي من تعتني بي.»

أومأ برأسه نحو الرواق الخارجي وقال: «إنها تنام في الغرفة الأخرى. فقد غادرت الممرضة أمس لتقضي الليلة بأكملها مع أختها، وهي تجعل مارثا دائمًا تعتني بي حين ترغب في الخروج. يمكن لمارثا أن تُخبرك بالوقت المناسب الذي يمكنك المجيء فيه إلى هنا.»

حينئذٍ فهمت ماري النظرة المضطربة التي بدت على مارثا حين راحت تكيل لها الأسئلة عن صوت البكاء.

سألته: «هل كانت مارثا تعلم بوجودك طوال الوقت؟»

«أجل، فهي غالبًا ما تتولَّى العناية بي؛ فالممرضة تحب الابتعاد عني وعندها تأتي مارثا.»

قالت ماري: «لقد قضيتُ وقتًا طويلًا هنا، هل يمكنني الذهاب الآن؟ فالنعاس بادٍ في عينيكَ.»

قال لها ببعض الخجل: «كنتُ أتمنى أن أخلد للنوم قبل أن تذهبي.»

قال له ماري، وهي تقترب منه بكرسيها: «أغمض عينيك، وأنا سأفعل ما اعتادت أن تفعله لي خادمتي في الهند. سأُربِّت على يدك وأدلكها وأغني لكَ أغنية بصوت خفيض للغاية.»

قال لها وهو يغالب النعاس: «ربما يُريحني هذا.»

كانت تشعر بالأسى تجاهه بشكل ما ولم تكن تريده أن يظلَّ مستيقظًا؛ لذا مالت نحو سريره وبدأت تدلك يده وتربت عليها وتُغنِّي له بصوت منخفِض للغاية أغنية قصيرة باللغة الهندية.

قال لها بنعاس بالغ: «هذا لطيف!» فواصلت الغناء والتدليك، لكنها حين نظرت إليه مرةً أخرى كانت رموشه السوداء تمدد على وجنتيه؛ إذ أغلق عينيه وسرعان ما غطَّ في نوم عميق. نهضت بهدوء، وأخذت شمعتها وتسلَّلت دون أن تُصدر صوتًا.

الفصل الرابع عشر

الأمير الصغير

حين أشرق الصباح كان المستنقع غارقًا وسط الضباب حتى أخفاه ولم يتوقف المطر. لم يكن من الممكن الخروج من المنزل اليوم. كانت مارثا مشغولة للغاية لدرجة لم تسمح لماري بالحديث معها، لكن بعد الظهيرة طلبت منها أن تأتي وتجلس معها في غرفة الأطفال. جاءت وأحضرت معها الجوارب التي تحيكُها طوال الوقت حين لا يكون لديها ما تفعله.

سألتها مارثا بمجرد جلوسهما معًا: «ما خطبكِ؟ يبدو أنكِ تريدين أن تقولي شيئًا.»

قالت ماري: «أجل. لقد عرفت مصدر صوت البكاء.»

أوقعت مارثا الجورب على ركبتيها ونظرت إليها بعينين مذعورتين.

صاحت قائلةً: «لا لم تفعلي! لا يُمكن!»

واصلت ماري حديثها قائلةً: «لقد سمعته في أثناء الليل، فنهضتُ من السرير وذهبتُ لأرى من أين يأتي. إنه كولن؛ لقد عثرتُ عليه.»

احمرَّ وجه مارثا، احمرَّ من الرعب.

قالت وهي شبه تبكي: «يا إلهي! آنسة ماري! ما كان يجب أن تفعلي هذا، ما كان يجب! إن هذا سيوقعني في مأزق. إنني لم أخبركِ بأي شيء عنه قط، ولكنكِ ستُوقعينني في مأزق. سأفقد وظيفتي وعندها ماذا ستفعل أمي!»

قالت ماري: «لا، لن تفقدي وظيفتك، فقد كان سعيدًا بذهابي إليه، وظللنا نتحدث كثيرًا، وقال إنه سعيد بمجيئي إليه.»

صاحت مارثا: «حقًّا؟ هل أنتِ متأكدة؟ أنتِ لا تعرفين كيف يكون حاله حين يثيره شيء. فهو فتًى كبير ولا يصحُّ أن يبكي مثل الأطفال، لكنه حين يَنفعل ويغضب، يصرخ بشدة لمجرد إخافتنا؛ فهو يعلم أن مهمتنا هي خدمته فقط.»

قالت ماري: «لم يكن ثائرًا على الإطلاق. لقد سألته إن كان يريدني أن أذهب، ولكنه جعلني أبقى معه. وظل يطرح عليَّ أسئلة وجلستُ أنا على كرسي القدمين الكبير وتحدثت إليه عن الهند وعن أبي الحنَّاء والحدائق. لم يشأ أن يتركني أذهب. وأراني صورة والدته، وقبل أن أذهب غنَّيتُ له أغنية حتى ينام.»

لهثت مارثا في ذهول واحتجَّت قائلةً: «لا يُمكنني تصديق هذا! فالأمر أشبه بدخولك إلى عرين الأسد. لو كان في حالته المعتادة، لدخل في واحدة من نوباته وأيقظ المنزل بأكمله؛ فهو لا يدع الغرباء ينظرون إليه.»

قالت ماري: «لقد تركني أنظر إليه، وكنتُ أنظر إليه طوال الوقت وهو ينظر إليَّ. لقد كنَّا نُحدِّق أحدنا في الآخر.»

صاحت مارثا في انفعال وقلق: «لا أعرف ماذا أفعل! فلو علمت السيدة ميدلوك بهذا، ستظن أني خالفت الأوامر وأخبرتكِ بأمره، وسأعود إلى أمي مطرودة من العمل.»

قالت لها ماري بحزم: «إنه لن يُخبر السيدة ميدلوك بأي شيء في الوقت الحالي. فقد اتَّفقنا على أن يظلَّ الأمر سرًّا بيننا في البداية، ويقول إن الجميع مجبر على فعل كل ما يريده ويرضيه.»

تنهَّدت مارثا وقالت وهي تمسح جبهتها بمئزرها: «أجل، هذه حقيقة فعلًا ... يا له من فتى سيئ!»

«إنه يقول إن السيدة ميدلوك مجبَرة على هذا، ويريدني أن آتي وأتحدث إليه كل يوم. وعليكِ أنتِ أن تخبريني بالوقت الذي يريدني فيه.»

قالت مارثا: «أنا! هكذا سأفقد وظيفتي ... سأفقدها بالتأكيد!»

قالت لها ماري مجادلة: «لا يُمكن أن يحدث هذا إذا فعلتِ ما يريده منكِ بالضبط؛ فالجميع مأمور بطاعته.»

صاحت مارثا وهي تحملق بعينيها: «هل تقصدين أن تقولي إنه كان لطيفًا معكِ!»

أجابتها ماري: «أظنه قد أحبَّني تقريبًا.»

قالت مارثا وقد توصَّلت إلى قرار وأخذت نفسًا عميقًا: «إذن لا بدَّ أنكِ قد سحرته!»

سألتها ماري: «هل تقصدين استخدام السحر؟ لقد سمعتُ عن السحر في الهند، لكني لا أعرف كيف أستخدمه. لقد ذهبتُ فقط إلى غرفته وفوجئتُ برؤيته فوقفتُ وحدَّقتُ فيه. بعدها استدار إليَّ وحدَّق فيَّ بدوره. في البداية ظنَّ أني شبح أو حلم وأنا أيضًا ظننتُ أنه ربما يكون كذلك. كان أمرًا غريبًا للغاية أن نجلس وحدنا هكذا في منتصف الليل ولا

أحد منا يعرف شيئًا عن الآخر. فبدأنا نطرح أسئلة على بعضنا، وحين سألته إن كان عليَّ أن أذهب، قال لي إنه ليس عليَّ هذا.»

قالت مارثا وهي تلهث: «إنها نهاية العالم!»

سألتها ماري: «ما خطبه؟»

ردت مارثا: «لا أحد يعلم يقينًا. لقد جُن جنون السيد كرافن حين وُلِد كولن، واعتقد الأطباء أنه لا بدَّ من وضعه في مصحَّة. كان هذا بسبب وفاة السيدة كرافن مثلما أخبرتكِ. لم يُلقِ ولو لنظرة واحدة على الرضيع؛ كان فقط يهذي ويقول إنه شخص أحدب آخر مثله ومن الأفضل له أن يموت.»

سألتها ماري: «هل كولن أحدب؟ لم يبدُ لي كذلكَّ.»

قالت لها مارثا: «ليس بعد، لكن حياته سارت في اتجاه خاطئ من البداية. فقد قالت أمي إن هذا المنزل كان به قدر كبير من المشكلات والغضب ما يجعل تنشئة أي طفل فيه تسير على نحو خاطئ. كانوا دومًا يخشون عليه من ضعف ظهره، ولذلك اعتنوا به طوال الوقت، فجعلوه يستلقي ولم يسمحوا له بالمشي. وفي إحدى المرات جعلوه يرتدي دعامة، لكنه تضايق للغاية وسقط مريضًا على الفور. بعدها جاء طبيب كبير لرؤيته وجعلهم ينزعوها عنه. وتحدث إلى الطبيب الآخر بأسلوب حادٍّ لكنه كان مهذبًا. فقال له إنه يتناول الكثير من الأدوية وإنهم يتركونه يفعل ما يريد.»

قالت ماري: «أعتقد أنه فتًى مدلَّل للغاية.»

قالت مارثا: «إنه أسوأ طفل رأيته على الإطلاق! لن أقول إنه لم يُعانِ من المرض كثيرًا. فقد أُصيب بنوبات من السعال والبرد كانت ستقضي عليه مرتين أو ثلاث. وأُصيب ذات مرة بحُمى روماتيزمية، ومرة أخرى بالتيفويد. لقد فزعت السيدة ميدلوك حينها كثيرًا. لقد فقد صوابه تمامًا وكانت تتحدث مع الممرضة وهي تعتقد أنه لا يعرف شيئًا، وقالت: «سيموت هذه المرة بالتأكيد، وهذا أفضل شيء له وللجميع.» ونظرت إليه فوجدته يُحدِّق فيها بعينيه الكبيرتين وهو في كامل وعيه. لم تعرف ماذا حدث، ولكنه كان يُحدِّق فيها فقط ويقول: «أعطيني قليلًا من الماء وتوقفي عن الكلام.»

سألتها ماري: «هل تعتقدين أنه سيموت؟»

«تقول أمي إنه لا يمكن لأي طفل لا يستنشق هواءً نقيًّا، ولا يفعل أي شيء عدا الاستلقاء على ظهره وقراءة الكتب المصورة وتناول الدواء أن يعيش. إنه ضعيف البنية ويكره عناء إخراجه من المنزل، ويُصاب بالبرد بسهولة ويقول إنه سيقتله.»

جلست ماري ونظرت إلى النار وقالت ببطء: «أتساءل إن كان سيَستفيد من الخروج إلى حديقة ومراقبة الأشياء وهي تنمو. فقد نفعني هذا.»

قالت مارثا: «كانت إحدى أسوأ النوبات التي أصيب بها حين اصطحبوه ذات مرة لمشاهدة الأزهار عند النافورة. فكان قد قرأ في إحدى الصحف عن إصابة الناس بشيء يُعرف باسم «حمى الورد»، فبدأ يعطس وقال إنه قد أصيب بها، وعندها مرَّ به بستاني جديد لم يكن يعلم القواعد ونظر إليه بفضول؛ فأصيب بانفعال شديد وقال إن البستاني نظر إليه لأنه سيُصبِح أحدب، وظل يبكي حتى أصيب بحُمى وظل مريضًا طوال الليل.»

قالت ماري: «إذا حدث وغضب مني في أي وقت، فلن أذهب لرؤيته مرةً أخرى.»

قالت مارثا: «إن أراد وجودك معه فسيكون له ما يريد؛ عليكِ معرفة هذا من البداية.»

بعد ذلك مباشرةً دق الجرس فجمعت الجوارب التي تغزلها، وقالت: «أعتقد أن الممرضة تريد مني البقاء معه لبعض الوقت. أتمنى أن يكون في مزاج جيد.»

خرجت من الغرفة لعشر دقائق ثم عادت والارتباك باديًا على وجهها.

قالت: «حسنًا، لقد سحرتِه! إنه يجلس على الأريكة ومعه كتبه المصورة، وأخبر الممرضة أن تذهب وتتركه حتى الساعة السادسة، أما أنا فعليَّ الانتظار في الغرفة المجاورة. وبمجرد خروج الممرضة استدعاني وقال لي: «أريد أن تأتي ماري لينوكس وتتحدث معي، وتذكَّري ألا تخبري أحدًا بهذا.» من الأفضل أن تذهبي بأسرع ما يمكن.»

كانت ماري مستعدةً للذهاب بسرعة. لم تكن ترغب في رؤية كولن بقدر رغبتها في رؤية ديكون، ولكنها أرادت أن تراه بشدة.»

حين دخلت إلى غرفته رأت نارًا مشتعلة برَّاقة في المدفأة، وفي ضوء النهار رأت أنها غرفة جميلة بالفعل. فكانت ألوان السجاد والمُعلَّقات والصور والكتب الموجودة على الجدران كلها زاهية، ما جعلها تبدو متوهجةً ومريحةً للأعصاب على الرغم من السماء الرمادية والمطر المنهمر. وبدا كولن نفسه كأنه صورة؛ فقد كان مدَّثرًا في رداء نوم مخملي وجلس أمام وسادة كبيرة مطرَّزة. وعلى كلتا وجنتيه ظهرت بقعة حمراء.

قال لها: «ادخلي. لقد ظللتُ أفكر فيكِ طوال الصباح.»

ردت ماري: «وأنا أيضًا كنتُ أفكر فيك. أنت لا تعرف كم تشعر مارثا بالخوف. إنها تقول إن السيدة ميدلوك ستظن أنها هي من أخبرتني بشأنك، وعندها ستجعلها تغادر المنزل.»

عبس كولن، وقال لها: «اذهبي وأخبريها بأن تأتي إلى هنا. إنها في الغرفة المجاورة.»

ذهبت ماري وأحضرتها، وكانت المسكينة مارثا تَرتعد بشدة، وكان كولن لا يزال عابس الوجه.

سألها: «ألا يُفترض بكِ أن تفعلي ما يُرضيني أم لا؟»

تلعثمت مارثا واحمرَّ وجهها بشدة وقالت: «عليَّ أن أفعل كل ما يُرضيك يا سيدي.»

«وألا يُفترض بميدلوك فعل ما يرضيني؟»

قالت مارثا: «على الجميع أن يفعل هذا يا سيدي.»

«حسنًا، إذن، إذا أمرتكِ أن تُحضري لي الآنسة ماري، كيف يُمكن لميدلوك أن تطردك من المنزل إذا عرفت بذلك؟»

رجته مارثا قائلة: «من فضلك لا تجعلها تعرف يا سيدي.»

قال السيد كرافن بغرور: «سأطردها إذا جرؤت على النطق بكلمة واحدة في هذا الشأن؛ وهي لن تحبَّ هذا، أنا متأكد من ذلك.»

انحنَت في أدب وقالت: «أشكرك يا سيدي. أنا أريد أن أؤدي عملي فقط يا سيدي.»

قال كولن بمزيد من الغرور: «وأنا أريد منكِ أن تؤدي عملك. سأعتني بكِ، والآن اذهبي.»

حين أُغلق الباب خلف مارثا، وجد كولن الآنسة ماري تُحدِّق فيه كما لو كان أثار حيرتها.

سألها: «لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟ فيمَ تفكرين؟»

«أفكر في شيئين.»

«ما هما؟ اجلسي وأخبريني.»

قالت ماري وهي تجلس على مسند القدمين الكبير: «إليك أول شيء. حين كنتُ في الهند، رأيتُ ذات مرة طفلًا وكان أميرًا هنديًّا صغيرًا. كان جسده كله مغطًّى بالياقوت والزمرد والألماس، وكان يتحدث إلى شعبه تمامًا مثلما تحدَّثتَ أنت إلى مارثا. وكان على الجميع فعل كل ما يأمرهم به في لحظة، وأعتقد أنهم كانوا يُقتلون إن لم يفعلوا.»

قال لها: «سأجعلك تحكين لي كل ما تعرفينه عن الأمراء الهنود الصغار الآن، لكن أخبريني أولًا بالشيء الثاني.»

قالت ماري: «كنتُ أفكر في مدى اختلافك عن ديكون.»

قال: «مَن ديكون؟ يا له من اسم غريب!»

لم تجد مفرًّا من أن تخبره، وكانت تعتقد أنها تستطيع الحديث عن ديكون دون ذكر الحديقة السرية. فقد كانت تحبُّ الاستماع إلى مارثا وهي تتحدث عنه. كما أنها كانت تشتاق للحديث عنه؛ فيبدو أن هذا كان يجعلها تشعر بقربه منها.

قالت ماري موضحة: «إنه شقيق مارثا، ويبلغ من العمر اثني عشر عامًا. إنه ليس له مثيل في العالم كله؛ فهو يستطيع أن يُروِّض الثعالب والسناجب والطيور تمامًا كما يروِّض سكان الهند المحليون الأفاعي. فهو يعزف لحنًا عذبًا للغاية على مزمار فتأتي كل هذه المخلوقات لتستمع له.»

كانت ثمَّة بعض الكتب الكبيرة على طاولة بجواره، فسحب واحدًا منها فجأة نحوه، وقال: «توجد صورة لشخص يُروِّض الأفاعي في هذا الكتاب، تعالي وانظري.»

كان الكتاب جميلًا يحوي صورًا توضيحيةً ملونةً بديعةً، وأشار إلى واحدة منها.

سألها بشغف: «هل يُمكنه فعل هذا؟»

أوضحت له ماري الأمر قائلة: «إنه يعزف على مزماره والحيوانات تستمع إليه، لكنه لا يسمي هذا ترويضًا. إنه يقول إنه يستطيع فعل هذا لأنه يعيش في المستنقع منذ زمن طويل ويعرف طرائقها. ويقول إنه يشعر أحيانًا كما لو كان هو نفسه طائرًا أو أرنبًا؛ فهو يحب هذه المخلوقات كثيرًا. أعتقد أنه يطرح الأسئلة على أبي الحنَّاء؛ فقد كانا يبدوان كما لو كانا يتحدَّثان معًا بتغريدات لطيفة.»

اتكأ كولن على وسادته واتَّسعت عيناه أكثر وأكثر، وازدادت البقع الحمراء على وجنتيه احمرارًا.

قال لها: «أخبريني بالمزيد عنه.»

واصلت ماري حديثها قائلةً: «إنه يعرف كل شيء عن البيض والأعشاش، ويعرف أين تعيش الثعالب وحيوانات الغرير وثعالب الماء، ويُبقي هذه الأماكن سرًّا حتى لا يعرف الصبية الآخرون أماكن جحورها ويُخيفونها. إنه يعرف كل شيء ينمو في المستنقع أو يعيش فيه.»

قال كولن: «هل يحب المستنقع؟ كيف يُمكنه ذلك وما هو إلا مكان شاسع أجدب وموحش؟»

اعترضت ماري على كلامه قائلة: «إنه أجمل مكان على الإطلاق. ففيه تنمو آلاف الأشياء الرائعة، وتوجد به آلاف المخلوقات الصغيرة المنشغلة طوال الوقت ببناء أعشاشها وصنع جحورها وأوكارها وهي تغرِّد أو تغني أو تُصدر صريرًا بعضها لبعض. إن لديها

الكثير من الأعباء التي تشغلها، وتستمتع بوقتها تحت الأرض أو على الأشجار أو على نباتات الخلنج. فهذا هو عالمها.»

قال كولن وهو يدير ساعده لينظر إليها: «كيف تعرفين كل هذا؟»

قالت ماري وقد تذكَّرت فجأة: «إنني لم أذهب إلى هناك فعليًّا ولا مرة، فلم أره إلا حين مررْنا عليه بالعربة في الظلام. لقد ظننت أنه مكان بشع. في البداية أخبرتني مارثا عنه، ثم ديكون. وحين يتحدث ديكون عنه، تشعر كما لو أنك ترى هذه الأشياء وتسمعها، وكما لو كنتَ واقفًا بين نباتات الخلنج وأشعة الشمس الساطعة ونبات الجولق الذي يشبه العسل في رائحته، والمكان كله مليء بالنحل والفراشات.»

قال كولن مُتململًا: «لا يرى المرء أي شيء حين يكون مريضًا.» كان يبدو كشخص يستمع إلى صوت جديد قادم من بعيد ويتساءل عن ماهيته.

قالت ماري: «بالطبع لا تستطيع إن بقيتَ في غرفتك.»

قال بنبرة مُمتعضة: «لا يمكنني الذهاب إلى المستنقع.»

صمتت ماري للحظة ثم قالت شيئًا جريئًا.

«يمكنكَ، في وقتٍ ما.»

تحرك كما لو أنه قد تفاجأ.

«أذهب إلى المستنقع! كيف يُمكنني ذلك؟ قد أموت.»

قالت ماري دون أي تعاطف: «كيف تعرف هذا؟» لم تكن تحب طريقته في الحديث عن الموت. لم تكن تشعر بتعاطف كبير تجاهه، بل شعرت كما لو أنه يتباهى بهذا.

أجابها في غضب: «حسنًا، أنا أسمع هذا منذ وعيت على هذه الحياة؛ فهم دائمًا ما يتهامسون به ويعتقدون أني لا ألاحظهم؛ بل يتمنَّون حدوثه أيضًا.»

شعرت الآنسة ماري بالضيق كثيرًا، وزمَّت شفتيها، وقالت: «لو كان الجميع يتمنَّى موتي، فلن أموت. مَن الذي يتمنَّى موتك؟»

«الخدم، والطبيب كرافن بالطبع؛ لأنه سيحصل على ميسلثويت ويصبح غنيًّا بدلًا مما هو فيه من فقر. بالطبع هو لا يجرؤ على قول هذا، لكنه يبدو دومًا سعيدًا حين تسوء حالتي. فحين أصبتُ بالتيفويد بدا وجهه ممتلئًا. وأعتقد أن والدي يريد هذا أيضًا.»

قالت ماري بعناد: «لا أعتقد أنه يريد هذا.»

جعلته كلمتها تلك يستدير وينظر إليها مرةً أخرى.

قال: «أحقًّا لا تعتقدين هذا؟»

ثم عاد يتَّكئ على وسادته وظل ساكنًا، كما لو كان يفكر. وساد صمت طويل بعض الشيء. ربما كان الاثنان يفكران في أشياء غريبة لا يفكر فيها الأطفال عادةً. وأخيرًا قطعت ماري الصمت قائلة: «أنا أحب الطبيب الكبير الذي جاء من لندن؛ لأنه جعلهم ينزعون عنك هذه القطعة الحديدية. هل قال إنك ستموت؟»

«كلا.»

«ماذا قال إذن؟»

أجاب كولن: «لم يهمس مثل الآخرين. ربما كان يعرف أني أكره الهمس. سمعته يقول شيئًا واحدًا بصوت عالٍ. قال: «ربما يعيش الفتى إذا اتَّخذ قرارًا بذلك. اجعلوه يعيش في جو من المرح.» وبدا كما لو كان منفعلًا.»

قالت ماري وهي تفكر: «سأُخبرك من يمكنه أن يجعلك تعيش في جو من المرح.» فقد شعرت بأنها تريد حسم هذا الأمر بشكل أو بآخر. «أعتقد أنه ديكون؛ فهو يتحدَّث طوال الوقت عن أشياء على قيد الحياة. لا تسمعه أبدًا يتحدث عن أشياء ميتة أو مريضة. إنه ينظر طوال الوقت إلى السماء ويراقب الطيور وهي تطير، أو ينظر إلى الأسفل نحو الأرض ليرى شيئًا ينمو. إن له عينين مستديرتين زرقاوين وتتسعان عن آخرهما حين ينظر إلى الأشياء من حوله. ويضحك ضحكة كبيرة بفمه العريض، ووجنتاه حمراوان تمامًا مثل التوت البري.» واقتربت بكرسيها من الأريكة وتغيرت تعابير وجهها تمامًا حين تذكرت هذا الفم الواسع المقوس وتلك العينين الواسعتين.

قالت: «اسمع، دعنا لا نتحدث عن الموت، فأنا لا أحبه. دعنا نتحدث عن الحياة، دعنا نتحدث عن ديكون، ثم بعدها سنرى ما لديك من صور.»

كان هذا أفضل ما يمكن أن تقوله. فقد كان الحديث عن ديكون يعني الحديث عن المستنقع، والكوخ والأربعة عشر شخصًا الذين يعيشون على ستة عشر شلنًا في الأسبوع، وعن الأطفال الذين ازداد وزنهم على أعشاب المستنقَع مثل المهور البرية. وعن والدة ديكون، وعن حبل القفز، وعن المستنقع حين تُلقي الشمس الساطعة بأشعتها عليه، وعن النتوءات الخضراء الباهتة البارزة من التربة السوداء. كان كل هذا مفعمًا بالحياة لدرجة جعلت ماري تتحدَّث أكثر من أي وقت سابق، أما كولن فكان يتحدث ويستمع على نحوٍ لم يعهده من قبل. وبدأ الاثنان يَضحكان على لا شيء كما يفعل الأطفال حين يكونون سعداء معًا. وظلَّا يضحكان حتى أحدثا في النهاية ضجة تمامًا كأي طفلين عاديَّين أصحاء في العاشرة من عمرهما، لا طفلة صغيرة حادة الطباع لا يُحبها أحد وفتى مريض يعتقد أنه سيموت قريبًا.

استمتعا بوقتهما كثيرًا حتى إنهما نسيا الصور ونسيا الوقت. وظلا يضحكان بصوت مرتفع على بِن ويذرستاف وأبي الحنَّاء، وكان كولن يجلس منتصبًا كما لو أنه نسيَ أمر ظهره الضعيف، حين تذكر شيئًا فجأة. قال: «أتعرفين، يوجد شيء واحد لم نفكر فيه من قبل، نحن أقارب.»

بدا غريبًا للغاية أنهما ظلا يتحدَّثان كثيرًا هكذا دون أن يتذكرا قط هذا الشيء البسيط، ما جعلهما يضحكان أكثر من ذي قبل؛ فقد كانا في حالة من المرح جعلتهما يضحكان على أي شيء. وفي وسط هذا المرح فُتح الباب ودخل الطبيب كرافن والسيدة ميدلوك.

انتفض الدكتور كرافن في انزعاج فعلي، وكادت السيدة ميدلوك تسقط على ظهرها بسبب ارتطامه بها دون قصد.

صاحت السيدة ميدلوك المسكينة وعيناها تكاد تخرجان من رأسها: «يا إلهي! يا إلهي!»

أما الدكتور كرافن، فقد قال وهو يتقدم إلى الأمام: «ما هذا؟ ما معنى هذا؟»

حينها تذكَّرت ماري الأمير الهندي الصغير مرةً أخرى.

أجاب كولن كما لو أن ذعر الدكتور كرافن ورعب السيدة ميدلوك لم يُخلِّفا أي أثر عليه. فقط انتابه شيء من الانزعاج أو الخوف كما لو أن قطة وكلبًا كبيرين قد دخلا عليه الغرفة.

قال لهما: «هذه ابنة خالي ماري لينوكس. لقد طلبتُ منها أن تأتي وتتحدث معي؛ فأنا أحبها. لا بد لها أن تأتي وتتحدث معي في أي وقت أرسل في طلبها.»

التفت الدكتور كرافن إلى السيدة ميدلوك معاتبًا لها، فقالت وهي تلتقط أنفاسها: «سيدي، أنا لا أعرف كيف حدث هذا. فلا يجرؤ أحد من الخدم على التفوه بكلمة، فجميعهم لديهم تعليمات.»

قال كولن: «لم يخبرها أحد بأي شيء. لقد سمعت صوت بكائي وعثرت عليَّ بنفسها، وأنا سعيد بمجيئها. لا تكوني سخيفة يا ميدلوك.»

رأت ماري أن الدكتور كرافن لم تبدُ عليه السعادة، ولكن كان واضحًا تمامًا أنه لا يجرؤ على معارضة مريضِه. فجلس بجوار كولن وتحسس نبضه.

قال له: «أخشى أنك قد تعرضت لانفعال أكثر من اللازم، والانفعال خطر عليك يا صغيري.»

رد عليه كولن وقد بدأت عيناه تلمعان على نحو خطير: «سأنفعل إذا ابتعدت ماري عني؛ فأنا أشعر بتحسن. إنها تجعلني أشعر بتحسن. لا بد أن تُحضِر الممرضة لها الشاي لتتناوله معي. سنتناول الشاي معًا.»

نظرت السيدة ميدلوك والدكتور كرافن إلى أحدهما إلى الآخر في انزعاج، لكن كان واضحًا أنه ليس بيدهما شيء.

تجرأت السيدة ميدلوك وقالت: «إنه بالفعل يبدو أحسن حالًا يا سيدي، لكنه ...» وفكرت قليلًا في الأمر ثم أردفت: «كان يبدو بحال أفضل أيضًا هذا الصباح قبل أن تأتي هي لغرفته.»

قال كولن: «لقد جاءت إلى غرفتي الليلة الماضية، وبقيت معي وقتًا طويلًا، وغنت لي أغنية هندية جعلتني أخلد إلى النوم. كنتُ أفضل حالًا حين استيقظتُ في الصباح؛ فقد كانت لدي شهية لتناول الإفطار، وأريد تناول الشاي الآن. أخبري الممرضة بهذا يا ميدلوك.»

لم يبقَ الدكتور كرافن طويلًا. فقد تحدث إلى الممرضة لبضع دقائق حين جاءت إلى الغرفة ووجه بضع كلمات تحذير لكولن. عليه ألا يتحدث كثيرًا، وعليه ألا ينسى أنه مريض، وألا ينسى أنه يصاب بالتعب بسهولة. رأت ماري أن ثمَّة عددًا كبيرًا من الأشياء المزعجة عليه أن يتذكرها.

بدا العبوس على كولن وظلت عيناه الغريبتان برموشهما السوداء مثبتتين على وجه الدكتور كرافن.

قال أخيرًا: «أنا أريد أن أنسى هذا. وهي تجعلني أنساه؛ ولهذا أريد رفقتها.»

لم يبدُ الدكتور كرافن سعيدًا حين غادر الغرفة؛ فألقى نظرة مرتبكة على الفتاة الصغيرة التي تجلس على كرسي القدمين الكبير. فقد تحوَّلت إلى طفلة جامدة وصامتة مرةً أخرى بمجرد أن دخل إلى الغرفة، ولم يَستطع رؤية أي سبب لانجذاب الفتى إليها. مع ذلك، فقد بدا الفتى أكثر إشراقًا، وتنهَّد الطبيب بتثاقل وهو يسير عبر الرواق.

قال كولن حين أحضرت الممرضة الشاي إلى الغرفة ووضعته على الطاولة بجوار الأريكة: «إنهم دومًا يريدون مني تناول الطعام في الوقت الذي لا أريد فيه هذا. أما الآن، إن كنت ستأكلين، سآكُل أنا أيضًا. إن هذه الفطائر تبدو شهية وساخنة؛ هيا أخبريني عن الأمراء الهنود الصغار.»

الفصل الخامس عشر

بناء العُش

بعد أسبوع آخر من الأمطار، ظهرت السماء الزرقاء الساطعة مرةً أخرى وألقت الشمس بأشعتها الساخنة على الأرض. وعلى الرغم من عدم سنوح أي فرصة للآنسة ماري لرؤية الحديقة السرية ولا ديكون، فقد استمتعت بوقتها كثيرًا، ولم يبدُ هذا الأسبوع طويلًا للغاية. فقد كانت تقضي ساعات طويلة كل يوم مع كولن في غرفته، يتحدثان عن الأمراء الهنود الصغار، أو الحدائق، أو ديكون وكوخه الموجود في المستنقع. وتصفَّحا كذلك الكتب الرائعة والصور، وأحيانًا كانت ماري تقرأ بعض الأشياء لكولن، وأحيانًا كان يقرأ لها قليلًا. وحين كان يشعر بالسعادة والاهتمام، كانت ماري تشعر بأنه لا يبدو مريضًا على الإطلاق، باستثناء وجهه الذي كان باهتًا تمامًا ورقوده الدائم على الأريكة.

قالت لها السيدة ميدلوك لها ذات مرة: «يا لكِ من طفلة ماكرة خبيثة حتى تستمعين للأشياء وتنهضي من سريرك للذهاب والبحث عن مصدرها كما حدث في تلك الليلة. لكن لا جدال في أن هذا كان نعمة لكثير منا. فلم يصب بنوبة غضب أو نحيب منذ أن أصبحتِ صديقته. لقد كانت الممرضة على وشك التخلِّي عنه؛ لأنها سَئِمَت منه تمامًا، لكنها تقول إنها لا تمانع أن تبقى معه الآن بعدما أصبحتِ تتناوبين معها عليه» وضحكت قليلًا.

حاولت ماري في حديثها مع كولن أن تلتزم الحذر الشديد بشأن الحديقة السرية. كانت ثمة أشياء محددة أرادت معرفتها منه، لكنها شعرت بأنها لا بد أن تعرفها دون توجيه أسئلة مباشرة له. أولًا حين بدأت تحبُّ قضاء الوقت معه، أرادت معرفة إذا كان من النوع الذي يمكن للمرء أن يأتمنه على سر. لقد كان مختلفًا تمامًا عن ديكون، لكن من الواضح أنه كان سعيدًا للغاية بفكرة وجود حديقة سرية لا يعرف أحد عنها أي شيء، وظنت أنها ربما تستطيع الوثوق فيه. غير أنها لم تكن تعرفه منذ وقت طويل يكفي لكي يجعلها تتأكد من هذا. الأمر الثاني الذي أرادت معرفته أنه إذا كان من الممكن حقًّا

ائتمانه على السر، ألن يكون من الممكن أن تصطحبه معها إلى الحديقة دون علم أحد؟ لقد قال الطبيب الكبير إنه لا بد له من الحصول على هواء نقي، وكولن نفسه قال إنه لا مانع لديه من الحصول على هواء نقي في حديقة سرية. فربما إن حصل على قدر كبير من الهواء النقي، وتعرف على ديكون وأبي الحنَّاء ورأى الأشياء وهي تنمو، قد لا يفكر كثيرًا في الموت. كانت ماري مؤخرًا تنظر إلى نفسها في المرآة في بعض الأحيان حين أدركت أنها بدت مخلوقًا مختلفًا تمامًا عن الطفلة التي كانت تراها حين وصلت من الهند. فهذه الطفلة بدت ألطف، وحتى مارثا لاحظت تغييرًا فيها.

قالت لها: «إن هواء المستنقع قد نفعكِ كثيرًا، فلم يعد لونك أصفر ولا هزيلة كما كنتِ. حتى شعركِ لم يعد مرتخيًا وهامدًا على رأسك كما كان، بل أصبح به قدر من الحيوية بعض الشيء وصار يتطاير قليلًا.»

قالت ماري: «إنه مثلي. إنه يزداد قوة وكثافة. وأنا واثقة أنه قد صار أثقل.»

قالت مارثا وهي تصففه إلى أعلى قليلًا حول وجهها: «يبدو كذلك بالتأكيد. فلم تعودي قبيحة الشكل مثلما كان حالك حين أتيتِ إلى هنا، ودبت بعض الحمرة في وجنتيكِ.»

إن كان ارتياد الحدائق واستنشاق الهواء النقي مفيدَين لها، فربما سيفيدان كولن أيضًا. لكن إذا كان يكره أن ينظر الناس إليه، فربما لن يحب رؤية ديكون.

سألته ذات يوم: «لماذا تغضب حين ينظر إليك الناس؟»

أجابها قائلًا: «لطالما كرهتُ هذا، حتى حين كنتُ صغيرًا للغاية. فحين كانوا يأخذونني إلى شاطئ البحر، اعتدتُ أن أستلقي في عربتي وكان الجميع يُحدِّق فيَّ والسيدات يتوقفن ويتحدثن مع ممرضتي ثم يبدأن في الهمس، وكنت أعلم وقتها أنهم يقولون إني لن أعيش إلى سن متقدمة. وقتها كانت السيدات أحيانًا ما يُمسدن على وجنتي ويقلن «يا له من طفل مسكين!» وفي إحدى المرات حين فعلت إحدى السيدات هذا، صرختُ بصوت عالٍ وعضضتُ يدها، فتملَّكها خوف شديد وهربت.»

قالت ماري، وهي يبدو عليها الضيق: «لقد ظنَّت أنك صرت ككلب مسعور.»

قال كولن عابسًا: «لا أهتم بما ظنته بي.»

قالت ماري: «أتساءل لماذا لم تصرخ وتعضَّني حين جئتُ إلى غرفتك؟» ثم بدأت تبتسم ببطء.

قال لها: «لقد ظننتُكِ شبحًا أو حلمًا، وبالطبع لا يمكنني عض شبح أو حلم، وإذا صرخت، فلن يهتموا بصراخي.»

سألته ماري بتردد: «هل ستتضايق إذا ... إذا نظر إليك فتًى صغير؟»

اضطجع على وسادته وتوقف عن الكلام مفكرًا.

قال لها ببطء شديد كما لو أنه يفكر في كل كلمة يقولها: «يوجد فتًى واحد فقط، فتى واحد فقط أعتقد أني لن أمانع إذا نظر إليَّ. إنه ذلك الفتى الذي يعرف أين تعيش الثعالب ... ديكون.»

قالت ماري: «أنا متأكدة من أنك لن تتضايق منه.»

قال وهو ما زال يفكر في الأمر: «إن الطيور والحيوانات الأخرى لا تتضايق منه، ولذلك ربما لن يضايقني وجوده. إنه مثل مروض للحيوانات وأنا حيوان بشري.»

عندها ضحك وضحكت هي أيضًا، بل إن هذا الحوار انتهى بأن ظل كلاهما يضحك كثيرًا، ووجدا فكرة وجود حيوان بشري يختبئ في جحره مضحكة للغاية فعلًا.

شعرت ماري بعد ذلك بأن ليس هناك ما يدعو للخوف على ديكون.

في ذلك الصباح الذي عادت فيه السماء زرقاء مرةً أخرى، استيقظت ماري مبكرًا للغاية. كانت الشمس تخترق الستائر بأشعاتها المائلة، وكانت في رؤيتها شيئًا يبعث على البهجة، ما جعلها تقفز من سريرها وتركض نحو النافذة. رفعت الستائر وفتحت النافذة نفسها فهبَّت عليها نفحة هائلة من الهواء النقي العطر. كان المستنقع أزرق اللون، وبدا العالم بأكمله كما لو أن سحرًا قد مسه. وجاءت أصوات عذبة رقيقة كصوت الفلوت من هنا وهناك ومن كل مكان، كما لو أن أسرابًا من الطيور تبدأ في الاستعداد لحفل موسيقي. أخرجت ماري يدها من النافذة ومدتها تحت أشعة الشمس.

قالت: «إنها دافئة ... دافئة! ستجعل النتوءات الخضراء تشق طريقها أكثر وأكثر نحو الأرض، وستجعل البصيلات والجذور تنمو وتجاهد بكل قوتها تحت سطح الأرض.»

جثت على ركبتيها وخرجت بجسدها من النافذة إلى أبعد ما يمكنها، وأخذت عدة أنفاس عميقة وطويلة، وظلت تستنشق الهواء حتى ضحكت؛ لأنها تذكرت ما قالته والدة ديكون بشأن طرف أنفه الذي يرتعش مثل أنف الأرنب. قالت: «لا بد أن الوقت مبكرًا للغاية؛ فالسحب الصغيرة جميعها وردية اللون، وأنا لم أرَ السماء هكذا من قبل أبدًا. لم يستيقظ أحد بعد. لا أسمع حتى أصوات الفتيان العاملين في الإسطبل.»

خطرت لها فكرة مفاجئة جعلتها تنهض سريعًا.

«لا يمكنني الانتظار! سأذهب لرؤية الحديقة!»

كانت في ذلك الوقت قد تعلمت أن ترتدي ملابسها وحدها، فارتدت ملابسها في خمس دقائق. وكانت تعرف بابًا صغيرًا جانبيًّا استطاعت فتح قفله بنفسها، وركضت إلى

أسفل بجواربها وارتدت حذائها في البهو. فتحت سلسلة قفل الباب ثم القفل وحين فُتح الباب، قفزت فوق درجة السلم قفزة واحدة فوجدت نفسها تقف على الحشائش، التي بدا لونها وقد تحول إلى الأخضر، والشمس تغمرها بأشعتها والنسمات العليلة الدافئة تهب عليها، وأصوات التغريد والغناء تصدر من كل شجيرة وشجرة. شبكت يديها معًا من شدة السعادة، ونظرت نحو السماء فرأت ألوانها تتباين ما بين الأزرق والوردي والأبيض وتفيض بنور الربيع المشرق، حتى إنها شعرت أنها لا بد أن تغرد وتغني بصوت عالٍ وكانت تعلم أن طيور السمنة وأبا الحنَّاء والقبرة ربما لا تستطيع تمالك أنفسها أمام هذا المشهد. وأخذت تركض حول الشجيرات والممرات متَّجهة نحو الحديقة السرية.

قالت: «لقد اختلف كل شيء بالفعل؛ فالحشائش صارت أكثر اخضرارًا، والأشياء تنبت من كل مكان، والتشابكات بين النباتات تزول، وبراعم الأوراق الخضراء تظهر. أنا متأكدة من أن ديكون سيأتي بعد الظهيرة.»

كان للأمطار الدافئة الطويلة تأثيرًا غريبًا على الأحواض العشبية التي كانت تحيط بالممشى الكائن بجوار السور المنخفِض. فقد بدأت البراعم تنبت وتخرج من جذور أجمات النباتات، وكان هناك بالفعل لمحات من لون بنفسجي وأصفر زاهٍ بين سيقان نبات الزعفران بادية للعيان هنا وهناك. قبل ستة أشهر، لم تكن الآنسة ماري ترى العالم وهو يَستيقظ من سباته، لكن الآن لا يفوتها شيء من هذا.

حين وصلت إلى مخبأ الباب تحت أفرع اللبلاب، أفزعها صوت غريب مُرتفِع. كان نعيق غراب وكان قادمًا من أعلى السور، وحين نظرت إلى أعلى رأت طائرًا كبيرًا لونه أسود ضارب إلى الأزرق وله ريش لامع جالس وينظر نحوها بنظرة كلها حكمة وتروٍّ. لم تكن قد رأت غرابًا من قبل من هذه المسافة القريبة، ما جعلها تتوتَّر قليلًا، لكنه في اللحظة التالية فرد جناحيه وطار بعيدًا عبر الحديقة. كانت تأمل ألا يبقى بالداخل، ودفعت الباب وهي تتساءل ما إذا كان سيبقي أم لا. حين أصبحت داخل الحديقة إلى حدٍّ كبير، رأت أنه ربما ينوي البقاء؛ إذ حطَّ على شجرة تفاح متقزِّمة، يستلقي أسفلها حيوان أحمر اللون ذو ذيل كثيف، وكان كلاهما يراقب جسد ديكون المنحني برأسه الأحمر الصدئ، وهو جاثم على ركبتيه على الحشائش ويعمل بجدٍّ شديد.

طارت ماري عبر الحشائش نحوه.

صاحت بصوت عالٍ: «أوه! ديكون! ديكون! كيف استطعت الاستيقاظ مبكرًا هكذا؟! كيف استطعت هذا؟! لقد أشرقت الشمس للتوِّ!»

نهض من مكانه وهو يضحك ووجهه متورِّد وشعره أشعث، وعيناه بلون السماء.

قال: «حسنًا! لقد نهضت قبل شروق الشمس بوقت طويل. فكيف أستطيع البقاء في السرير وقد استيقظ العالم كله من سُباته في هذا الصباح، ويعجُّ بالعمل والطنين وأصوات الصرير وأنغام المزمار وبناء الأعشاش، وتنبعث منه الروائح العطرة، ما يجبرك على الخروج إلى العالم بدلًا من الاستلقاء في الفراش. فحين أطلَّت الشمس، أشرق المستنقع بالبهجة، وكنتُ وسط نبات الخلنج فأخذت أركض كالمجنون وأنا أصيح وأغني، وأتيتُ مباشرةً إلى هنا. لم أستطع الابتعاد عن الحديقة؛ فقد كانت في انتظاري!»

وضعت ماري يدها على صدرها وهي تلهث كما لو أنها كانت تجري هي الأخرى.

قالت: «أوه، ديكون! ديكون! أنا سعيدة للغاية، حتى إنني بالكاد أستطيع التنفس.»

حين رآه الحيوان الصغير ذو الذيل الكثيف يتحدث إلى شخص غريب، نهض من موضعه تحت الشجرة وأقبل نحوه، والغراب، الذي نعق مرة واحدة، طار إلى الأسفل من على فرعه واستقر بهدوء على كتف الفتى.

قال ديكون وهو يحكُّ رأس الحيوان الصغير الأحمر: «هذا هو جرو الثعلب الصغير، واسمه كابتن، وهذا سوت. إن سوت يطير معي عبر المستنقَع، أما كابتن فيركض كما لو أن كلاب الصيد تطارده. وكلاهما انتابه الشعور نفسه الذي انتابني اليوم.»

لم يبدُ على أيٍّ من الكائنين الخوف من ماري على الإطلاق، وحين بدأ ديكون في التجوُّل عبر المكان، ظلَّ سوت واقفًا على كتفه، بينما هرول كابتن بهدوء ليقف بالقرب من جانبه.

قال ديكون: «انظري هنا! انظري كيف خرجت هذه من الأرض، وهذه أيضًا وهذه! يا إلهي، انظري إلى هذه هنا!»

ألقى بنفسه على ركبتيه وجثت ماري أيضًا بجواره. فقد عثرا على أجمة كاملة من أزهار الزعفران التي تفتحت باللون الأرجواني والبرتقالي والذهبي. مالت ماري بوجهها مقتربة منها وأخذت تُقبِّلها.

قالت حين رفعت رأسها: «لا يُقبِّل المرء أي شخص على هذا النحو أبدًا، لكن الأزهار مختلفة تمامًا.»

بدت عليه الحيرة لكنه ابتسم.

قال: «حسنًا! أما أنا فقد قبَّلت أمي العديد من المرات بهذه الطريقة حين أعود إلى المنزل من المستنقع بعد يوم طويل من التجوُّل، وأجدها تقف عند الباب في الشمس وتبدو عليها السعادة والارتياح لرؤيتي.» أخذا يركضان من جزء لآخر في الحديقة، وعثرا على

الكثير من الأشياء المذهلة لدرجة أنهما كان لا بدَّ عليهما تذكير أنفسهما طوال الوقت بضرورة التزام الهمس أو التحدث بصوت منخفض. أراها براعم أوراق منتفخة على فروع أشجار الورد التي بدت ميتة من قبل. وأراها أيضًا عشرات الآلاف من النتوءات الخضراء الجديدة تشق طريقها نحو السطح. اقتربا بأنفيهما الصغيرين المتلهِّفين من الأرض، وأخذا يشمان رائحة الربيع الدافئ المنبعثة منها، وفي الأثناء واصَلا الحفر وانتزاع الأعشاب الضارة والضحك ببهجة بصوت منخفض حتى صار شعر الآنسة ماري أشعث مثل شعر ديكون، وصارت وجنتاها بنفس حمرة وجنتيه الوردية تقريبًا.

كانت البهجة منتشرة في كل مكان على أرض الحديقة السرية في صباح ذلك اليوم، وفي وسط هذه البهجة جاء شيء أكثر بهجة من كل ذلك؛ لأنه كان أكثر روعة. فقد طار شيء ما بسرعة عبر السور واخترق الأشجار سريعًا متجهًا نحو ركن قريب نما حديثًا، مُصدرًا وهجًا صغيرًا لطائر أحمر الصدر يتدلَّى من منقاره شيء ما. وقف ديكون دون أن يُحرِّك ساكنًا ووضع يده على ماري كما لو كانا وجدا نفسيهما فجأة يضحكان داخل كنيسة.

همس لها بلهجة يوركشاير الصريحة: «علينا ألا نتحرَّك. علينا ألا نتنفس. كنتُ أعلم أنه يبحث عن رفيقة حين رأيته آخر مرة. إنه أبو الحنَّاء الخاص رفيق بِن ويذرستاف. إنه يبني عُشه، وسيبقى هنا إن لم نعارض وجوده.» واستقرا في هدوء على الحشائش وجلسا هناك دون حركة.

قال ديكون: «لا بدَّ ألا يبدو علينا أننا نراقبه عن كثب. فربما يغادرنا بلا رجعة إذا اعتقد أننا نتدخل في شئونه الآن. فهو يكون مختلفًا بعض الشيء حتى انتهاء هذا الأمر. إنه يؤسِّس بيته. كذلك سيكون أكثر خجلًا وأكثر استعدادًا لأخذ الأشياء على محمل خاطئ. ولم يعد لديه وقت للزيارات والثرثرة. فعلينا التزام السكون لبعض الوقت ومحاولة التظاهر بأننا أعشاب وأشجار وشجيرات. ثم بعد أن يعتاد رؤيتنا سأغرِّد له قليلًا وسيعلم حينها أننا لن نعترض طريقه.»

لم تكن الآنسة ماري واثقة تمامًا من أنها تعرف، مثلما بدا ديكون يعرف، كيف تحاول أن تبدو مثل الأعشاب والأشجار والشجيرات. غير أنه عبَّر عن هذا الشيء الغريب كما لو أنه أبسط شيء وأكثر شيء طبيعي في العالم؛ ومن ثمَّ شعرت أنه لا بد أن يكون من السهل عليه فعله، وجلست تراقبه لبضع دقائق بعناية، وهي تتساءل إن كان من الممكن حقًّا أن يتحول لونه إلى الأخضر ويضع على نفسه أغصانًا وأوراقًا. لكن ما كان

منه سوى أن جلس فقط في هدوء مدهش، وحين كان يتحدَّث، يخفض صوته إلى درجة كان غريبًا أن تستطيع سماعها، لكنها استطاعت.

قال لها: «إن بناء الأعشاش جزء من فصل الربيع، وأعتقد أنه يحدث كل عام بالطريقة نفسها منذ بداية الخليقة. فهذه الكائنات لها طريقتها الخاصة في التفكير وفعل الأشياء ومن الأفضل للمرء ألا يتدخل فيها. قد تخسرين صديقًا في فصل الربيع بسهولة أكثر من أي فصل آخر إن سيطر الفضول عليكِ.»

قالت ماري بصوت منخفض قدر المستطاع: «حين نتحدث عنه لا أستطيع أن أمنع نفسي من النظر إليه. لا بدَّ أن نتحدث عن شيء آخر. يوجد شيء أريد أن أخبرك به.»

قال ديكون: «سيكون من الأفضل له أن نتحدث عن شيء آخر. ما الذي تريدين أن تخبريني به؟»

همست قائلة: «حسنًا، هل تعرف شيئًا عن كولن؟»

أدار رأسه لينظر إليها، وسألها: «ماذا تعرفين عنه؟»

ردت ماري: «لقد رأيته، وكنت أتحدَّث معه كل يوم طوال هذا الأسبوع. إنه يريدني أن أذهب إليه؛ فهو يقول إنني أجعله ينسى كل شيء عن المرض والموت.»

بدا على ديكون الارتياح فعليًّا بمجرد اختفاء تعبير المفاجأة من على وجهه المستدير.

صاح قائلًا: «يسعدني هذا كثيرًا؛ أنا سعيد به حقًّا. فهذا يجعلني أكثر ارتياحًا. كنتُ أعلم أن عليَّ ألا أقول أي شيء عنه، وأنا لا أحب أن أكون مضطرًّا لإخفاء الأشياء.»

قالت ماري: «ألا يعجبك إخفاء أمر الحديقة؟»

أجابها: «أنا لن أقول أي شيء عنها أبدًا، لكني أقول لأمي: «أمي، إن لدي سرًّا عليَّ أن أخفيه. إنه ليس شيئًا سيئًا؛ وأنتِ تعرفين هذا. ليس أسوأ من إخفاء مكان أعشاش الطيور. أنتِ لا تمانعين بهذا، أليس كذلك؟»»

كانت ماري تريد أن تسمع عن والدته طوال الوقت.

فسألته وهي لا تخشى تمامًا سماع الإجابة: «ماذا قالت؟»

ابتسم ديكون ابتسامة عذبة، وقال: «قالت ما تقوله في المعتاد. فركت رأسي قليلًا وضحكت وهي تقول: «آه يا فتى، يمكنك الاحتفاظ بأي قدر تريد من الأسرار؛ فأنا أعرفك جيدًا منذ اثني عشر عامًا».»

سألته ماري: «كيف عرفتَ بأمر كولن؟»

«جميع مَن يعرفون السيد كرافن يعرفون أن لديه طفلًا صغيرًا معاقًا، ويعرفون أن السيد كرافن لم يكن يحب أن يتحدث أحد عنه. إن الناس يشعرون بالأسف للسيد كرافن؛

لأن السيدة كرافن كانت امرأة شابة جميلة للغاية وكانا يعشق كلٌّ منهما الآخر كثيرًا. إن السيدة ميدلوك تمرُّ بكوخنا كلما ذهبت إلى قرية ثوايت ولا تجد بأسًا من الحديث إلى أمي أمامنا نحن الأطفال؛ لأنها تعرف أننا قد تربينا على أن نُصبح أهلًا للثقة. كيف عرفتِ أنتِ بشأنه؟ كانت مارثا مضطربة للغاية في آخر مرة أتت فيها إلى المنزل. لقد قالت إنك تسمعين صوت هياجِه وأنكِ تطرحين أسئلة ولم تعرف ماذا تقول لكِ.»

أخبرته ماري بقصتها عن الرياح التي كانت تعوي في منتصف الليل وأيقظتها، وعن الأصوات الخافتة البعيدة التي سمعتها كما لو أن أحدًا يشكو من خطب ما، والتي قادتها عبر الأروقة المظلمة وهي تحمل شمعتها، وانتهى بها الحال بفتح باب الغرفة ذات الضوء الخافت التي وجدت بها سريرًا خشبيًّا منحوتًا له أربعة أعمدة في أحد أركانها. وحين وصفت الوجه الصغير الأبيض العاجي والعينين الغريبتين ذات الحواف السوداء، هز ديكون رأسه.

قال لها: «إنها تشبه عينا أمه، الاختلاف الوحيد أن عينيها كانتا تضحكان دائمًا، كما يقولون. إنهم يقولون إن السيد كرافن لا يتحمَّل رؤية كولن وهو مستيقظ؛ لأن عينيه تشبهان عيني والدته كثيرًا، ولكنه يبدو مختلفًا عنها تمامًا بسبب وجهه البائس.»

همست ماري قائلة: «أتعتقد أنه يريد أن يموت؟»

«كلا، لكنه يتمنى لو أنه لم يولد أبدًا. تقول أمي إن هذا أسوأ شيء على وجه الأرض يمكن أن يحدث لطفل. فالأطفال غير المرغوبين من آبائهم نادرًا ما يعيشون. إن السيد كرافن بإمكانه شراء أي شيء يُمكن للمال أن يشتريه لهذا الطفل المسكين، لكنه يريد نسيان وجوده على وجه الأرض. وأحد أسباب هذا هو خوفه من أن ينظر إليه يومًا ما ويراه قد أصبح أحدب الظهر.»

قالت ماري: «كولن نفسه يخشى هذا لدرجة أنه لا يجلس حتى. فهو يقول إنه طوال الوقت يفكر أنه إن أحس بظهور حدبة في ظهره، سيجن جنونه وسيظل يصرخ حتى الموت.»

قال ديكون: «عليه ألا يظل مستلقيًا هناك ويفكر في أشياء مثل هذه. لا يُمكن لأي فتًى أن يتحسن وهو يفكر في مثل هذه الأشياء.»

كان الثعلب مستلقيًا على الحشائش بالقرب منه ينظر لأعلى ليطلب من ديكون أن يُداعبه بين الحين والآخر، فانحنى ديكون وداعب عنقه برقة، وفكر لبضع دقائق في صمت، ثم رفع رأسه وجال بنظر عبر أرجاء الحديقة.

قال: «حين جئنا إلى هنا لأول مرة، بدا كل شيء رماديًّا كئيبًا. والآن انظري من حولك وأخبريني إن كنتِ ترَين فرقًا.»

نظرت ماري حولها والتقطت نَفَسَها قليلًا وصاحت: «يا إلهي! إن السور الرمادي يتغير لونه. يبدو كما لو أن ضبابًا رقيقًا أخضر اللون يزحَف عليه، كأنه ستار من الشاش الأخضر.»

قال ديكون: «أجل، وسيظلُّ يزداد اخضرارًا حتى يختفي اللون الرمادي بالكامل. هل يُمكنكِ تخمين ما كنتُ أفكر فيه؟»

قالت ماري بلهفة: «أعلم أنه شيء جميل، وأعتقد أنه شيء بخصوص كولن.»

قال موضحًا: «كنتُ أفكر أنه إذا خرج وجاء إلى هنا، فلن يهتمَّ بمراقبة نمو الحدبات في ظهره، بل سينصبُّ اهتمامه على مراقبة البراعم وظهورها على شجيرات الورد، وستتحسَّن صحته على الأرجح. وكنتُ أتساءل إذا كنا نستطيع أن نُدخل عليه السعادة ونجعله يأتي معنا إلى هنا ويَستلقي تحت الأشجار في عربته.»

قالت ماري: «كنتُ أتساءل أنا أيضًا عن ذلك. كنت أفكر فيه في كل مرة كنت أتحدث معه. كنت أتساءل إن كان بإمكانه كتمان سر، وإن كان بإمكاننا إحضاره معنا إلى هنا دون أن يرانا أحد. فكرتُ في أنك ربما يُمكنك أن تدفع عربته، فقد قال الطبيب إنه لا بدَّ أن يحصل على هواء نقي، وإن أراد منَّا أن نصطحبه معنا، فلن يجرؤ أحد على معارضته. إنه لن يسعى للاختلاط بالآخرين، وربما سيَسعدون إن خرج معنا. يُمكنه أن يأمر البستانيين بالبقاء بعيدًا حتى لا يعرفون بالأمر.»

كان ديكون يُفكر بعمق وهو يحكُّ ظهر كابتن.

قال: «سيكون هذا مفيدًا له، أنا متأكد من هذا. فنحن لا نفكر أبدًا في أنه كان من الأفضل لو لم يُولد أبدًا. فنحن مجرد طفلين يُراقبان حديقة وهي تنمو، وهو سيكون ثالثنا. سنكون مجرد صبيَّين وفتاة صغيرة يُشاهدون الطبيعة في الربيع. وأنا متأكد من أن هذا سيكون أفضل من كلام الأطباء.»

قالت ماري: «لقد ظلَّ وقتًا طويلًا مستلقيًا على ظهره في غرفته، وكان خائفًا طوال الوقت من ظهره لدرجة جعلته غريب الأطوار. إنه يعرف الكثير من الأشياء من الكتب، لكنه لا يعرف أي شيء آخر؛ فهو يقول إن مرضه الشديد منعه من ملاحظة الأشياء، وإنه يكره الخروج من المنزل ويكره الحدائق والبستانيين. لكنه يحبُّ سماع القصص عن هذه الحديقة لأنها سرِّية. لم أجرؤ على إخباره بالكثير عنها، لكنه قال إنه يريد رؤيتها.»

قال ديكون: «سنَجعله يخرج ويأتي إلى هنا في وقتٍ ما بالتأكيد. يُمكنني أن أدفع عربته جيدًا. هل لاحظتِ كيف واصل أبو الحنَّاء ورفيقته العمل ونحن جالسين هنا؟ انظري إليه وهو جاثم على هذا الفرع ويفكر في أفضل مكان لوضع هذا الغصن الصغير الذي يحمله في منقاره.»

وأصدر واحدةً من صفارات النداء الخفيضة التي يُصدرها، فأدار أبو الحنَّاء رأسه ونظر إليه متسائلًا، وهو لا يزال يحمل غصنه الصغير. تحدَّث ديكون إليه مثلما يفعل بِن ويذرستاف، ولكن نبرة ديكون كانت نبرة نُصحٍ ودي.

قال: «سيكون مكانه مناسبًا تمامًا أينما تضعه؛ فأنت تعرف طريقة بناء العُشِّ قبل خروجك من البيضة. هيا يا صديقي، واصلِ العمل؛ فلا يوجد وقت لتُضيِّعه.»

قالت ماري وهي تضحك بسعادة: «يا إلهي! كم أحب أن أسمعك وأنت تتحدَّث إليه! إن بِن ويذرستاف يُعنِّفه ويسخر منه، فيأخذ في القفز هنا وهناك ويبدو كما لو كان يفهم كل كلمة، وأنا أعرف أنه يحبُّ هذا. يقول بِن ويذرستاف إنه مغرور لدرجة أن قذْف الناس له بالحجارة خير له من عدم ملاحظتهم لوجوده.»

ضحك ديكون أيضًا وواصَل الحديث.

قال لأبي الحنَّاء: «أنت تعرف أننا لن نزعجك؛ فنحن مثل الحيوانات البرية تمامًا؛ نحن أيضًا نبني عُشًّا، باركك الله. احترس من الوشاية بنا.»

وعلى الرغم من أن أبا الحنَّاء لم يُجب؛ لأن منقاره كان مشغولًا، كانت ماري تعلم أنه حين طار بعيدًا بفرعه الصغير إلى ركنه في الحديقة، كانت النظرة الغامضة في عينيه اللامعتين التي تشبه قطرات الندى تعني أنه لن يُخبر أحدًا بسرِّهما مهما حدث.

الفصل السادس عشر

قالت ماري: «لن أفعل!»

وجدا الكثير من الأشياء ليفعلاها في هذا الصباح وتأخرت ماري عن موعد العودة إلى المنزل وكانت أيضًا في عجلة من أمرها حتى تعود إلى عملها، حتى إنها نسيت كولن تمامًا حتى آخر لحظة.

قالت لمارثا: «أخبري كولن أني لن أستطيع الذهاب لرؤيته اليوم؛ فأنا مشغولة للغاية في الحديقة.»

بدا الخوف على مارثا بعض الشيء.

قالت: «آنسة ماري! إن هذا قد يُثير حنقه حين أخبره بذلك.»

ولكن ماري لم تكن تخشاه مثل الآخرين، ولم تكن شخصًا يُضحِّي بسعادته من أجل الآخرين.

أجابتها قائلة: «لا يُمكنني البقاء. إن ديكون بانتظاري»، وانصرفَت مهرولة.

كانت فترة ما بعد الظهيرة أجمل والعمل فيها أكثر من الصباح. فقد أُزيلت جميع الأعشاب الضارة تقريبًا من الحديقة بأكملها، وقُلِّمت معظم الورود والأشجار أو حُفر حولها. كان ديكون قد أحضر مجرفة خاصة به، وعلَّم ماري طريقة استخدام كل أدواتها، حتى صار واضحًا في هذا الوقت أن هذا المكان الجميل البري على الرغم من أنه لن يُصبح «كحدائق البستانيين»، فإنه سيصبح مكانًا بريًّا تنمو فيه الأشياء قبل نهاية الربيع.

قال ديكون وهو يعمل بكامل طاقته: «ستظهر أزهار التفاح وأزهار الكرز عاليًا، وستُزهر أشجار الخوخ والبرقوق مرةً أخرى على الأسوار، والحشائش ستتحوَّل إلى سجادة من الأزهار.»

كان الثعلب الصغير والغراب في نفس سعادة وانشغال الطفلَين، وكان أبو الحنَّاء ورفيقته يطيران ذهابًا وإيابًا بسرعة البرق. في بعض الأحيان كان الغراب يرفرف بجناحيه

الأسودين ويُحلِّق عاليًا فوق قمم الأشجار في المتنزَّه. وفي كل مرة كان يعود ويربض بالقرب من ديكون وينعق عدة مرات كما لو كان يروي مغامراته، وكان ديكون يتحدَّث إليه مثلما يتحدث لأبي الحنَّاء. في إحدى المرات، حين كان ديكون مُنشغلًا للغاية ولم يردَّ عليه في البداية، طار الغراب وحطَّ على كتفَيه وقرص أذنه بلطف بمنقاره الكبير. حين أرادت ماري أن ترتاح قليلًا، جلس ديكون معها تحت إحدى الأشجار، وبمجرد أن أخرج مزماره من جيبه وعزف عليه تلك النغمات الصغيرة الغريبة والعذبة حتى ظهر سنجابان على السور وأخذا يَنظران إليه ويستمعان لألحانه.

قال ديكون وهو ينظر إليها وهي تحفر: «لقد أصبحتِ أكثر قوة من ذي قبل. لقد بدأ التغيير يظهر عليكِ بالتأكيد.»

كانت ماري تشعُّ نشاطًا وروحها المعنوية مرتفعة.

قالت بابتهاج: «إن وزني يزداد كل يوم، وستضطرُّ السيدة ميدلوك أن تُحضر لي ثيابًا ذات مقاسات أكبر. ومارثا تقول إن شعري يَزداد كثافة؛ فلم يعدْ باهتًا وخفيفًا.

كانت الشمس قد بدأت تَغرُب وتُلقي بأشعة ذهبية فاقعة مائلة تَنحدر أسفل الأشجار حين غادرا الحديقة.

قال ديكون: «سيكون الطقس جيدًا غدًا. سأنهض إلى العمل بمجرد شروق الشمس.»

قالت ماري: «وأنا أيضًا.»

ركضت عائدة إلى المنزل بأسرع ما يُمكن لقدميها أن تحملاها. فقد أرادت أن تُخبر كولن عن جرو الثعلب والغراب أصدقاء ديكون، وعما فعله الربيع بالمكان. فقد كانت متأكِّدة من أنه سيحبُّ سماع هذا. لم يكن الوضع جيدًا حين فتحت باب غرفتها ورأت مارثا تقف في انتظارها بوجه كئيب.

سألتها: «ما الأمر؟ ماذا قال كولن حين أخبرتِه بأني لا أستطيع الذهاب إليه؟»

قالت مارثا: «يا إلهي! ليتك ذهبت إليه. فقد كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول في واحدة من نوبات غضبه، وبذلتُ مجهودًا كبيرًا طوال العصر حتى أجعله يلتزم الهدوء. وكان ينظر إلى الساعة طوال الوقت.»

التصقَت شفَتا ماري معًا؛ فهي لم تكن أقل اعتدادًا بالآخرين مثل كولن، ولم تكن ترى سببًا لتدخل فتًى سيئ الطبع في أكثر شيء تحبُّه. لم تكن تعرف شيئًا عن الشفقة على الأشخاص المرضى والعصبيِّين الذين لا يُدركون أن بإمكانهم التحكم في انفعالاتهم، وأن عليهم ألا يُصيبوا الآخرين بالتوتر والعصبية أيضًا. فحين أصيبت في إحدى المرات

بالصداع في الهند، فعلت كل ما في وسعها حتى ترى كل مَن حولها يعانون من الصداع أيضًا أو أي عِلَّة أخرى على القدر نفسه من السوء. وكانت حينها ترى أنها مُحقَّة تمامًا فيما تفعل، لكنها الآن بالطبع الآن ترى أن كولن مخطئ تمامًا فيما يفعل.

لم يكن جالسًا على أريكتِه حين دخلت إلى غرفته؛ بل كان مُستلقيًا على ظهره في السرير ولم يلتفت برأسه إليها حين دخلت. كانت بداية سيئة، وسارت ماري نحوه بأسلوبها الصارم.

قالت له: «لماذا لم تنهض؟»

أجابها دون أن ينظر إليها: «لقد نهضتُ بالفعل هذا الصباح عندما ظننتُ أنكِ ستأتين، وجعلتهم يُعيدونني إلى السرير بعد الظهر. فقد كان ظهري يؤلمني ورأسي يؤلمني وشعرتُ بالتعب. لماذا لم تأتِ؟»

قالت ماري: «كنتُ أعمل في الحديقة مع ديكون.»

قطب كولن جبينه وتنازل ونظر إليها، ثم قال: «لن أدع ذلك الفتى يأتي إلى هنا إن كنتِ ستذهبين وتظلين معه بدلًا من المجيء والتحدث إليَّ.»

انفعلت ماري انفعالًا هادئًا، وكانت ماري تستطيع أن تنفعل دون جلبة. فما كان منها إلا أن أصبحت أكثر فظاظةً وعنادًا، ولم تعبأ بما سيحدث.

ردت عليه سريعًا: «إن منعت ديكون من المجيء، فلن آتيَ إلى هذه الغرفة مرةً أخرى!»

قال كولن: «ستضطرِّين إلى المجيء إن أردتُ أنا هذا.»

قالت ماري: «لا، لن أفعل!»

قال كولن: «سأُجبِرُك، سأجعلهم يجرونكِ إلى هنا.»

قالت ماري بعنف: «هل سيفعلون هذا، أيها الأمير الصغير؟! بإمكانهم أن يجرجروني إلى هنا، لكن لا يُمكنهم إرغامي على الحديث حين يأتون بي إلى هنا. سأجلس وأطبق أسناني ولن أخبرك ولو بشيء واحد. بل لن أنظر إليك حتى؛ سأظل محدقةً في الأرض!»

كانا طفلين ظريفين ولطيفين وهما يُحملقان في بعضهما في غضب. لو كانا صبيين من أطفال الشوارع، لانقضَّ أحدهما على الآخر ودار بينهما عراك عنيف. لكن ما حدث أنهما انتقلا إلى الخطوة التالية مباشرةً.

صاح كولن قائلًا: «أنتِ أنانية!»

قالت ماري: «وماذا تكون أنت؟ الأشخاص الأنانيون دومًا ما يقولون هذا؛ فأي شخص لا يفعل ما يريدون يكون في نظرهم أنانيًّا. أنت أكثر مني أنانية، أنت أكثر فتًى أناني رأيته في حياتي.»

رد كولن في حِدَّة: «لا، لستُ كذلك! أنا لستُ أنانيًّا مثل فتاك الرائع ديكون! فهو يجعلك تلعبين في التراب معه وهو يعلم أني أجلس وحيدًا. إنه شخص أناني، إن كان يعجبك!»

اشتعلت عينا ماري غضبًا، وقالت: «إنه ألطف من أي فتًى آخر عاش على وجه الأرض! إنه ... إنه كالملاك!» ربما بدا من السخف أن تقول هذا، لكنها لم تهتم.

سخر كولن من كلامها بشدة وقال: «ملاك لطيف! إنه مجرد فتًى عادي يعيش في كوخ على المستنقع!»

بادرته ماري سريعًا: «إنه أفضل بكثير من أي أمير صغير عادي! إنه أفضل منه ألف مرة!»

ولأنها كانت الأقوى، كانت على وشك أن تنال منه. فالحقيقة أنه لم يدخل في عراك مع أي أحد في مثل سنِّه في حياته، وكان هذا مفيدًا له نوعًا ما عمومًا، على الرغم من أنه لم يكن يدرك هذا ولا ماري أيضًا. أدار رأسه على الوسادة وأغلق عينيه، ونزلت منهما دمعة كبيرة سالت على وجنته. كان قد بدأ يشعر بالشفقة والأسف على نفسه، وليس على أي شخص آخر.

قال لها: «أنا لستُ أنانيًّا مثلك، لأني مريض طوال الوقت، ولستُ متأكدًا مما إذا كانت ستظهر لي حدبة في ظهري أم لا، كما أنني سأموت قريبًا.»

عارضته ماري دون تعاطف: «لا، لن يحدث هذا!»

فتح عينيه على اتساعهما في استياء؛ فهو لم يسمع مثل هذا الكلام من قبل. وشعر بالغضب والسعادة بعض الشيء في آنٍ واحد، إن كان يُمكن للمرء الشعور بكلا الشعورين في آن واحد.

صاح قائلًا: «ألن أموت؟ سأموت! وأنتِ تعرفين أن هذا سيحدث! الجميع يقول هذا.»

قالت ماري في غضب: «أنا لا أصدق هذا! أنت تقول هذا فقط حتى تجعل الناس يشعرون بالأسف عليك؛ أعتقد أنك فخور بهذا. أنا لا أصدق هذا! لو كنتَ فتًى لطيفًا، لربما كان هذا محتملًا، لكنك فتًى بغيض للغاية!»

على الرغم من ألم ظهره، جلس كولن في السرير في غضب صحي للغاية.

صاح قائلًا: «اخرجي من الغرفة!» وأمسك بوسادته وألقاها نحوها. لم يكن قويًّا بما يكفي ليتمكن من إلقائها بعيدًا، لتقع فقط عند قدميها، لكن وجه ماري بدا ممتعضًا للغاية.

قالت: «سأذهب، ولن أعود أبدًا!» وسارت نحو الباب وحين وصلت إليه استدارت وتحدثت إليه.

قالت: «كنتُ أنوي أن أخبرك بالكثير من الأشياء الرائعة. لقد أحضر ديكون معه ثعلبه وغرابه وكنت أنوي أن أخبرك بكل شيء عنهما. والآن لن أخبرك بشيء واحد.»

خرجت من الباب وأغلقته وراءها، ولدهشتها البالغة وجدت الممرضة المدربة واقفة كما لو كانت تستمع إليهما، ولدهشتها أكثر وجدتها تضحك. كانت سيدة ضخمة الجثة وجميلة، لم يفترض بها أن تعمل ممرضة على الإطلاق؛ إذ لم يكن لها طاقة للمرضى وتختلق الأعذار طوال الوقت لتترك كولن لمارثا أو أي أحد آخر يُمكنه أن يحلَّ محلها. لم تكن ماري تحبها تمامًا، ووقفت ببساطة وظلت تحدِّق فيها وهي تضحك بشدة في منديلها.

سألتها: «ما الذي يضحككِ؟»

قالت الممرضة: «أضحك عليكما أيها الطفلان. إن أفضل شيء يُمكن أن يحدث لهذا الطفل المريض المدلَّل أن يجد طفلًا آخر مدلَّلًا مثله يتصدَّى له.» وعادت للضحك مرةً أخرى في منديلها، وقالت: «لو كان لديه أخت صغيرة يتشاجر معها، لكان ذلك طوق النجاة له.»

«هل سيموت؟»

قالت الممرضة: «لا أعرف، ولا أبالي. فنصف عِلَّته من النوبات الهستيرية والانفعال.»

سألتها ماري: «ما النوبات الهستيرية؟»

«ستعرفين إن دفعتِه للدخول في إحدى نوباته بعد هذا، لكن على أي حال فقد أعطيته سببًا ليُصاب بنوبة هستيرية، وهذا يسعدني.»

عادت ماري إلى غرفتها دون الشعور الذي كان لديها حين عادت من الحديقة. فقد كانت تشعر بالغضب والإحباط، لكنها لم تكن تشعر بالأسف على كولن على الإطلاق. فقد كانت تتطلَّع لأن تخبره بكثير من الأشياء الرائعة، وحاولت أن تُقرر ما إذا كان من الصواب ائتمانه على مثل هذا السر الكبير أم لا. كانت قد بدأت تشعر بأنه لا بأس من ذلك، لكنها الآن غَّيرت رأيها تمامًا. فهي لن تُخبره على الإطلاق، وعليه أن يبقى في غرفته وألا

يحصل على أي هواء نقي ويموت إن أراد هذا! فهذا سيكون الأنسب له! شعرت بغضب وحنق شديدين لدرجة جعلتها تنسى لبضع دقائق كل شيء عن ديكون والستار الأخضر الذي زحف على العالم والرياح اللطيفة القادمة من المستنقع.

كانت مارثا في انتظارها وسرعان ما تحول الاضطراب البادي على وجهها مؤقتًا إلى فضول واهتمام. كان ثمَّة صندوق خشبي على الطاولة أُزيل غطاؤه وظهر أنه ممتلئ بحزم مرتبة.

قالت مارثا: «لقد أرسله السيد كرافن إليكِ. يبدو أنه يحتوي على كتبٍ مصورة.»

تذكرت ماري السؤال الذي طرحه عليها في اليوم الذي ذهبت فيه إلى غرفته: «هل تريدين أي شيء ... دمى، أو ألعاب، أو كتب؟» ففتحت الطرد وهي تتساءل إن كان قد أرسل إليها دُمية، وتتساءل أيضًا عما ستفعله بها إن كانت كذلك. لكن لم يكن ما أرسله دُمية، بل العديد من الكتب الجميلة مثل كتب كولن، وكان اثنان منها عن الحدائق ومليئة بالصور. كانت ثمَّة لعبتان أو ثلاث كما كان بها علبة بها أدوات كتابة صغيرة مطبوع عليها أحرف صغيرة ذهبية اللون وبها قلم حبر ذهبي ومِحبرة.

كان كل شيء جميلًا للغاية لدرجة أن سعادتها بدأت تطرد غضبها وتُخرجه من تفكيرها. فلم تكن تتوقع منه أن يتذكرها على الإطلاق، وأثلج هذا قلبها الصغير القاسي كثيرًا.

قالت: «أنا أتقن الكتابة أكثر من طباعة الأحرف، وأول شيء سأكتبه بهذا القلم سيكون خطابًا أخبره فيه عن مدى امتناني له.»

لو كانت ما زالت صديقة لكولن، لهرولت إليه في الحال على الفور لتريه هداياها، وتفحَّصا الصور، وقرَءا بعضًا من كتب العناية بالحدائق، وربما حاوَلا اللعب بالألعاب، وكان سيستمتع بوقته كثيرًا لدرجة تمنعُه من أن يفكر مرةً أخرى في الموت أو أن يضع يده ليتحسَّس عموده الفقري ليتأكد من عدم وجود حدبة على وشك الظهور. فقد كانت لديه طريقة يفعل بها هذا ولم تكن تتحمل رؤيتها؛ إذ كان هذا يبعث فيها شعورًا غير مريح بالخوف؛ لأنه طوال الوقت كان يبدو خائفًا للغاية. كان يقول إنه لو شعر يومًا بوجود ولو نتوء صغير للغاية، سيعلم أن حدبةً قد بدأت تنمو. كان مصدر هذه الفكرة شيئًا سمع السيدة ميدلوك تَهمس به للمُمرضة وظل يفكر فيها سرًّا حتى ترسخت في ذهنه. فقد قالت السيدة ميدلوك إن ظهر والده بدأ يظهر عليه اعوجاجه بهذه الطريقة حين كان طفلًا. ولم يخبر أحدًا إلا ماري أن معظم «نوبات غضبه» كما يطلقون عليها كان مصدرها خوفه الهيستيري الخفي، وشعرت ماري بالأسف له حين أخبرها.

قالت في نفسها: «إنه دومًا ما يبدأ التفكير في هذا الأمر حين يكون غاضبًا أو متعبًا، وهو كان غاضبًا اليوم. ربما، ربما ظلَّ يفكر في هذا طوال فترة ما بعد الظهيرة.»

وقفت ساكنةً وهي تنظر إلى الأسفل نحو السجادة وتفكر.

قالت في تردد عاقدة حاجبيها: «لقد قلتُ إني لن أعود إليه مرةً أخرى، لكن ربما، ربما سأذهب وأرى إن كان يريدني في الصباح. ربما سيُحاول قذفي بوسادته مرةً أخرى، لكن أعتقد أني سأذهب.»

الفصل السابع عشر

نوبة غضب

كانت قد استيقظت في وقت مبكِّر للغاية من الصباح وعملت بكدٍّ شديد في الحديقة، فشعرت بالتعب والنعاس، لذلك بمجرد أن أحضرت مارثا طعام العشاء لها، حتى تناولته وكانت سعيدة حين أوتْ إلى فراشها. حين وضعت رأسها على الوسادة تمتمت في نفسها وقالت: «سأخرج قبل الإفطار وأعمل مع ديكون، وبعدها ... أعتقد أني سأذهب لرؤيته.»

اعتقدت أنها كانت في منتصف الليل حين استيقظت على أصوات مرعبة جعلتها تقفز من فراشها في لحظة. ماذا كان هذا؟ ما هذا؟ في اللحظة التالية تيقَّنت تمامًا أنها تعرف هذه الأصوات. فقد كانت الأبواب تُفتح وتُغلق، وكانت ثمة أصوات خطًى متسارعة في الأروقة وشخص يبكي ويصرخ في الوقت نفسه بطريقة مرعبة.

قالت: «إنه كولن في إحدى نوبات غضبه التي أطلقت عليها الممرضة نوبات هستيرية. كم تبدو بشعة!»

وبينما كانت تستمع إلى الصرخات الممتزجة بالنحيب، لم تتعجب من خوف الناس منه طوال الوقت وجعله يفعل ما يحلو له بدلًا من الاستماع إليهم. وضعت يديها على أذنيها وشعرت بالإعياء وأخذت ترتجف.

ظلت تقول: «لا أعرف ماذا أفعل، لا أعرف ماذا أفعل، لا يمكنني تحمُّل هذا.»

تساءلت للحظة إن كان سيتوقَّف إن تجرأت على الذهاب إليه، ثم تذكرت كيف طردها من الغرفة وفكرت أن رؤيته لها قد تجعل حالته تزداد سوءًا. حتى حين ضغطت بيديها أكثر على أذنيها، لم تستطع صدَّ هذه الأصوات البشعة. كانت تبغضها للغاية وشعرت بالرعب منها لدرجة جعلتها تشعر فجأة بالغضب وبرغبة في الدخول في نوبة غضب وتخيفُه بها تمامًا مثلما يخيفها. لم تكن معتادة على انفعالات أي شخص سواها. فأزالت يديها من على أذنيها وانتفضَت واقفة ضاربة الأرض بقدميها بقوة.

صاحت قائلة: «لا بدَّ أن يتوقف! لا بدَّ لأحد أن يُوقفه! لا بد لأحد أن يضربه!»

في هذا الوقت سمعت وقع أقدام شبه تركض في الرواق وفُتح باب غرفتها ودخلت الممرضة. لم تكن تضحك الآن بأي شكل من الأشكال، بل بدت شاحبة الوجه.

قالت باندفاع بالغ: «لقد أدخل نفسه في نوبة هستيرية. سيُؤذي نفسه بهذا الشكل. لا يمكن لأحد أن يفعل له أي شيء، عليكِ أن تأتي وتُحاولي كما يجب أن تفعل أي طفلة طيبة؛ فهو يحبك.»

قالت ماري، وهي تضرب بقدمها الأرض في انفعال: «لقد طرَدني من غرفته هذا الصباح.»

سُرت الممرضة حين أنزلت ماري قدمها على الأرض وضربتْها بها؛ فالواقع أنها كانت تخشى أن تجد ماري تبكي وتُخفي رأسها تحت أغطية السرير.

قالت: «هذا رائع. أنت في الحالة المزاجية المناسبة تمامًا. عليكِ الذهاب وتوبيخه. امنحيه شيئًا جديدًا ليُفكر فيه. هيا يا طفلتي، اذهبي بأسرع ما يمكنك.»

لم تدرك ماري إلا فيما بعد أن ما حدث كان مُضحكًا ومفزعًا في الوقت نفسه؛ فقد كان من المضحك شعور كل هؤلاء الكبار بالخوف لدرجة تدفعهم إلى اللجوء إلى طفلة صغيرة لمجرَّد تخمينهم أنها لا تقلُّ سوءًا عن كولن نفسه.

سارت مسرعة عبر الرواق وكلما اقتربت من صوت الصراخ، تصاعد غضبها أكثر فأكثر. وحين وصلت إلى باب غرفته كانت تشعر بالانزعاج الشديد. فتحت الباب بقوة بيدها وركضَت عبر الغرفة نحو السرير ذي الأعمدة الأربعة.

قالت شبه صارخة: «توقف! توقف! أنا أكرهك! الجميع يكرهك! أتمنى أن يركض الجميع إلى خارج المنزل ويتركوك تصرخ حتى الموت! فهذا الصراخ سيؤدِّي إلى موتك في لحظة، وأنا أتمنى ذلك!» أي طفل طيب وعطوف لم يكن ليفكر أو يتفوَّه بمثل هذا الكلام على الإطلاق، لكن تصادف أن كانت صدمة الاستماع لهذا الكلام هي أفضل شيء يمكن أن يحدث لمثل هذا الفتى العصبي الذي لم يجرؤ أحد على معارضته أو كبح جماحه.

كان مستلقيًا على وجهه يضرب وسادته بيديه وكاد يقفز من مكانه، فالتفت سريعًا حين سمع صوت الطفلة الغاضبة. بدا وجهه بشعًا؛ فكان مُنتفخًا وتباين لونه ما بين حمرة وبياض، وكان يلهث ويكاد يختنق، لكن ماري، هذه الصغيرة الشرسة، لم تكترث بذلك ذرة اكتراث.

قالت له: «إن صرخت صرخة أخرى، سأصرخ أنا أيضًا، ويمكنني الصراخ أعلى بكثير منك وسأخيفك، سأخيفك!»

وبالفعل توقف عن الصراخ بسبب فزعِه منها؛ فقد توقفت الصرخة التي كان على وشك إطلاقها حتى كادت أن تخنقه. كانت الدموع تتدفَّق على وجهه وكان جسده كله يرتجف.

أخذ يلهث وينتحب وقال: «لا يُمكنني التوقف! لا يمكنني، لا يمكنني!»

صاحت ماري: «بل يمكنك! إن نصف مرضك بسبب هذه النوبات الهستيرية والانفعال؛ إنها مجرد نوبات هستيرية ... نوبات هستيرية ... نوبات هستيرية!» كانت تضرب بقدميها الأرض في كل مرة تردد فيها ذلك.

قال كولن وهو يكاد يختنق: «لقد شعرتُ بالنتوء، شعرتُ به. كنتُ أعلم أن هذا سيحدث، وأني سأُصاب بحدبة في ظهري ثم أموت.» ثم بدأ يتلوى مرةً أخرى وأشاح بوجهه وظل يبكي وينتحب لكن دون صراخ.

عارضته ماري بحدة: «لا لم تشعر بنتوء! وإن حدث وشعرت به، فلا بد أنه مجرد نتوء عصبي. فالنوبات الهستيرية تؤدِّي إلى ظهور نتوءات. إن ظهرك البشع لا يعاني من أي خطب، لا شيء سوى مجرد هستيريا! استدر ودعني ألقي نظرة عليه!»

كانت تحب كلمة «نوبات هستيرية» كثيرًا، وشعرت على نحو ما كما لو أن لها تأثيرًا عليه. فعلى الأرجح أنه لم يسمع بها من قبل مثلها.

قالت بلهجة آمرة: «أيتها الممرضة، تعالي إلى هنا ودعيني ألقي نظرة على ظهره الآن!»

كانت كل من الممرضة والسيدة ميدلوك ومارثا يقفْنَ معًا بالقرب من الباب يحدقن فيها، وأفواههن شبه مفتوحة. ولهث الثلاث من الرعب أكثر من مرة. تقدمت الممرضة إلى الأمام شبه خائفة. وكان كولن يلهث بنحيب قطع أنفاسه.

قالت في تردُّد بصوت منخفض: «ربما لن ... لن يسمح لي.»

غير أن كولن سمعها وقال بصوت لاهث خرج من بين نحيبه: «دع... دعيها ترى! وسـ... ستشاهد بنفسها!»

كان ظهره نحيلًا للغاية يصعب النظر إليه وهو عارٍ. فكان يمكن عدُّ كل ضلع وكل مفصل في العمود الفقري، إلا أن الآنسة ماري لم تَعُدَّها حين انحنت وفحصتها بوجه وقور فظٍّ جامد. بدت غاضبة ومتزمتة، حتى إن الممرضة مالت برأسها إلى الجانب لتُخفي اختلاج فمها. ساد الصمت لدقيقة؛ إذ إنَّ حتى كولن حاول أن يكتم أنفاسه بينما كانت ماري تفحص عموده الفقري من أعلى إلى أسفل، ثم من أسفل إلى أعلى، بتركيز بالغ كما لو كانت الطبيب الكبير القادم من لندن.

وأخيرًا قالت: «لا يوجد ولا نتوء واحد هنا! لا وجود لنتوء حتى في حجم رأس الدبوس، فيما عدا نتوءات العمود الفقري نفسه، فأنت بإمكانك أن تحسَّ بها لمجرد أنك نحيف. حتى أنا كانت لدي نتوءات في عمودي الفقري، وبارزة تمامًا مثل الموجودة عندك، حتى بدأ وزني يزيد، ولم يزِد بما يكفي بعد لإخفائها بالكامل. لا وجود لأي نتوء لديك ولو في حجم رأس الدبوس! فإن حدث وقلتَ هذا مرةً أخرى، سأضحَك!»

لم يعرف أحد إلا كولن مدى تأثير هذه الكلمات الطفولية الغاضبة عليه. لو كان لديه أي شخص يتحدَّث إليه بشأن مخاوفه السرية؛ لو تجرأ وسمح لنفسه بطرح الأسئلة؛ لو كان لديه رفاق في مثل سنه ولم يَستلقِ على ظهره في هذا البيت الضخم المغلق، يتنفس هواءً مثقلًا بمخاوف الأشخاص الذي كان معظمهم جاهل ومتعب منه، لاكتشف أن معظم مخاوفه ومرضه كان من اختلاقه. غير أنه ظل مستلقيًا في هذا المكان يفكر في نفسه وفي آلامه وتعبه ساعات وأيامًا وشهورًا وسنين. والآن تصر فتاة صغيرة غاضبة غير متعاطفة معه إصرارًا لا يتزحزح على أنه ليس مريضًا كما كان يعتقد، والواقع أنه شعر بالفعل بأنها ربما تقول الحقيقة.

بادرت الممرضة بالحديث وقالت: «لم أكن أعرف أنه يعتقد بوجود نتوء على عموده الفقري. إن ظهره ضعيف لأنه لا يُحاول الجلوس. كان بإمكاني إخباره بعدم وجود مثل هذا النتوء.» التقط كولن أنفاسه واستدار بوجهه قليلًا لينظر إليها.

قال على نحو مُثير للشفقة: «أ... أيمكنكِ؟»

«أجل يا سيدي.»

قالت ماري وهي تلتقط أنفاسها أيضًا: «هناك!»

أدار كولن وجهه مرةً أخرى واستلقى لدقيقة في سكون تامٍّ لم يقطعه سوى أنفاسه الطويلة المتهدجة، التي كانت الأثر الباقي من عاصفة نحيبه، على الرغم من أن دموعه انهمرت على وجهه وبللت الوسادة. كانت دموعه في الواقع تعني شعورًا براحة كبيرة وغريبة يسري في أوصاله. وسرعان ما استدار ونظر إلى الممرضة مرةً أخرى، والغريب في الأمر أنه لم يعد يبدو كأمير هندي صغير على الإطلاق وهو يتحدث إليها.

قال لها: «هل تعتقدين أن ... من المُمكن ... أن أعيش حتى أكبر؟»

لم تكن الممرضة ذكية ولا رقيقة القلب، لكنها استطاعت أن تكرر بعضًا من كلمات طبيب لندن.

«من المحتمل أن تعيش إن فعلت ما يُطلب منك، وإن لم تستسلم لنوبات الغضب، وقضيت وقتًا طويلًا في الهواء النقي.»

انقضت نوبة غضب كولن وأصيب بالضعف والإنهاك من البكاء وربما جعله هذا يشعر بالهدوء. مد يده قليلًا نحو ماري، ويُسعدني أن أقول إن نوبة غضبها هي الأخرى قد انتهت، ولان قلبها تمامًا والتقت يدها بيده في منتصَف الطريق، وكان هذا نوعًا من التصالح.

قال لها: «سأخرج معكِ يا ماري. فأنا لن أكره الهواء النقي بعد الآن إن استطعنا العثور على ...» ثم تذكر في الوقت المناسب أن يتوقف عن قول: «إن استطعنا العثور على الحديقة السرية.» فأنهى حديثه بقول: «سأحب الخروج معكِ إن جاء ديكون ودفع بي الكرسي. إن لديَّ رغبي شديدة حقًّا في أن أرى ديكون والثعلب والغراب.»

أعادت الممرضة ترتيب السرير المُبعثَر وعدَّلت الوسائد، ثم صنعت لكولن كوبًا من حساء اللحم، وأعطت كوبًا لماري أيضًا، التي سعدتْ كثيرًا بالحصول على هذا الحساء بعد كل ما أصابها من انفعال. انسلَّت كل من السيدة ميدلوك ومارثا إلى الخارج بسعادة، وبعدما أصبح كل شيء مرتَّبًا وهادئًا وفي مكانه بدا أن الممرضة ستَسعد كثيرًا لو انسلت إلى الخارج أيضًا. كانت سيدة شابة في كامل صحتها تكره أن تُحرم من النوم وكانت تتثاءب ملء فمها وهي تنظر إلى ماري، التي دفعت كرسي القدم الكبير بالقرب من السرير ذي الأعمدة الأربعة وجلست ممسكة بيد كولن.

قالت لماري: «عليكِ العودة إلى نومك؛ فسينام بعد قليل، إن لم يكن متضايقًا، وبعدها سأنام في الغرفة المجاورة.»

همست ماري لكولن قائلة: «أتريدني أن أغنِّي لك تلك الأغنية التي تعلمتها من خادمتي الهندية؟»

جذب يدها بيده برفق وأدار عينيه المنهكتَين نحوها في رجاء واضح.

أجابها: «أجل! إنها أغنية عذبة للغاية. ستجعلني أنام في دقيقة.»

قالت ماري للممرضة المتثائبة: «أنا سأجعله ينام، يُمكنكِ الذهاب إن شئتِ.»

قالت الممرضة بتردد: «حسنًا، إن لم يخلد إلى النوم في خلال نصف ساعة، عليكِ أن تُناديني.»

قالت ماري: «حسنًا.»

خرجت الممرضة من الغرفة في لحظة وبمجرد ذهابها، جذب كولن يد ماري مرةً أخرى.

قال لها: «كنت على وشك أن أبوح بالسر، لكني أوقفت نفسي في الوقت المناسب. لن أتحدث مع أحد وسأخلد للنوم، لكنكِ قلتِ إن لديكِ مجموعة من الأشياء الرائعة تريدين

أن تخبريني بها. هل وجدتِ، أو تعتقدين أنكِ قد وجدتِ أي شيء بشأن الدخول الحديقة السرية؟»

نظرت ماري إلى وجهه الصغير البائس المتعب وعينيه المنتفختين ولان قلبها.

أجابته: «أجل، أعتقد هذا. وإن خلدتَ الآن للنوم، سأخبرك بها غدًا.» هنا ارتعشت يده.

قال: «آه يا ماري! آه يا ماري! إن استطعتُ الدخول إليها، أعتقد أني سأعيش حتى أكبر! هل بإمكانك بدلًا من أن تغني لي أغنية الخادمة الهندية، أن تخبريني برقة كما فعلتِ في أول يوم كيف تتخيلين شكلها من الداخل؟ أنا متأكد أن هذا سيجعلني أخلد للنوم.»

أجابت ماري: «أجل، أغمض عينيك.»

أغلق عينيه واستلقى في سكون، وأمسكت بيده وبدأت تتحدث ببطء وبصوت منخفض للغاية.

«أعتقد أنها ظلت مهجورة وقتًا طويلًا؛ حتى إنها صارت كتلة جميلة متشابكة. أعتقد أن الورود ظلت تتسلَّق وتتسلَّق حتى صارت متدلِّية من الأفرع والأسوار وتزحف على الأرض، تمامًا مثل ضباب رمادي غريب. لقد مات بعضها، لكن كثيرًا منها ظل على قيد الحياة وحين يأتي الصيف ستظهر ستائر وينابيع من الورود. أعتقد أن الأرض مليئة بأزهار النرجس البري وزهور اللبن الشتوية وأزهار الزنبق والسوسن التي تكافح لشق طريقها نحو السطح ومغادرة ظلمة الأرض. وها قد بدأ فصل الربيع، وربما، ربما …»

جعلته النبرة الرقيقة في صوتها أكثر وأكثر هدوءًا، ورأت هي هذا واستمرت في حديثها.

«ربما تخرج هذه الأشياء من الحشائش، وربما توجد مجموعات من أزهار الزعفران ذات اللون البنفسجي والذهبي، حتى الآن. وربما تبدأ الأوراق في الظهور وتتفتح، وربما يتغير اللون الرمادي ويزحف على المكان ستار أخضر ضبابي، ليُغطي كل شيء. وتأتي الطيور لتنظر إلى هذا؛ لما في المكان من هدوء وأمان.» وأردفت بكثير من الرقة والهدوء: «وربما، ربما، ربما … ربما وجد أبو الحنَّاء رفيقة له، وهو الآن يبني عُشًّا.»

وهنا نام كولن.

الفصل الثامن عشر

«عليكِ ألا تضيعي أي وقت»

بالطبع لم تستيقظ ماري مبكرًا في صباح اليوم التالي. فقد نامت في وقت متأخر لأنها كانت متعبة، وحين أحضرت لها مارثا إفطارها، أخبرتها بذلك. فقد كان كولن هادئًا للغاية وكان مريضًا ومحمومًا كما يحدث له دائمًا بعدما يُنهك قواه بنوبة من البكاء. تناولت ماري إفطارها ببطء وهي تستمع إلى مارثا.

قالت مارثا: «إنه يقول إنه يريد أن تتفضَّلي بالذهاب لرؤيته بأسرع ما يمكن. غريب ولعه ذاك بك. فقد وبختِه كثيرًا الليلة الماضية، أليس كذلك؟ لم يكن أحد ليجرؤ على ذلك. يا له من فتًى مسكين! لقد أفسده التدليل ولم يعد من الممكن أن تُنقذه الشدة. تقول أمي إن أسوأ شيئين يُمكن أن يحدثا لأي طفل ألَّا يحصل على ما يريد أبدًا أو يحصل على ما يريد طوال الوقت، ولكنها لا تعلم أيهما أسوأ. لقد كنتِ منفعلة وحادة أنتِ أيضًا. لكنه قال لي حين ذهبتُ إلى غرفته «من فضلك اطلبي من الآنسة ماري أن تتفضل وتأتي لتتحدث معي.» تتصورين أنه قال من فضلك! «هل ستذهبين يا آنسة ماري؟» قالت ماري: «سأركض لأرى ديكون أولًا.» ثم أردفت كمن هبط عليه وحي مفاجئ: «كلا، سأذهب لرؤية كولن أولًا وأخبره ... أنا أعرف ما سأخبره به.»

كانت ترتدي قبعتها حين ذهبت إلى غرفة كولن وبدا عليه الإحباط لثانية. كان في سريره، وكان وجهه شاحبًا مثيرًا للشفقة، وثمة دوائر سوداء تطوق عينيه.

قال لها: «أنا سعيد بمجيئك. إن رأسي يؤلمني وجسدي كله يؤلمني لأنني مرهَق للغاية. هل أنتِ ذاهبة لمكان ما؟»

ذهبت ماري ومالت على سريره، وقالت: «لن أغيب طويلًا. أنا ذاهبة إلى ديكون، لكني سأعود. إنه ... إنه أمر يتعلق بالحديقة يا كولن.»

تهلَّل وجهه بالكامل وسرى لون خفيف.

صاح قائلًا: «أوه! حقًّا؟ لقد كنت أحلم بها طوال الليل. سمعتُكِ تقولين شيئًا عن تحول اللون الرمادي إلى اللون الأخضر، فحلمتُ بأني أقف في مكان مليء بأوراق خضراء صغيرة متراقصة، وبه طيور رابضة على أعشاشها في كل مكان وبدت رقيقةً وهادئةً للغاية. سأستلقي وأفكر في هذا إلى حين عودتك.»

في غضون خمس دقائق كانت ماري بصحبة ديكون في حديقتهما. كان الثعلب والغراب معه مرةً أخرى، وهذه المرة جلب معه سنجابَين أليفين. قال لها: «جئتُ على ظهر المُهر هذا الصباح. ياه، يا له من فتًى طيب، اسمه جامب! أما هذان الاثنان فقد أحضرتهما في جيبي. هذا اسمه نَت وهذا اسمه شِل.»

حين قال «نَت»، قفز أحد السنجابين على كتفه اليمنى، وحين قال «شِل» قفز الآخر على كتفه اليسرى.

حين جلسا على الحشائش وجلس كابتن متقوقعًا عند أقدامهما، وظلَّ سوت يُنصت لهما بجدية من فوق إحدى الأشجار، وظل نَت وشِل يستكشفان المكان بالقرب منهما بأنفيهما، بدا لماري أنها لن تتحمَّل أن تترك مثل هذه السعادة، لكنها حين بدأت تروي قصتها، ظهرت على وجه ديكون الضاحك نظرة جعلتها بطريقة ما تُغيِّر رأيها بالتدريج. فقد رأت أنه شعر بالأسف على كولن أكثر منها. ثم نظر نحو السماء وما حوله، وقال: «فقط أنصتي للطيور، التي يبدو العالم زاخرًا بها، وهي تغرد وتُصفِّر. انظري إليها وهي تطير واستمعي لها وهي تنادي بعضها على بعض. فحين يأتي الربيع يبدو أن العالم بأكمله يُنادي. وتنسدل الأوراق حتى يُصبح بإمكانك رؤيتها، و... يا إلهي، يا لتلك الروائح العطرة التي يعبق بها المكان!» وبدأ يتنشق بأنفه الصغير، ثم واصل قائلًا: «وهذا الفتى المسكين يرقد حبيسًا بمفرده ولا يرى إلا أشياء قليلة، مما يجعله يفكر في أمور تدفعه إلى الصراخ. يا إلهي! لا بد أن نخرجه ونحضره إلى هنا، لا بد أن نجعله يشاهد هذا ويستمع إليه ويشم رائحة الهواء ونجعل الشمس تغمر جسده. وعلينا ألا نضيع أي وقت.»

كان ديكون حين يهتمُّ بشيء ما اهتمامًا بالغًا، يتحدث بلهجة يوركشاير الصريحة على الرغم من أنه في أوقات أخرى يحاول تعديل لهجته بعض الشيء حتى تستطيع ماري فهمه. لكن ماري كانت تحب لهجته الصريحة، بل كانت تحاول تعلم الحديث بها. ولهذا تحدثت بها قليلًا في هذا الموقف.

قالت: «أجل، علينا هذا. سأخبرك بما سنفعله أولًا.» فضحك ديكون؛ لأنه حين حاولت هذه الفتاة الصغيرة تغيير لهجتها لتتحدث بلهجة يوركشاير، أضحكه ذلك كثيرًا.

«إنه معجب بكَ كثيرًا ويريد رؤيتك ورؤية سوت وكابتن. حين أعود للمنزل لأتحدث معه سأسأله إن كان بإمكانك أن تأتي لرؤيته صباح الغد، وتُحضر معك هذه الكائنات، ثم بعد حين، حين تتفتح المزيد من الأوراق ويظهر برعم أو اثنين، سنجعله يخرج وستدفعه أنت في كرسيه ونحضره إلى هنا ونريه كل شيء.»

حين أنهت حديثها كانت بالفعل فخورة بنفسها. فلم يسبق لها أن أسهبت في الحديث بلهجة يوركشاير من قبل وكانت تتذكرها على نحو جيد للغاية.

ضحك ديكون وقال: «لا بدَّ أن تتحدثي بلهجة يوركشاير قليلًا على هذا النحو مع السيد كولن، فهذا سيجعله يضحك وما من شيء أفضل من الضحك للمرضى. تقول أمي إنها تعتقد أن نصف ساعة من الضحك كل صباح يمكنها علاج فتًى على وشك الإصابة بحمى التيفويد.»

قالت ماري وهي تضحك: «سأتحدث معه بلهجة يوركشاير اليوم.»

وصلت الحديقة إلى مرحلة بدت فيها أنه مع مرور كل يوم وكل ليلة كما لو أن سَحَرة يمرون عليها ويَستخرجون جمالًا من الأرض والأغصان بعصًا سحرية. كان من الصعب الذهاب وترك كل هذا، خاصةً أن نَت كان بالفعل قد زحف إلى ثوبها وتقوقع شِل على نفسه عند جذع شجرة التفاح التي جلسا تحتها وظل ينظر إليها بعينين متسائلتين. ولكنها عادت إلى المنزل وحين جلست بالقرب من سرير كولن، بدأ يشمُّ تمامًا مثلما يفعل ديكون وإن لم يكن بالحرفية نفسها.

صاح في سعادة وابتهاج: «إن رائحتك مثل رائحة الورد والأشياء المنعشة، ما هذه الرائحة المنبعثة منكِ؟ إنها رائحة باردة ودافئة وجميلة، كلٌّ في آنٍ واحد.»

قالت ماري: «إنها الرياح القادمة من المستنقع، إن هذه الرائحة تأتي من الجلوس على الحشائش أسفل إحدى الأشجار مع ديكون وكابتن وسوت ونَت وشِل. إنها تلك الرائحة المنعشة الذكية للربيع والخروج من المنزل وضوء الشمس.»

كان تتحدَّث بلهجة يوركشاير الصريحة قدر المستطاع، ولا يمكن للمرء معرفة مدى اتِّساع لهجة يوركشاير إلا حين يسمع أحدًا يتحدث بها. بدأ كولن يضحك.

قال: «ماذا تفعلين؟ لم أسمعك تتحدَّثين هكذا من قبل. يا لهذه اللهجة المضحكة!»

أجابته ماري بنبرة انتصار: «إنني أُسمِعك بعضًا من لهجة يوركشاير. لعلي لا أتقنها جيدًا مثل ديكون ومارثا، لكنك كما ترى أجيدها بقدر ما. ألا تفهم بعضًا من لهجة يوركشاير حين تسمعها؟ فأنت تنتمي ليوركشاير، ولادةً ونشأةً. يا إلهي! أتساءل كيف لا تشعر بالخجل من نفسك.»

وبدأت تضحك هي الأخرى، وظلَّ الاثنان يضحكان حتى لم يعد بإمكانهما التوقف وظلا يضحكان حتى دوَّى صوت ضحكهما في الغرفة في الوقت الذي كانت فيه السيدة ميدلوك تفتح باب الغرفة لتدخل، ما جعلها تتراجع إلى الرواق ووقفت تستمع إليهما في ذهول.

قالت متحدِّثة بلهجة يوركشاير هي الأخرى لعدم وجود أحد ليسمعها وكانت تشعر بذهول بالغ: «يا إلهي! لم يسمع أحد قط مثل هذا الصوت من قبل! مَن كان يصدق!»

كان ثمَّة الكثير للحديث بشأنه، وبدا كما لو كان كولن لا يكتفي أبدًا من الحديث عن ديكون وكابتن وسوت ونَت وشل، وذلك المهر الصغير الذي يُدعى جامب. كانت ماري قد تجوَّلت في الغابة هنا وهناك برفقة ديكون لترى جامب. كان مُهرًا صغيرًا للغاية من مهور المستنقع، أشعث الشعر تتدلَّى على عينيه خصلتان كثيفتان من الشعر وكان ذا وجه جميل وأنف مخملي يُمرغها في الأشياء. كان نحيفًا للغاية من أثر الاقتيات على حشائش المستنقع، لكنه كان قويًّا وصلدًا رغم نحوله كما لو كانت عضلات سيقانه الصغيرة مصنوعة من زُنبُرك من الصلب. رفع رأسه وأصدر أنينًا رقيقًا لحظة رؤيته لديكون وهرول إليه ووضع رأسه على كتفه، ثم تحدَّث إليه ديكون في أذنه وتحدَّث جامب إلى ديكون بدوره بأصوات غريبة وخفيضة من الأنين والنفخ والصهيل. جعله ديكون يعطي ماري حافره الأمامي الصغير ويُقبِّلها على وجنتها بفكه المخملي.

سألها كولن: «هل يفهم كل ما يقوله ديكون حقًّا؟»

أجابته ماري: «يبدو ذلك. يقول ديكون إنه يفهم أي شيء طالما كنت صديقًا له، لكن بالتأكيد عليك أن تصادقه أولًا.»

استلقى كولن صامتًا لبعض الوقت وبدت عيناه الرماديتان الغريبتان تُحدِّقان في الحائط، لكن ماري رأت أنه كان يفكر.

قال أخيرًا: «أتمنى لو كنتُ قد صادقت الأشياء، لكني لم أفعل. فلم يكن لديَّ أي شيء قط كي أصادقه، وأنا لا أتحمَّل البشر.»

سألته ماري: «ألا تستطيع أن تتحمَّلني؟»

أجابها: «بلى أستطيع. قد يكون ذلك غريبًا، لكنني أحبك.»

قالت ماري: «قال بِن ويذرستاف إني أشبهه. لقد قال إنه متأكد من أن كلينا لديه الطباع البغيضة نفسها. وأعتقد أنك أيضًا تشبهه؛ فنحن الثلاثة يُشبه بعضُنا بعضًا؛ أنا وأنت وبِن ويذرستاف. لقد قال إن كلينا له شكل لا يسرُّ الناظرين، وأن طبعنا سيئ

تمامًا مثل شكلنا. لكني لا أشعر أن طبعي ما زال سيئًا كما كان من قبل أن أتعرَّف على أبي الحنَّاء وديكون.»

«هل تشعرين كما لو أنكِ تكرهين الناس؟»

أجابته ماري دون أي تأثُّر: «أجل، وكنتُ سأكرهك لو كنتُ قد قابلتك قبل أن أرى أبا الحنَّاء وديكون.»

مد كولن يده النحيلة ولمسها، وقال: «ماري، ليتني لم أقل ما قلتُه من قبل عن طرد ديكون. فقد كرهتكِ حين قلتِ إنه مثل الملاك وسخرتُ منكِ، لكنه ... لكنه قد يكون كذلك بالفعل.»

اعترفت له صراحة وقالت: «حسنًا، لقد كان غريبًا أن أقول ذلك؛ لأن أنفه صغير وطرفه مستوٍ وفمه كبير وملابسه مغطاة بالرقع ويتحدَّث بلهجة يوركشاير الصريحة، لكن ... لكن لو أن ملاكًا جاء ليعيش في يوركشاير عند المستنقع — إن حدث ووُجِد ملاك في يوركشاير — أعتقد أنه كان سيفهم الأشياء الخضراء ويعرف كيف يجعلها تنمو، وسيعرف كيف يتحدث مع الكائنات البرية، تمامًا مثلما يفعل ديكون، وكانت ستعرف أنه صديق لهم بكل تأكيد.»

قال كولن: «لا أمانع أن ينظر ديكون إليَّ؛ فأنا أريد رؤيته.»

أجابته ماري: «يسعدني أن تقول هذا، لأن ... لأن ...»

وفجأة خطر لها أن هذا هو الوقت المناسب لإخباره، وعلم كولن أنه على وشك أن يسمع شيئًا جديدًا.

صاح بلهفة: «لأن ماذا؟»

كانت ماري في غاية التوتر فنهضت من مقعدها ودنت منه وأمسكت بكلتا يديه.

قالت له في توسُّل: «هل يمكنني الوثوق بك؟ لقد وثقتُ في ديكون لأن الطيور تثق فيه. فهل يمكنني الوثوق بك دون شك؟»

كان وجهها جادًّا للغاية لدرجة جعلته يجيب بصوت أقرب ما يكون إلى الهمس.

«أجل ... أجل!»

«حسنًا، سيأتي ديكون لرؤيتك صباح الغد، وسيُحضِر كائناته معه.»

صاح كولن في فرح: «يا إلهي! يا إلهي!»

تابعت ماري، وقد قارب لونها على الشحوب من الإثارة الوقورة: «لكن هذا ليس كل شيء؛ فالقادم أفضل. يوجد باب للحديقة السرية، وقد عثرتُ عليه، إنه تحت أفرع اللبلاب التي على الجدار.»

لو كان كولن فتًى قويًّا عفيًّا، لربما صاح «مرحى! مرحى! مرحى!» لكنه فتى ضعيف وانفعالي بعض الشيء؛ فاتَّسعت عيناه أكثر وأكثر وأخذ يلهث محاولًا التقاط أنفاسه.

صاح شاهقًا بعض الشيء: «أوه. هل يُمكنني رؤيتها يا ماري؟ هل يمكنني الدخول إليها؟ هل سأعيش حتى أستطيع الدخول إليها؟» وأطبق على يديها وجذبها نحوه.

ردَّت ماري في عنف وسخط: «بالطبع ستراها! بالطبع ستعيش حتى تدخلها! لا تكن سخيفًا!»

ولم تكن منفعلة على الإطلاق في ردِّها وكانت طبيعية وطفولية على نحو أعاده إلى رشده وبدأ يضحك على نفسه وبعد بضع دقائق عادت لتَجلس على مقعدها مرةً أخرى وتخبره ليس بما تتخيله عن الحديقة السرية، بل بما هي عليه في الواقع، ونسيَ كولن آلامه وتعبه وظل يستمع إليها في بهجة بالغة.

قال لها في النهاية: «تمامًا كما تخيلتِها أنت. يبدو كما لو أنكِ رأيتها بالفعل. أتعلمين، لقد قلت هذا حين أخبرتِني عنها لأول مرة.»

تردَّدت ماري لدقيقتين ثم أفصحت له عن الحقيقة بشجاعة.

قالت: «لقد رأيتُها بالفعل، ودخلتُها أيضًا. لقد عثرتُ على المفتاح ودخلتُها منذ أسابيع مضت. لكني لم أجرؤ على إخبارك ... لم أجرؤ لأني كنتُ أخشى ألا أستطيع الوثوق بك على نحو مؤكد.»

الفصل التاسع عشر

«لقد حلَّ!»

بالطبع أرسلوا في طلب الطبيب كرافن في صباح اليوم التالي لنوبة كولن العصبية؛ فقد كانوا دومًا يرسلون في طلبه فور حدوث أشياء مثل هذه، ودائمًا حين يصل يجد فتًى شاحب اللون يرتعش، مستلقيًا في سريره في عبوس ولا يزال في حالة هستيرية حادة، لدرجة أن لديه استعدادًا للانفجار في نحيب جديد على أقل كلمة. في الواقع كان الطبيب كرافن يفزع من الصعوبات التي تواجهه في هذه الزيارات ويكرهها كثيرًا. أما هذه المرة، فلم يأتِ إلى ضيعة ميسلثويت حتى حلول العصر.

سأل السيدة ميدلوك في غضب حين وصل: «كيف حاله؟ سوف يتسبَّب في انفجار أحد شرايينه في يوم من الأيام في مثل هذه النوبات. إنه يُشارف على الجنون من الهستيريا والتدليل المفرط.»

أجابته السيدة ميدلوك: «حسنًا يا سيدي، لن تصدِّق عينيك حين تراه. إن تلك الطفلة ذات الوجه العابس التي لا تقلُّ عنه سوءًا قد سحرته. ولا يدري أحد كيف فعلت هذا. فالرب وحده يعلم أن ليس بها ما يسرُّ الأعين، ونادرًا ما تتحدث، لكنها فعلت ما لم يجرؤ أحد منا على فعله. فقد انقضت عليه مثل قطة صغيرة في الليلة الماضية، وضربت الأرض بقدمَيها وأمرته بأن يتوقف عن الصراخ، وروعته إلى حدٍّ ما لدرجة أنه توقَّف بالفعل، وفي عصر اليوم ... حسنًا يمكنك أن تأتي وتنظر بنفسك يا سيدي. إن الأمر يفوق حد التصديق.»

كان المشهد الذي رآه الطبيب كرافن حين دخل غرفة مريضه بالفعل مذهلًا بالنسبة إليه؛ فحين فتحت السيدة ميدلوك الباب سمع صوت ضحك وثرثرة. كان كولن على أريكته مرتديًا رداء نومه، ويجلس منتصبًا معتدل الظهر إلى حدٍّ ما ينظر إلى إحدى الصور في واحد من كتب العناية بالحدائق، ويتحدَّث إلى الطفلة العادية الملامح التي كان من

الصعب في هذه اللحظة وصفها بأنها عادية الملامح على الإطلاق؛ إذ كان وجهها متوهجًا من الاستمتاع.

كان كولن يقول: «إن تلك الأعمدة الطويلة الزرقاء ... سيكون لدينا الكثير منها. إنها تُدعى دل-فين-يوم.»

صاحت الآنسة ماري: «يقول ديكون إنها عوائق نمَت لتُصبح كبيرة وطويلة، وتوجد مجموعات منها بالفعل.»

حينها رأى الاثنان الدكتور كرافن وتوقَّفا عن الحديث، والتزمت ماري الصمت التام فيما بدا كولن مضطربًا.

قال الدكتور كرافن بقليل من العصبية: «يؤسفني ما سمعته عن إصابتك بالإعياء الليلة الماضية يا بني.» وكان رجلًا عصبيًّا بطبعه.

رد كولن كما لو كان أميرًا هنديًّا صغيرًا: «أنا أحسن حالًا الآن ... أحسن بكثير. سأخرج من المنزل على مقعدي المتحرك في غضون يوم أو يومين إن كان الجو صحوًا. فأنا أريد استنشاق بعض الهواء النقي.»

جلس الدكتور كرافن بجواره وتحسَّس نبضه ونظر إليه بفضول شديد.

قال: «لا بدَّ أن يكون هذا في يوم صحو للغاية، ولا بد أن تنتبه جيدًا حتى لا تجهد نفسك.»

قال الأمير الهندي الصغير: «إن الهواء النقي لن يتعبني.»

لم يكن ثمَّة ما يثير العجب فيما شعر به الطبيب من دهشة؛ فهذا الفتى الصغير نفسه كان في بعض الأحيان يملأ الأجواء صراخًا من الغضب وكان يصرُّ على أن الهواء النقي سيصيبه بالبرد ويقتله.

قال له: «لقد اعتقدتُ أنك لا تحب الهواء النقي.»

أجاب الأمير الصغير: «لا أحبه حين أكون وحدي، لكن ابنة خالي ستخرج معي.»

قال الدكتور كرافن مقترحًا: «والممرِّضة بالطبع، أليس كذلك؟»

قال كولن: «كلا، لن آخذ الممرضة معي.» قالها بعظمة حتى إن ماري لم يسعها إلا أن تتذكر شكل الأمير الهندي الصغير بالجواهر والزمرد واللآلئ التي تُغطيه وأحجار الياقوت الضخمة على يده الداكنة الصغيرة التي كان يلوح بها آمرًا خدمه بالاقتراب منه والانحناء وتقديم التحية له وتلقي أوامره.

«إن ابنة خالي تعرف كيف تعتني بي، وأنا دومًا ما أكون أفضل حالًا حين تكون معي. لقد جعلتْني أشعر بتحسن الليلة الماضية، وهناك فتًى قوي للغاية أعرفه سيدفع مقعدي.»

شعر الطبيب كرافن بالانزعاج بعض الشيء؛ فإن حصل هذا الفتى الانفعالي المتعَب على فرصة لتحسُّن حالته، سيفقد هذا الطبيب نفسه كل فرصة له في أن يرث ميسلثويت، لكنه لم يكن رجلًا عديم الضمير، على الرغم من كونه ضعيف الشخصية، ولم يكن يَنوي تعريض الفتى لأي خطر حقيقي.

قال: «لا بدَّ أن يكون فتًى قويًّا ورزينًا، ولا بد أن أعرف بعض المعلومات عنه. من هو؟ وما اسمه؟»

تحدثت ماري فجأة: «إنه ديكون»؛ فقد شعرت إلى حدٍّ ما أن أي شخص يعرف المستنقَع لا بدَّ أن يعرف ديكون. وكانت على حق في هذا أيضًا؛ فقد رأت وجه الدكتور كرافن الجاد المتوتر وقد ارتخى وظهرت عليه ابتسامة ارتياح.

قال: «آه، ديكون. إن كان ديكون، فستكون في أمانٍ بما يكفي؛ فهو فتًى قوي مثل مُهر المستنقع؛ إنه ديكون!»

قالت ماري: «ومؤتمَن أيضًا. إنه أكثر فتًى جدارةً بالثقة في يوركشاير كلها.» كانت تتحدث بلهجة يوركشاير، كما كانت تتحدث إلى كولن، ونسيت نفسها.

سألها الطبيب كرافن وهو يضحك بلا تحفظ: «هل علَّمكِ ديكون ذلك؟»

قالت ماري ببعض البرود: «إنني أتعلم هذه اللهجة كما لو أنني أتعلم الفرنسية. إنها تشبه إحدى اللهجات المحلية في الهند، والأشخاص شديدو الذكاء فقط هم من يُحاولون تعلمها. أنا أحبها كثيرًا وكولن أيضًا.» قال الطبيب: «حسنًا، حسنًا، إن كنتِ تستمعين بها، فإنها لن تضرَّك. هل تناولتَ دواءك المهدئ ليلة أمس يا كولن؟»

رد كولن: «كلا، لم أتناوله في البداية، وبعدما هدأتني ماري، أخذت تتحدث إليَّ بصوت خفيض وتُخبرني عن زحف الربيع على إحدى الحدائق حتى خلدتُ إلى النوم.»

قال الطبيب كرافن، وهو أكثر ارتباكًا من ذي قبل، وينظر جانبًا نحو الآنسة ماري التي كانت جالسة على مسند القدمين وتنظر في صمت نحو السجادة: «يبدو هذا مهدئًا بالفعل. من الواضح أنك أفضل حالًا، لكن عليك أن تتذكر ...»

قاطعه كولن، وقد تحوَّل إلى أمير هندي صغير مرةً أخرى: «لا أريد تذكر أي شيء؛ فحين أستلقي وحدي وأتذكر، أبدأ في الشعور بالآلام تداهم كل مكان في جسدي، وأفكر

في أشياء تجعلني أبدأ في الصراخ، لأني أكرهها كثيرًا. لو كان يوجد طبيب في أي مكان يستطيع أن يجعل المرء ينسى المرض بدلًا من تذكره، لأحضرته إلى هنا.» وأشار بيد نحيلة كان من المفترض أن تكون مغطاة بخواتم ملكية من الياقوت وأردف قائلًا: «إن حالتي تتحسَّن لأن ابنة خالي تجعلني أنسى.»

لم يقم الطبيب كرافن بزيارة قصيرة كهذه بعد «نوبة غضب» من قبل؛ فعادةً ما كان يضطر إلى البقاء لفترة طويلة للغاية وفعل الكثير من الأشياء. ففي عصر ذلك اليوم لم يكتب أي أدوية، ولم يترك أي أوامر جديدة، ولم يتعرَّض لأي مناظر بغيضة. حين نزل إلى الطابق السفلي، بدا منهمكًا في التفكير، وحين تحدث إلى السيدة ميدلوك في المكتبة، شعرت بحيرته البالغة.

بادرته قائلة: «حسنًا يا سيدي، أيُمكنك أن تصدق هذا؟»

قال الطبيب: «هذا وضع جديد بالتأكيد، ولا يُمكن إنكار أنه أفضل من الوضع القديم.»

قالت السيدة ميدلوك: «أعتقد أن سوزان سويربي محقَّة؛ فقد مررتُ على كوخها في طريقي إلى ثوايت أمس وتحدثتُ معها قليلًا. وقد قالت لي: «حسنًا يا سارة آن، ربما لا تكون طفلة جيدة، وربما لا تكون طفلة جميلة، لكنها طفلة في النهاية، والأطفال بحاجة إلى أطفال آخرين.» لقد كنا نرتاد المدرسة نفسها أنا وسوزان سويربي.»

قال الطبيب كرافن: «إنها أفضل ممرِّضة للمرضى عرفتها على الإطلاق؛ فحين أراها في كوخٍ ما، أعرف أن فرَصي في إنقاذ مريضي كبيرة.»

ابتسمت السيدة ميدلوك؛ فقد كانت تحبُّ سوزان سويربي حبًّا جمًّا.

واصلت حديثها بطلاقة: «إن لسوزان طريقة خاصة في التعامل معها. لقد ظللتُ أفكر طوال الصباح في شيء قالته لي يوم أمس؛ إنها تقول: «ذات مرة حين كنتُ أعظ الأطفال بعد عراكهم معًا قلتُ لهم: حين كنتُ في المدرسة، تعلمتُ في الجغرافيا أن العالم يُشبه ثمرة البرتقال في شكلها، وأدركتُ قبل أن أبلغ العاشرة أن البرتقالة كلها لا تخص شخصًا بعينه. ولا أحد يعرف أكثر من الربع الخاص به، وثمة أوقات يبدو فيها أن عدد الأرباع لا يكفي لاكتمال البرتقالة. لكن لا يظن أحدكم أبدًا أنه يمتلك البرتقالة بأكملها وإلا سيكتشف أنه مخطئ في ذلك، ولن تأتي هذه المعرفة دون خسائر.» وتقول أيضًا: «إن ما يتعلمه الأطفال من بعضهم أنه لا طائل من التمسك بالبرتقالة بأكملها، بكل ما فيها حتى القشور. وإن حدث هذا، فعلى الأرجح أنك لن تحصل حتى على البذور وهي شديدة المرارة».»

قال الطبيب كرافن وهو يرتدي معطفه: «إنها امرأة فَطِنة.»

أنهت السيدة ميدلوك الحوار وهي سعيدة للغاية: «حسنًا، إن لديها طريقة للتعبير عن الأشياء. أحيانًا كنت أقول لها: «سوزان، لو كنتِ امرأةً مختلفةً ولا تتحدَّثين بلهجة يوركشاير هكذا، لقلتُ عنك في كثير من الأوقات إنك امرأة ذكية».»

في تلك الليلة نام كولن دون أن يستيقظ ولو مرة واحدة، وحين فتح عينيه في الصباح استلقى ساكنًا وابتسم دون أن يشعر ... ابتسم لأنه شعر براحة غريبة. لقد كان سعيدًا حقًّا بأنه قد استيقظ من النوم، وأخذ يتقلَّب ويمدد أطرافه ويتمطى بتلذذ. فقد شعر كما لو أن خيوطًا مشدودة كانت تقيد حركته قد ارتخت وحرَّرته من قبضتها. لم يكن يعرف أن الطبيب كرافن كان سيقول إن أعصابه قد استرخت وهدأت. وبدلًا من أن يبقى مستلقيًا يُحدِّق في الحائط ويتمنَّى لو أنه لم يستيقظ، كان ذهنه منشغلًا بالخطط التي وضعها هو وماري يوم أمس، وبصور الحديقة وديكون وكائناته البرية. كان من الرائع أن يكون لديه ما يفكر فيه. ولم يمضِ على استيقاظه عشر دقائق حتى سمع وقْع أقدام تركض عبر الرواق وكانت ماري تقف عند الباب. وفي اللحظة التالية دخلت إلى الغرفة وركضت نحو السرير وقد أحضرت معها نسمة من الهواء النقي العابق برائحة الصباح.

صاح قائلًا: «لقد خرجتِ! لقد خرجتِ! تفوح منك تلك الرائحة الجميلة للأوراق!»

لقد كانت تركض وكان شعرها مفكوكًا ومتطايرًا من الهواء، وكان وجهها يتألَّق من نقاء الهواء ووجنتاها تَشعَّان حُمرةً، لكنه لم يستطع رؤية كل هذا.

قالت وهي تلهث من السرعة: «إنه شديد الجمال! إنك لم ترَ شيئًا في مثل هذا الجمال! لقد حلَّ! كنتُ قد ظننتُ أنه قد جاء في صباح ذلك اليوم، لكنه كان على وشك المجيء فقط. أما الآن فقد حلَّ! لقد حلَّ الربيع! إن ديكون يقول هذا!»

صاح كولن: «حقًّا؟» وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف أي شيء عنه، فقد شعر بقلبه يخفق بقوة، وجلس منتصبًا في سريره.

أضاف قائلًا، وهو يضحك ضحكة نصفها مما به من إثارة وسعادة، ونصفها الآخر سخرية من خياله: «افتحي النافذة! ربما يُمكننا سماع الأبواق الذهبية!»

وعلى الرغم من أنه كان يضحك، كانت ماري عند النافذة في لحظة، وفي لحظة أخرى فتحتها على مصراعيها، فتدفق إلى الغرفة كل ما في الجو من نقاء وعذوبة وروائح وأغاريد الطيور.

قالت له: «هذا هو الهواء النقي. استلقِ على ظهرك وخذ أنفاسًا عميقة منه. هذا ما يفعله ديكون حين يكون مستلقيًا على المستنقع. إنه يقول إنه يشعر بالهواء يتغلغل في عروقه ويمنحه قوةً، ويشعر أن بإمكانه أن يعيش إلى الأبد. هيَّا استنشقه، هيَّا.»

كانت فقط تُكرِّر ما أخبرها به ديكون، لكنها جذبت انتباه كولن.

قال: «إلى الأبد! أهذا يجعله يشعر بهذا الشعور؟» وفعل كما أخبرته، وأخذ نفسًا عميقًا مرة تلو الأخرى حتى شعر بأن شيئًا جديدًا تمامًا ورائعًا يحدث له.

وذهبت ماري بجوار سريره مرةً أخرى.

ركضت مسرعةً وقالت: «إن الأشياء تتسارع للخروج من الأرض، وثمَّة أزهار تتفتَّح، وبراعم في كل مكان، والستار الأخضر غطَّى كل اللون الرمادي تقريبًا والطيور تسارع ببناء أعشاشها خوفًا من أن تكون قد تأخَّرت، حتى إن بعضها يتشاجر على أماكن في الحديقة السرية. وتبدو شجيرات الورد مثل الفتيل، وأزهار الربيع منتشرة في كل الممرات والغابات، وشقَّت البذور التي زرعناه طريقها إلى سطح الأرض، وأحضر ديكون الثعلب والغراب والسنجابين وحَمَلًا حديث الولادة.»

ثم توقفت برهة لتلتقط أنفاسها. كان ديكون قد عثر على الحَمَل حديث الولادة منذ ثلاثة أيام راقدًا بجوار أمه المتوفاة بين شجيرات الجولق في المستنقع. لم يكن هذا أول حَمَل يتيم يعثر عليه، وكان يعرف كيف يتصرَّف معه. فقد أخذه إلى الكوخ ملفوفًا في سترته وجعله يستلقي بجوار المدفأة وأطعمه حليبًا دافئًا. كان مخلوقًا رقيقًا ذا وجه طفولي جميل وكانت أرجله طويلة نوعًا ما بالنسبة إلى جسده. حمله ديكون بين ذراعيه إلى المستنقع ووضع زجاجة الحليب في جيبه مع سنجاب، وحين جلست ماري تحت إحدى الأشجار وربض في حجرها بدفئه الضعيف شعرت كما لو أن ثمَّة سعادة غريبة تغمرها وتمنعها من الكلام. إنه حَمَل، ... حَمَل! حَمَل حي يرقد في حِجرها مثل طفل رضيع!

كانت تصفه بسعادة كبيرة وكولن يُنصت إليها ويأخذ أنفاسًا عميقة من الهواء حين دخلت الممرضة إلى الغرفة. جفلت قليلًا حين رأت النافذة مفتوحةً، وهي من كانت تجلس مختنقةً في هذه الغرفة في كثير من الأيام الدافئة لمجرَّد أن مريضها كان متأكدًا من أن النوافذ المفتوحة تصيب الناس بنزلات البرد.

سألته قائلةً: «أمتأكد من أنك لا تشعر بالبرد، يا سيد كولن؟»

أجابها: «كلا، فأنا أستنشق أنفاسًا عميقة من الهواء النقي. إن هذا يَجعلني قويًّا، وسأنهض إلى الأريكة لتناول الإفطار. إن ابنة خالي ستتناول الإفطار معي.»

خرجت الممرضة وهي تبتسم خفيةً، لتُعطي الأوامر بتحضير وجبتي إفطار. طالما كانت تجد بهو الخدم مكانًا مسليًا أكثر من غرفة مريضها، والآن يريد الجميع سماع الأخبار عن الدور العلوي. وجدت الكثير من المزاح حول الشاب المنعزل الصغير غير المحبوب، الذي كما قال الطاهي: «وجد سيده، وهذا أفضل له.» فقد ضجر بهو الخدم من النوبات العصبية، وكبير الخدم، الذي كان لديه أسرة، عبَّر عن رأيه أكثر من مرة بأنه سيكون من الأفضل للمريض أن يجد له «مخبأ جيدًا.»

حين جلس كولن على الأريكة ووُضِعت وجبتا الإفطار على الطاولة وجَّه إخطارًا إلى الممرضة بأسلوب الأمير الصغير.

«سيأتي فتًى ومعه ثعلب وغراب وسنجابين وحَمَل حديث الولادة لزيارتي هذا الصباح. أريد إحضارهم جميعًا إليَّ في الطابق العلوي بمجرد وصولهم. عليكِ ألا تبدئي في اللعب مع الحيوانات وتبقيها في بهو الخدم؛ فأنا أريدها عندي هنا.» شهقت الممرضة قليلًا وحاولت إخفاء الأمر بسعال بسيط.

أجابت: «حاضر يا سيدي.»

أضاف كولن وهو يُلوِّح بيده: «سأخبركِ بما يمكنك أن تفعلي؛ يمكنك أن تخبري مارثا بأن تُحضرها جميعًا إلى هنا. فالفتى هو شقيق مارثا، واسمه ديكون وهو مروِّض حيوانات.»

قالت الممرضة: «أرجو ألا تكون هذه الحيوانات تعض يا سيد كولن.»

قال لها كولن عابسًا: «قلتُ لكِ إنه مروض، وحيوانات المروض لا تعضُّ أبدًا.»

قالت ماري: «يوجد في الهند مُروِّضو ثعابين، ويمكنهم وضع رءوس ثعابينهم داخل أفواههم.»

ارتعشت الممرضة وقالت: «يا إلهي!»

تناول الاثنان إفطارهما وهواء الصباح المنعش يغمرهما. كان إفطار كولن إفطارًا رائعًا وراقبته ماري وهو يتناوله باهتمام بالغ.

قالت له: «سيزداد وزنك تمامًا كما حدث معي، فلم يكن لديَّ شهية قط للإفطار حين كنتُ في الهند، أما الآن فأنا أريد تناوله كل يوم.»

قال كولن: «لقد أردتُ تناول إفطاري هذا الصباح، ربما كان هذا بسبب الهواء المنعش، متى سيأتي ديكون في ظنك؟»

لم يستغرق الأمر طويلًا، فبعد عشر دقائق تقريبًا رفعت ماري يدها وقالت: «أنصت! هل تسمع صوت نعيق؟»

أنصت كولن وسمعه بالفعل، وكان أغرب صوت في العالم يُمكن سماعه داخل منزل؛ فقد كان نعيقًا غليظًا.

أجابها قائلًا: «أجل.»

قالت ماري: «إنه سوت، أنصت مرةً أخرى، هل تسمع صوت ثغاء ... ثغاءً خافتًا؟»

صاح كولن وقد تورَّدت وجنتاه: «آه، أجل!»

قالت ماري: «إنه صوت الحَمَل الحديث الولادة، إنه قادم.»

كان حذاء ديكون الطويل الذي يرتديه في أرض المستنقع سميكًا وثقيلًا، وعلى الرغم من محاولته السير بهدوء، كان يُصدر صوتًا ثقيلًا وهو يسير عبر الأروقة الطويلة. سمعه ماري وكولن وهو يسير ويسير، حتى عبر الباب المغطَّى بالبساط المطرَّز ووطأ بقدميه على السجادة الناعمة التي تفترش الممر المؤدِّي لغرفة كولن.

قالت مارثا وهي تفتح الباب: «فليسمح سيدي، هذا ديكون وكائناته.»

دخل ديكون مبتسمًا ابتسامته العريضة الجميلة، وهو يحمل الحمل الحديث الولادة بين ذراعيه والثعلب الصغير الأحمر يركض بجواره. أما نَت، فقد جلس على كتفه اليسرى وسوت على كتفه اليمنى، فيما برز رأس شِل وكفوفه من جيب معطفه.

اعتدل كولن ببطء في جلسته وظل يُحدِّق ويُحدِّق، تمامًا مثلما كان يُحدِّق حين رأى ماري لأول مرة، لكن هذه المرة كانت نظراته مليئة بالتعجُّب والسعادة. فالحقيقة أنه بالرغم من كل ما سمعه، لم يكن يتصوَّر على الإطلاق شكل هذا الفتى ومدى قرب ثعلبه وغرابه وسنجابيه وحَمَله منه هكذا، ومدى لُطفه معهم حتى تبدو هذه الكائنات جزءًا منه على هذا النحو. لم يتحدث كولن لفتًى في حياته من قبل، وكان شديد الارتباك من فرط سعادته وفضوله حتى إنه لم يفكر حتى في الكلام.

أما ديكون، فلم يشعر بذرة خجل أو ارتباك. لم يكن يشعر بالحرج لأن الغراب لم يكن يفهم لغته، وظل يُحدِّق فيه فحسب، ولم يتحدث إليه قط في أول لقاء بينهما. فهذا هو حال المخلوقات كلها حتى تبدأ في التعرف عليك. اتَّجه نحو أريكة كولن ووضع الحمل الحديث الولادة بهدوء في حِجره، وعلى الفور استدار المخلوق الصغير نحو رداء نومه المخملي، وشرع يمرغ أنفه في طياته، ويُقحم رأسه الأشعث بنفاد صبر لطيف في جانبه، وبالطبع لم يكن لأي فتًى أن يصمت وسط كل هذا.

صاح كولن قائلًا: «ماذا يفعل؟ ماذا يريد؟»

قال ديكون وقد اتَّسعت ابتسامته أكثر وأكثر: «إنه يريد أمه؛ فقد أحضرتُه لك جائعًا بعض الشيء لأنني كنتُ أعلم أنك تريد رؤيته وهو يأكل.»

وجثا على ركبتيه بجوار الأريكة وأخرج زجاجة الحليب من جيبه.

قال وهو يُدير الرأس الأبيض الصغير المكسو بالصوف بيده الرقيقة البنية: «هيا أيها الصغير، هذا ما تريده. ستستفيد من هذا أكثر مما ستستفيد من المعاطف الحريرية المخملية. هيا الآن.» ثم دفع الطرف المطاطي للزجاجة داخل فمه فبدأ الحمل في مصِّه بنشوة شرهة.

بعد ذلك لم يعد ثمَّة تساؤل عما يمكن أن يُقال؛ فحين خلد الحمل الصغير إلى النوم انهالت الأسئلة على ديكون كالسيل وأجاب عنها جميعًا. أخبرهما كيف عثر على الحمل عند شروق الشمس منذ ثلاثة أيام. كان واقفًا في المستنقع يستمع إلى طائر القُبَّرة ويراقبه وهو يطير ويرتفع أكثر وأكثر في السماء حتى صار مجرد نقطة في أعالي السماء الزرقاء.

«لم أعد أراه تقريبًا لكنني استطعت سماع تغريده، وتساءلتُ كيف يمكن للمرء سماعه وقد بدا كما لو أنه خرج من هذا العالم في لحظة، وعندها سمعتُ شيئًا آخر من على بُعد بين شجيرات الجولق. كان صوت ثُغاء ضعيف وعلمت على الفور أنه حَمَل حديث الولادة وجائع وعلمتُ أنه لم يكن ليشعر بالجوع إلا إن كان فقد والدته بشكل أو بآخر، وانطلقتُ بحثًا عنه. بحثتُ عنه كثيرًا. فقد دخلتُ بين شجيرات الجولق وخرجتُ منها ودرتُ حولها مرارًا وبدا لي دومًا أني أسلك المنعطف الخطأ. وأخيرًا رأيتُ لمحة من لون أبيض عند صخرة في أعلى المستنقع فتسلقتُ وعثرتُ على هذا الصغير شبه ميت من البرد والهزال.»

في أثناء حديثه ظل سوت يطير دخولًا وخروجًا عبر النافذة المفتوحة وينعق بإشارات إلى المشهد، بينما ذهب نَت وشِل في رحلات قصيرة داخل الأشجار الكبيرة بالخارج وظلا يركضان على الجذوع صعودًا وهبوطًا الجذوع ويتفقدان الفروع. أما كابتن فقد جلس متقوقعًا على نفسه بالقرب من ديكون، الذي جلس على سجادة المدفأة بحكم العادة.

تفقدوا الصور في كتب العناية بالحدائق وكان ديكون يعرف جميع الأزهار بأسماء بلادها ويعرف بالضبط أيها ينمو في الحديقة السرية.

قال وهو يشير إلى إحدى الأزهار التي كُتب تحتها اسم «أنقولية»: «لا أدري إن كان هذا اسمها، لكننا نطلق عليها اسم الحوضية، وتنمو هي وأزهار أنف العجل طبيعيًّا في الأسيجة، لكن هذه تنمو في الحدائق وهي أكبر وأضخم بكثير. وتوجد تجمُّعات كبيرة من أزهار الحوضية في الحديقة، وستبدو جميعها مثل حوض من فراشات زرقاء وبيضاء ترفرف عند ظهورها.»

صاح كولن قائلًا: «سأذهب لرؤيتها، سأذهب لرؤيتها!»

قالت ماري بجدية: «أجل، لا بدَّ من هذا، وعلينا ألا نُضيع أي وقت.»

الفصل العشرون

«سأحيا إلى أبد الآبدين»

لكنهم اضطروا للانتظار لأكثر من أسبوع؛ في البداية بسبب بعض الأيام العاصفة، ثم كان كولن مهدَّدًا بالإصابة بنزلة برد، وكان لتعاقُب الأمرَين أن يُدخلاه في حالة من الغضب والثورة، لكن كان أمامه الكثير من التخطيط الحذر والغامض، وكان ديكون يأتي كل يوم تقريبًا، وإن كان لبضع دقائق فقط، ليتحدث عما يحدث في المستنقع وفي الممرات والأسيجة الشجرية، وعلى حواف جداول الماء. وكانت الأشياء التي كان يُخبرهم بها بشأن منازل ثعالب الماء وحيوانات الغرير وفئران الماء، ناهيك عن أعشاش الطيور وفئران الحقل وجحورها، كافية لتجعل أوصالك ترتعش من فرط الإثارة عند سماع كل تفاصيلها الدقيقة من مروِّض للحيوانات، وتُدرك مدى الحماسة المُتَّقدة والتوتُّر المسيطرتين على سير العمل في هذا العالم الخفي.

قال ديكون: «إنها تُشبهنا تمامًا، الفرق الوحيد أن عليها بناء منازلها كل سنة، وهذا يجعلها شديدة الانشغال حتى إنها تتشاجَر شجارًا لطيفًا للانتهاء منها.»

غير أن الشيء الأكثر إمتاعًا في الأمر كان الاستعدادات التي لا بدَّ من إجرائها قبل نقل كولن بسرية كافية إلى الحديقة. فلا بد ألا يرى أحد الكرسي المتحرك وديكون وماري بعد عبورهم ركنًا معينًا من الشجيرات والدخول إلى الممشى القابع أمام الأسوار المغطاة باللبلاب. ومع كل يوم يمر، كان شعور كولن بأن الغموض المحيط بالحديقة هو أحد أكبر مفاتنها يتأكد أكثر وأكثر، ولا بد ألا يفسد أي شيء هذا. لا بد ألا يشكَّ أحد في وجود سر بينهم. لا بد أن يعتقد الناس أنه سيخرج فقط مع ماري وديكون لأنه يُحبهما ولا يعارض أن ينظرا إليه. تحدثوا طويلًا وبسعادة بالغة عن مسار رحلتهم. سيسيرون عبر هذا الممر ثم ذاك، ثم يعبرون الآخر، ثم سيدورون حول أحواض أزهار النافورة كما لو أنهم يتفقدون «نباتات الأحواض» التي كان كبير البستانيين، السيد روتش، يجهزها.

تبدو هذه خطة منطقية، حتى إن أحدًا لن يعتقد أحد أن ثمَّة أي شيء غامض. بعد ذلك سيَنعطِفون إلى الممرات الشجيرية ويسيرون فيها حتى يصلوا إلى الأسوار الطويلة. لقد أعدوا هذه الخطة بجدية وتفصيل تمامًا مثل خطط الزحف التي يعدها كبار الجنرالات في وقت الحرب.

تسربت بالطبع شائعات عن الأشياء الجديدة والغريبة التي تحدث في جناح المريض من بهو الخدم إلى ساحات الإسطبل وبين البستانيين، ومع ذلك تفاجأ السيد روتش حين تلقى في أحد الأيام أوامر من غرفة السيد كولن بأن عليه الحضور شخصيًّا إلى الغرفة التي لم يرها أي شخص غريب عن المنزل من قبل؛ إذ يرغب المريض بنفسه في التحدث معه.

قال لنفسه وهو يُبدل معطفه في عجالة: «حسنًا، حسنًا، ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ فصاحب السمو الملكي الذي كان محظورًا النظر إليه يَستدعي رجلًا لم تقع عيناه عليه من قبل.»

لم يكن السيد روتش عديم الفضول؛ فهو حتى لم يلمح الفتى من قبل، وسمع عشرات القصص المبالَغ فيها عن مظهره الغريب وتصرفاته الغريبة وانفعالاته الجنونية. أما أكثر شيء سمعه عنه أنه قد يموت في أي لحظة إلى جانب ما ورَد إليه من توصيفات خيالية لا حصر لها لظهره المحدب وأطرافه العاجزة من أشخاص لم يروه في حياتهم من قبل.

قالت السيدة ميدلوك وهي تقوده إلى أعلى عبر السلم الخلفي إلى الرواق المؤدِّي إلى الغرفة التي لا يزال الغموض يلفها حتى الآن: «إن الأوضاع تتغيَّر في هذا المنزل يا سيد روتش.»

أجابها: «لنأمل أن يكون التغيير للأفضل يا سيدة ميدلوك.»

واصلت حديثها قائلة: «لا يمكنها أن تتغيَّر إلى الأسوأ، وعلى غرابة هذا الوضع يجد بعض الأشخاص مزيدًا من السهولة في أداء مهامهم في ظل هذه الظروف. عليك ألا تتفاجأ يا سيد روتش إذا وجدت نفسك وسط حديقة حيوانات، ورأيت ديكون شقيق مارثا سويربي يكون في المنزل أكثر منك أو حتى مني.»

في الواقع كان هناك دومًا شيء أقرب إلى السحر بشأن ديكون، مثلما كانت ماري تعتقد دومًا في نفسها. وحين سمع السيد روتش اسمه ابتسم ابتسامة سمحة للغاية.

قال: «إنه يتصرَّف على سجيته سواء كان في قصر باكنجهام أو في قاع منجم فحم، ومع ذلك لا تجدين في ذلك أي وقاحة، فهو فتًى جيد.»

لعل كان إعداده هكذا لما سيراه شيئًا جيدًا ولولا ذلك لهاله المنظر. فحين فُتح باب غرفة النوم، وقف غراب ضخم، بدا أنه معتاد على المكان على الظهر المرتفع لكرسي مُزين بالنقوش، يعلن عن وجود زائر؛ إذ نعق بصوت عالٍ للغاية. وعلى الرغم من تحذير السيدة ميدلوك، تفادى السيد روتش بصعوبة فقدان وقاره بالقفز إلى الخلف من هول المفاجأة.

لم يكن الأمير الصغير في سريره ولا على الأريكة، بل كان يجلس في مقعد وثير ويقف بجواره حَمَل صغير يهز ذيله مثلما تفعل الحملان عند تناولها للطعام وديكون جاثٍ على ركبتيه يطعمه الحليب من زجاجته. كان ثمَّة سنجاب رابضًا على ظهر ديكون المنحني يقضم ثمرة جوز بانتباه بالغ. أما الفتاة الصغيرة القادمة من الهند، فكانت جالسةً على مسند قدمين كبير تراقب المشهد.

قالت السيدة ميدلوك: «ها هو السيد روتش يا سيد كولن.»

استدار الأمير الصغير وتفحَّص خادمه من رأسه إلى أخمص قدميه؛ على الأقل هذا ما شعر به كبير البستانيِّين.

قال له: «آه، أنت السيد روتش، أليس كذلك؟ لقد أرسلتُ في طلبك حتى أعطيك بعض الأوامر المهمة للغاية.»

رد السيد روتش: «حسنًا يا سيدي.» وهو يتساءل عما إذا كان سيتلقى تعليمات بإسقاط جميع أشجار البلوط في المتنزه أو بتحويل البساتين إلى حدائق مائية.

قال كولن: «سأخرج في مقعدي المتحرِّك بعد ظهر اليوم، وإن تحسنت صحتي على الهواء المنعش، ربما أخرج كل يوم. حين أخرج لا بدَّ ألا يقترب أي بستاني من الممشى الطويل بجوار أسوار الحديقة. غير مسموح بوجود أي شخص هناك. سأخرج في حوالي الساعة الثانية، وعلى الجميع البقاء بعيدًا حتى أُرسلَ أمرًا بإمكانية العودة إلى عملهم.»

أجاب السيد روتش، وهو يشعر بارتياح كبير لسماعه بأن أشجار البلوط ستظل في مكانها وبأن البساتين ما زالت في أمان: «حسنًا يا سيدي.» قال كولن وهو يلتفت إلى ماري: «ماري، ما الشيء الذي تقولونه في الهند عندما يُنهي المرء حديثه ويريد من الأشخاص الانصراف؟»

أجابت ماري: «تقول: «آذن لك بالانصراف».»

لوَّح الأمير الصغير بيده، وقال: «آذن لك بالانصراف الآن يا روتش، لكن تذكَّر، الأمر في غاية الأهمية.»

نعق الغراب بصوت أجش لكن دون وقاحة.

فقال السيد روتش: «حسنًا يا سيدي، شكرًا لك يا سيدي.» ورافقته السيدة ميدلوك إلى خارج الغرفة.

وفي الرواق في الخارج، ابتسم السيد روتش ذو الوجه البشوش حتى كاد يضحك، ثم قال: «يا إلهي! إن له أسلوبًا مهيبًا رائعًا، أليس كذلك؟ قد يظن المرء أن عائلة مالكة بأكملها تجسَّدت في شخص أمير واحد بكل ما فيها.»

اعترضت السيدة ميدلوك قائلةً: «حسنًا، لقد اضطُررنا لأن نتركه يتعالى على كل واحد منا منذ نعومة أظفاره، وهو يعتقد أن الناس قد وُلدوا لهذا الغرض.»

قال السيد روتش مقترحًا: «ربما يتخلَّص من هذا حين يكبر، إن كُتبت له الحياة.»

قالت السيدة ميدلوك: «حسنًا، ثمَّة أمر واحد مؤكَّد، وهو أنه لو ظل على قيد الحياة بالفعل وظلت هذه الطفلة الهندية موجودة هنا، فأنا متأكِّدة أنها ستعلمه أنه لا يملك ثمرة البرتقال بأكملها وحده، على حد قول سوزان سويربي. وعلى الأرجح أنه سيُدرك حجم الربع الخاص به منها.»

في داخل الغرفة، كان كولن يتكئ بظهره على وساداته، وقال: «كل شيء آمن الآن، وسأذهب لرؤيتها بعد الظهيرة، سأكون بداخلها بعد الظهيرة.»

عاد ديكون إلى الحديقة مع كائناته وبقيت ماري مع كولن. لم ترَ أنه يبدو متعبًا لكنه التزام الصمت التام قبل أن يأتي غداؤهما وظلَّ صامتًا طوال تناولهما له. تساءلت عن سبب هذا وسألته عن ذلك.

قالت له: «يا لعينيك الكبيرتين يا كولن! حين تفكر تتَّسعان فتصبحان كصحن الفنجان. فيمَ تفكر الآن؟»

أجابها قائلًا: «لا أستطيع منع نفسي من التفكير في شكله.»

سألته ماري: «أتقصد الحديقة؟»

قال لها: «أقصد الربيع. كنتُ أفكر في أنني لم أرَه من قبل على الإطلاق؛ فنادرًا ما كنت أخرج، وحين كنتُ أفعل، لم أكن أنظر إليه. لم أفكر حتى فيه من قبل.»

قالت ماري: «أما أنا فلم أرَه في الهند؛ لأنه لم يكن يوجد ربيع هناك.»

كان خيال كولن أوسع من خيالها بكثير؛ نظرًا لحياة العزلة والمرض التي عاشها، وعلى الأقل قضى وقتًا طويلًا يتفحَّص كتبًا رائعة وصورًا جميلة.

«حين دخلتِ مهرولة صباح اليوم وقلتِ «لقد حلَّ! لقد حلَّ!» جعلتني أشعر بشعور غريب. فقد بدا لي وكأن أشياء قادمةً في موكب مهيب وسط دفقات من الموسيقى الصاخبة المتدافِعة. توجد صورة تشبه هذا في أحد كتبي، بها حشود لأناس وأطفال روعة في الجمال

يحملون جميعًا أكاليل عليها أغصان مُزهِرة، والجميع يضحك ويرقص ويحتشد ويعزف على المزامير. ولهذا قلتُ: «ربما يمكننا سماع الأبواق الذهبية.» وطلبت منكِ أن تفتحي النافذة على مصراعيها.»

قالت ماري: «يا له من أمر غريب! هذا بالضبط ما يشعر به المرء. ولو رقصت جميع الأزهار والأوراق والبراعم الخضراء والطيور والكائنات البرية كلها في وقت واحد، سيكون حشدًا لا مثيل له! أنا متأكدة من أنها ترقص وتُغني وتعزف على المزمار ومن هنا ستأتي دفقات الموسيقى الصاخبة.»

وضحك الاثنان؛ ليس لأن الفكرة مضحكة، ولكن لأن كلاهما أحبها كثيرًا.

بعد مرور وقتٍ قصير جهَّزت الممرضة كولن للخروج، ولاحظت أنه بدلًا من الاستلقاء كلوح من الخشب في أثناء ارتدائه لملابسه، جلس منتصبًا وبذل بعض الجهد ليُساعد نفسه، وظل يتحدث مع ماري ويضحك معها طوال الوقت.

قالت للطبيب كرافن الذي مرَّ ليفحصه: «إنه اليوم في أفضل حالاته يا سيدي. فحالته المعنوية جيدة للغاية وهذا يزيده قوة.»

قال الطبيب كرافن: «سآتي مرةً أخرى في وقت متأخِّر من المساء، بعدما يكون قد عاد من الخارج. لا بد أن أرى تأثير الخروج على حالته.» ثم قال بصوت منخفض للغاية: «وآمل أن يدعك تذهبين معه.»

ردت عليه الممرضة بحزم مفاجئ: «أُفضل أن أترك الحالة الآن على الفور يا سيدي بدلًا من البقاء هنا أثناء إدلائك بهذا الاقتراح.»

قال الطبيب ببعض الانفعال: «لم أقرِّر اقتراح هذا عليه. دعينا نجرِّب الأمر، فأنا أثق في ديكون ويُمكنني أن آمنه على رضيع وأتركه في رعايته.»

حمل أقوى خادم في المنزل كولن إلى أسفل ووضعه في مقعده المتحرِّك الذي كان ديكون ينتظر بالقرب منه في الخارج. وبعدما انتهى الخادم من ترتيب أغطيته ووسائده، لوَّح الأمير الصغير بيده له وللمُمرضة.

قال: «آذن لكما بالانصراف.» وسرعان ما اختفى الاثنان، ولا بدَّ من الاعتراف بأنهما قد ضحكا بشدة حين أصبحا بأمان داخل المنزل.

بدأ ديكون يدفع المقعد المتحرِّك ببطء وثبات، وسارت الآنسة ماري بجواره واتكأ كولن إلى الخلف ورفع وجهه نحو السماء. بدا قوسها شديد الارتفاع وبدت السُّحب البيضاء الصغيرة كطيور بيضاء تطفو وهي تفرد أجنحتها تحت زرقتها البلورية. هبَّت

الرياح في نسمات كبيرة رقيقة من المستنقع وكانت غريبة وتعبق بعذوبة عطرة واضحة. ظلَّ كولن يرفع صدره النحيل ليستنشقها، وبدت عيناه الكبيرتان كما لو كانتا هما اللتان تستمعان وتنصتان بدلًا من أذنيه.

قال: «ثمَّة كثير من أصوات الغناء والطنين والنداءات، وما هذه الرائحة التي تحملها نفحات الرياح؟»

أجاب ديكون: «إنها رائحة نبات الجولق الذي تتفتَّح أزهاره في المستنقع. يا إلهي! إن النحل ينتشر في المكان على نحو مذهل اليوم.»

لم يكن ثمَّة أثر لبشر في الممرات التي ساروا فيها. فقد اختفى كل البستانيين وصِبيتهم تمامًا. إلا أنهم ظلوا يدخلون ويخرجون من بين الشجيرات ويدورون حول أحواض النافورة، اتِّباعًا لمسار خطتهم المحكمة لمجرد الحصول على متعة الغموض. ولكن حين انعطفوا إلى الممر الطويل أمام أسوار اللبلاب، جعلهم شعور الإثارة باقتراب حدوث أمر شيِّق، لسبب غريب لم يسعهم تفسيره، يبدءون في التحدُّث همسًا.

همست ماري قائلة: «ها هو. هذا هو المكان الذي اعتدت السير فيه ذهابًا وإيابًا وأنا أتساءل وأتساءل.» صاح كولن: «أهذا هو؟» وبدأت عيناه تبحثان في نبات اللبلاب في لهفة وفضول، ثم همس قائلًا: «لكني لا أرى شيئًا. لا يوجد أي باب.»

قالت ماري: «هذا ما ظننته.»

ثم ساد سكون تام جميل واستمر المقعد المتحرك في مساره.

قالت ماري: «هذه هي الحديقة التي يعمل بها بِن ويذرستاف.»

قال كولن: «حقًّا؟»

وبعد بضع ياردات أخرى، همست ماري مرةً أخرى قائلة: «وهذا هو المكان الذي حلَّق فيه أبو الحنَّاء فوق السور.»

صاح كولن: «حقًّا؟ يا إلهي، أتمنى أن يأتي مرةً أخرى!»

قالت ماري بسعادة لم تخلُ من الجدية وهي تشير إلى أسفل شجيرة أرجوانية كبيرة: «وهذا حيث كان يربض على كومة التراب الصغيرة وأرشدني إلى مكان المفتاح.»

اعتدل كولن في جلسته، وصاح: «أين؟ أين؟ أين؟» واتسعت عيناه فأصبحتا تشبهان عينا الذئب في قصة ذات الرداء الأحمر، حين شعرت ذات الرداء الأحمر بأن عليها التعليق على حجمهما الكبير. وقف ديكون صامتًا بلا حِراك وتوقَّف المقعد المتحرك.

قالت ماري وهي تدوس على الحوض القريب من نبات اللبلاب: «وهذا حيث ذهبتُ للحديث معه حين غرَّد لي من أعلى السور. وهذا هو نبات اللبلاب الذي أزاحته الرياح.» وأمسكت بالستارة الخضراء المتدلِّية.

قال كولن لاهثًا: «يا إلهي! حقًّا ... حقًّا!»

«وهذا هو المقبض، وهذا هو الباب. هيا يا ديكون ادفعه إلى الداخل، ادفعه إلى الداخل بسرعة!»

وفعل ديكون بدفعة واحدة قوية وثابتة ورائعة.

ولكن كولن في الواقع اتكأ إلى الخلف على وسائده، على الرغم من أنه كان يلهث من الفرحة، وغطى عينيه بيديه وظل مغمض العينين لا يرى أي شيء حتى دخلوا إلى الحديقة وتوقف الكرسي كما لو كان هذا بفعل السحر وأُغلق الباب، وحينها فقط رفع يديه عنهما، وظلَّ ينظر حوله في جميع أرجاء المكان تمامًا كما فعل ديكون وماري من قبل. فقد زحف الستار الأخضر الجميل المكوَّن من الأوراق الصغيرة الرقيقة على الأسوار والأرض والأشجار والأغصان والأفرع المتدلية، وظهر بين الحشائش الكائنة أسفل الأشجار والأُصص الرمادية في المظلات، وفي كل مكان هنا وهناك لمسات أو دفقات لونية متداخلة من اللون الذهبي والأرجواني والأبيض، كما ظهر على الأشجار لون وردي وأبيض فوق رأسه، وسمع أصوات رفرفة أجنحة وزقزقات وهمهمات عذبة خافتة، وعبق المكان بالكثير من الروائح العطرة. وسقطت أشعة الشمس دافئة على وجهه كما لو كانت يدًا ذات لمسة حنونة. وقفت ماري وديكون يُحدِّقان فيه في تعجُّب؛ فقد بدا غريبًا للغاية ومُختلفًا، إثر وهج من لون وردي زحف إلى جميع أنحاء جسده؛ وجهه العاجي وعنقه ويديه وكل أعضائه.

صاح قائلًا: «سوف أتحسَّن! سوف أتحسن! ماري! ديكون! سوف أتحسَّن! وسأعيش إلى أبد الآبدين!»

الفصل الحادي والعشرون

بِن ويذرستاف

من الأشياء الغريبة المتعلِّقة بالحياة في هذا العالم أن المرء لا يتأكد إلا بين الحين والآخر أنه سيَعيش إلى الأبد. فالمرء يدرك هذا في بعض الأحيان حين يستيقظ من نومه في وقت الفجر المهيب الغضِّ ويخرج ويقف وحده ويُلقي برأسه إلى الوراء وينظر إلى أعلى ويُشاهد السماء الشاحبة وهي تتحوَّل ببطء وتتوهَّج وتَحدث لها أشياء مُذهلة مجهولة حتى يكاد الشروق يجعله ينفجر في البكاء ويكاد قلبه يتوقَّف من مشهد شروق الشمس ذي المهابة الغريبة التي لا تتغير أبدًا، والذي يَحدث كل صباح منذ آلاف وآلاف السنين. حينها يُدرك المرء ذلك للحظة أو نحو ذلك. ويدركه أحيانًا أيضًا حين يقف بمفرده في إحدى الغابات عند غروب الشمس حين يبدو أن السكون الذهبي العميق الغامض المنحدر عبر الأغصان وتحتها، يقول ببطء مِرارًا وتكرارًا شيئًا لا يُمكن لأحد سماعه بوضوح، مهما حاول. وفي بعض الأحيان يتأتى اليقين بذلك من السكون العميق للسماء الحالكة ليلًا وسط ملايين النجوم التي تنتظر وتُشاهد. وأحيانًا يتأتى اليقين عند سماع صوت موسيقى قادم من بعيد، وأحيانًا أخرى من نظرة في عيني شخص ما.

وكان هذا ما حدث مع كولن حين رأى الربيع وسمعه وشعر به لأول مرة داخل جدران السور الأربعة الشاهقة للحديقة الخفية. ففي عصر ذلك اليوم، بدا أن العالم بأكمله يُكرِّس نفسه ليصبح مثاليًّا ويشعَّ جمالًا وحنانًا لفتًى واحد فقط. فربما جاء الربيع كمِنحة سماوية خالصة وزين كل شيء يمكنه تزيينه في هذا المكان تحديدًا. فكان ديكون يتوقف عمَّا يفعله ويقف ساكنًا وفي عينيه نظرة تعجب تتصاعد مع الوقت، ويهز رأسه بلطف.

قال: «يا إلهي! هذا رائع! إنني في الثانية عشرة وعلى مشارف الثالثة عشرة من عمري، ومرَّ بي وقت الظهيرة كل يوم طوال هذه السنوات الثلاث عشرة، لكن يبدو لي أني لم أرَه في مثل هذا البهاء والروعة من قبل.»

قالت ماري مُتنهِّدة من الفرحة: «إنه نهار بهيٌّ بالفعل. أنا متأكدة من أنه أبهى نهار في هذا العالم.»

قال كولن بحذر حالم وقد تحدَّث بلهجة يوركشاير: «هل تعتقدون أنه قد بدا على هذا النحو عن قصد من أجلي؟»

صاحت ماري في إعجاب: «يا إلهي! لقد صرتَ تُجيد لهجة يوركشاير بعض الشيء. إنك تصوغها بشكل ممتاز؛ يا لك من ماهر!»

وسادت السعادة الجميع. سحَبا المقعد إلى أسفل شجرة برقوق، كانت بيضاء كالثلج من الأزهار المتفتِّحة المتناثرة عليها، وتُحيط بها ألحان موسيقية صادرة من النحل. كان هذا أشبه بظُلة ملك من قصة خيالية. وبالقرب منها وُجِدت أشجار كرز مُزهرة، وأشجار تفاح ذات براعم وردية وبيضاء، يتفتَّح إحداها هنا وهناك. ومن بين الأغصان المزهرة لهذه الظُّلة ظهرت بعض أجزاء من السماء الزرقاء بدت كعيون جميلة تُطلُّ عليهم.

عملت ماري وديكون قليلًا هنا وهناك وجلس كولن يراقبهما. كانا يُحضران له أشياء لينظر إليها؛ مثل براعم تتفتَّح، وأخرى مغلقة بإحكام، وأجزاء من فرع اخضرَّت أوراقه للتوِّ، وريشة من نقَّار الخشب سقطت منه على الحشائش، وقشرة بيضة فارغة لطائر فُقست قبل أوانها. دفع ديكون المقعد ببطء في جميع أنحاء الحديقة، وكان يتوقَّف بين الحين والآخر ليدعه ينظر إلى العجائب النابتة من الأرض، أو المتدلية من الأشجار. كان الأمر أشبه بجولة رسمية لملك وملكة مسحورين عبر البلاد لمشاهدة كل الثروات الغامضة التي تحتوي عليها.

قال كولن: «تُرى سنرى أبا الحنَّاء؟»

أجاب ديكون: «ستراه كثيرًا بعد قليل؛ فحين يفقس البيض، سيُصبح هذا الفتى الصغير منشغلًا للغاية لدرجة ستجعل رأسه يدور. ستراه يطير ذهابًا وإيابًا حاملًا ديدانًا في نفس حجمه تقريبًا، وستَسمع ضوضاء كثيرة في العُش حين يصل إليه؛ إذ تهيج الفراخ وتُربكه فلا يدري أيها فمه أكبر ليضع فيه القطعة الأولى من الطعام. وسترى المناقير الفاغرة وأصوات الصياح الحادة في كل مكان. تقول أمي إنها حين ترى ما يفعله أبو الحنَّاء لإطعام هذه المناقير الفاغرة، تشعر أنها كامرأة لا تفعل أي شيء مقارنةً به؛

فهي تقول إنها رأت هذا الفتى الصغير وقد بدا كما لو أن العرَق يتصبَّب منه، رغم أن الناس لا يمكنهم رؤية هذا.»

جعلهم هذا يضحكون بسعادة بالغة حتى إنهم اضطروا إلى وضع أيديهم على أفواههم، حين تذكروا أنه لا بدَّ ألا يسمع أحد أصواتهم. فقد حصل كولن على تعليمات بشأن قانون الهمس والأصوات المنخفضة قبل عدة أيام. لقد أحب الغموض المحيط بالأمر وفعل كل ما في وسعه، لكن وسط المتعة والإثارة، كان من الصعب عليه الضحك دون الارتفاع عن مستوى الهمس.

كانت كل لحظة من مساء ذلك اليوم عامرة بأشياء جديدة، وفي كل ساعة يزداد اللون الذهبي لأشعة الشمس تألُّقًا. سُحب المقعد المتحرِّك إلى أسفل الظُّلة مرة أخرى وجلس ديكون على الحشائش، وكان قد أخرج مزماره للتوِّ حين رأى كولن شيئًا لم يتوفَّر له الوقت ليلاحظه من قبل.

قال: «هذه شجرة قديمة للغاية تلك التي هناك، أليس كذلك؟»

نظر ديكون عبر الحشائش إلى الشجرة ونظرت ماري وسادت لحظة صمت قصيرة.

وبعد هذا الصمت أجاب ديكون وفي صوته المنخفِض نبرة رقيقة للغاية، قائلًا: «أجل.»

حدَّقت ماري في الشجرة وظلَّت تفكر.

واصل كولن حديثه وقال: «إن الأفرع رمادية للغاية ولا توجد بها ولا ورقة واحدة في أي مكان. إنها ميتة، أليس كذلك؟»

قال ديكون موافقًا إياه: «أجل، لكن الورود التي تسلقت عليها بالكامل ستُخبئ كل جزء من الشجرة الميتة عما قريب حين تمتلئ بالأوراق والأزهار، وحينها لن تبدو ميتة على الإطلاق، بل ستُصبح الأكثر جمالًا بين الأشجار كافة.»

ظلت ماري مُحدِّقة في الشجرة وتفكر.

قال كولن: «يبدو أن فرعًا كبيرًا فيها قد انكسر، أتساءل كيف حدث هذا؟»

أجاب ديكون: «حدث هذا منذ عدة سنوات.» ثم قال بإجفال مفاجئ ممتزج بشعور ارتياح وهو يضع يده على كولن: «يا إلهي! انظر إلى أبي الحنَّاء هذا! ها هو هناك! لقد كان يبحث عن طعام من أجل رفيقته.»

تأخر كولن كثيرًا في النظر إليه، لكنه لمحه؛ فرأى الطائر ذا الصدر الأحمر يَندفع كالبرق حاملًا شيئًا في منقاره، وطار مسرعًا عبر المنطقة الخضراء دخولًا إلى الركن

المتشابك الأشجار واختفى عن الأنظار. اتكأ كولن إلى الخلف على وسادته مرةً أخرى، وهو يضحك قليلًا. «إنه يحمل إليها الشاي. ربما تكون الساعة الآن الخامسة، وأعتقد أني أنا نفسي أرغب في بعض الشاي.»

وهكذا صار الطائران في أمان.

بعد ذلك أسرَّت ماري لديكون قائلة: «لقد جاء أبو الحنَّاء إلى هنا بفعل السِّحر. أنا أعلم أنه السحر.» فقد كانت تخشى هي وديكون أن يتساءل كولن عن الشجرة التي انكسر فرعها منذ عشر سنوات، وناقشا معًا هذا الأمر ووقف ديكون وحكَّ رأسه في اضطراب وقال: «يجب ألا يبدو علينا أنها شجرة مختلفة عن باقي الأشجار. فلا يمكن أبدًا أن نُخبر هذا الفتى المسكين عن الطريقة التي انكسر بها الفرع. إن قال أي شيء عنها، علينا أن نحاول أن نبدو مبتهجين.»

أجابته ماري: «أجل، لا بدَّ أن نفعل هذا.»

ولكنها لم تشعر أنها تبدو مبتهجة حين كانت تُحدِّق في هذه الشجرة. فقد ظلت تتساءل وتتساءل خلال تلك اللحظات القليلة عما إذا كان ثمَّة أي قدر من الحقيقة فيما قاله ديكون له. وظل هو يحكُّ شعره الأحمر الصدئ في ارتباك، لكن كانت قد بدأت تظهر في عينيه الزرقاوين نظرة ارتياح جميلة.

وأردف ببعض التردد: «كانت السيدة كرافن شابة في غاية الجمال، وتعتقد أمي أنها ربما جاءت إلى ميسلثويت عدة مرات لتعتني بالسيد كولن، مثلما تفعل جميع الأمهات حين يُغادرن عالَمَنا. فعليهن أن يَعُدن لأطفالهن كما ترين. ربما تكون قد زارت الحديقة، وربما تكون هي من دفعتنا إلى العمل فيها، وهي التي أخبرتنا بأن نُحضره إلى هنا.»

اعتقدت ماري أنه يقصد شيئًا يتعلَّق بالسِّحر؛ فقد كانت تؤمن بشدة بالسحر، وكان لديها اعتقاد قوي في قرارة نفسها بأن ديكون يُمارس السحر، السحر النافع بالطبع، على كل شيء بالقرب منه ولهذا يحبه الناس كثيرًا هكذا، وتعرف الكائنات البرية أنه صديقها. بل إنها تساءلت إن كان من المحتمل أن تكون موهبته تلك هي التي أحضرت أبا الحنَّاء إليهم في اللحظة المناسبة تمامًا حين بدأ كولن يطرح هذا السؤال الخطير. فقد كانت تشعر بأثر سحره طوال ذلك المساء، وأنه هو من جعل كولن يبدو فتًى مختلفًا تمامًا. فلم يكن يبدو عليه أنه ذلك المخلوق المجنون نفسه الذي كان يَصرخ ويضرب ويعضُّ وسادته؛ حتى بياضه العاجي بدا أنه قد تغيَّر؛ فلم يختفِ الوهج الوردي الخفيف الذي دبَّ في وجهه وعنقه ويديه حين دخل الحديقة لأول مرة، وبدا مخلوقًا من لحم ودم وليس تمثالًا من العاج أو الشمع.

رأوا أبا الحنَّاء وهو يحمل الطعام إلى رفيقته مرتين أو ثلاث مرات، وذكَّرهم هذا كثيرًا بشاي ما بعد الظهيرة الذي شعر كولن بضرورة تناوله.

قال: «اذهبي واجعلي أحد الخدم يُحضر بعضًا من الشاي في سلة إلى ممشى زهور الردندرة، ثم اذهبي أنتِ وديكون وأحضراه إلى هنا.»

كانت هذه فكرة مُستساغة وسهلة التنفيذ، وحين فُرش المفرش الأبيض على الحشائش ووُضع عليه الشاي الساخن وشرائح الخبز المدهونة بالزبد والفطائر الصغيرة، تناولوا جميعًا وجبة شهية بسعادة، وتوقَّف العديد من الطيور التي كانت في مهام منزلية لترى ماذا يحدث وراحت تتفقد الفتات بنشاط بالغ. أما نَت وشِل، فقد صعدا بسرعة على الأشجار ومعهما قطع من الكعك، في حين أخذ سوت نصفًا كاملًا من فطيرة صغيرة دُهنت بالزبد وانزوى بها في أحد الأركان وظل ينقرها ويتفحَّصها ويُقلِّبها يمينًا ويسارًا مُصدِرًا صيحات بصوته الأجش كأنما يُعلق عليها، حتى قرَّر أن يبتلعها بالكامل بسعادة جرعة واحدة.

كان الوقت يقترب من الأصيل؛ إذ كان اللون الذهبي لأشعة الشمس يزداد عمقًا ووهجًا، والنحل يذهب إلى منازله، وقلَّت الطيور من حولهم. كان ديكون وماري يجلسان على الحشائش، وقد أعادا الأشياء إلى سلة الشاي استعدادًا للعودة بها إلى المنزل، وكان كولن متكئًا على وسائده وقد عادت خصلات شعره الكثيفة المتدلية على جبهته إلى الوراء، وبدا لون وجهه طبيعيًّا.

قال: «لا أريد لهذا المساء أن ينتهي، ولكني سأعود غدًا، وبعد غد، واليوم الذي يليه، والذي يليه.»

قالت ماري: «هكذا ستحصل على الكثير من الهواء النقي، أليس كذلك؟»

أجابها: «لن أحصل إلا عليه. لقد رأيتُ الربيع الآن وسأرى الصيف. سأرى كل شيء هنا وهو ينمو ويكبر، وسأكبر هنا أنا أيضًا.»

قال ديكون: «أجل، وسنتجوَّل معك هنا سيرًا على الأقدام، وتحفر مثل الآخرين، ولن يكون هذا ببعيد.»

احمرَّ وجه كولن خجلًا للغاية.

قال: «سيرًا على الأقدام! أحفر! هل سيتسنَّى لي هذا؟»

نظر ديكون إليه نظرة خاطفة حذرة؛ فلم يتساءل هو أو ماري من قبل إن كان يعاني عِلَّة في قدميه.

قال بصرامة: «بالتأكيد؛ فلديك قدمان مثل أي شخص آخر!»

شعرت ماري بالخوف كثيرًا حتى سمعت إجابة كولن.

فقال: «في الواقع لا يوجد بهما أي عِلَّة، لكنهما نحيلتان للغاية وضعيفتان. فهما يرتعشان لدرجة أني أخشى مجرد المحاولة للوقوف عليهما.»

تنفَّس كلٌّ من ديكون وماري الصعداء وشعرا بالراحة.

قال ديكون وقد استعاد بهجته: «حين تتوقَّف عن الشعور بالخوف ستتمكَّن من الوقوف عليهما، ولا بدَّ لك أن تتوقف عن الشعور بالخوف في القريب العاجل.»

قال كولن: «هل سأتمكن من هذا حقًّا؟» واستلقى ساكنًا كما لو كان يتساءل بشأن هذه الأشياء.

ساد الصمت التام بين الثلاثة لوهلة قصيرة. كانت الشمس تنخفض. وكانت تلك هي الساعة التي يسود فيها السكون كل شيء تلقائيًّا، وكانوا قد قضوا بالفعل مساءً زاخرًا بالأحداث ومشوقًا للغاية. فبدا كولن كما لو أنه تلذَّذ بالراحة. حتى الكائنات توقفت عن الحركة وتجمعت معًا وراحت تنعم بقسط من الراحة بالقرب منهم. وربض سوت على فرع منخفِض ورفع إحدى قدميه وأرخى الغشاء الرمادي في نعاس على عينيه. تخيَّلت ماري في نفسها أنه يكاد يوشك على الغطِّ في نوم عميق في لحظة.

في وسط كل هذا السكون، كانت مفاجأة نوعًا ما حين رفع كولن رأسه قليلًا وصاح بصوت هامس ارتفع فجأة في انزعاج: «من هذا الرجل؟» فانتفض كل من ديكون وماري واقفين على أقدامهما.

صاح الاثنان معًا بأصوات منخفضة سريعة: «رجل!»

أشار كولن إلى السور المرتفع وهمس في حماس: «انظرا! فقط انظرا!»

تحرك الاثنان سريعًا ونظرا، ليجدا وجه بِن ويذرستاف الساخط يحدق فيهم في غضب من فوق السور من قمة سُلم! وكان يلوح بقبضتِه بالفعل في وجه ماري.

صاح قائلًا: «لو لم أكن رجلًا مسنًّا وأنتِ طفلة صغيرة، لأوسعتُكِ ضربًا عقابًا لكِ.»

وصعد درجة أخرى مهدِّدًا كما لو كان عازمًا على القفز إلى الأسفل والتعامل معها؛ لكنها حين تقدَّمت نحوه، من الواضح أنه عدل عن ذلك ووقف على أعلى درجة في سُلَّمه ملوِّحًا بقبضته تجاهها.

وبَّخها قائلًا: «يبدو أنني لم أعطِكِ قدرك! لم أكن أطيقكِ حين رأيتكِ لأول مرة. فقد رأيتُ فتاةً هزيلة وجهها أبيض كمخيض اللبن تطرح الأسئلة طوال الوقت وتتدخَّل

فيما ليس من شأنها. لا أعرف كيف استطعتِ التقرب مني، لولا أبو الحنَّاء هذا ... عليه اللعنة ...»

صاحت ماري، وقد استطاعت أن تلتقط أنفاسها: «بِن ويذرستاف!» ثم وقفت أسفل منه ونادت عليه وهي تلهث بعض الشيء: «بِن ويذرستاف، إن أبا الحنَّاء هو من أرشدني إلى الطريق!»

حينئذٍ بدا كما لو أن بِن سيندفع بالفعل إلى أسفل على الجانب الذي تقف فيه من السور، وكان مستشيطًا غضبًا.

صاح فيها من أعلى: «يا لكِ من فتاة سيئة، إذ تُلقين بذنبك على أبي الحنَّاء، لمجرد أنه أحمق لا يعلم شيئًا. هو الذي أرشدكِ إلى الطريق! هو؟ يا إلهي! إنكِ لستِ فتاة صغيرة!» استطاعت تصور الكلمات التالية وهي تندفع من فمه؛ إذ كان الفضول يتملَّكه: «كيف استطعتِ أن تدخلي هنا؟»

قالت معترضةً بعناد: «لقد أرشدني أبو الحنَّاء إلى الطريق؛ لم يكن يعرف أنه يفعل هذا، لكن هذا ما حدث. ولا يُمكنني أن أخبرك وأنت في مكانك هذا وتلوح بقبضتك تجاهي.»

في تلك اللحظة إذ به يتوقف فجأة عن التلويح بقبضته ويفغر فاهه وهو ينظر من فوق رأسها إلى شيء رآه قادمًا نحوه عبر الحشائش.

حين سمع كولن سيل كلماته فور أن نمَت إلى سمعه، أصابته الدهشة البالغة حتى إنه لم يسعه سوى أن اعتدل في جلسته وأنصت كما لو كان مسحورًا. لكن وسط هذا، استعاد تركيزه وأشار بشموخ لديكون.

أمره قائلًا: «ادفعني إلى هناك! ادفعني حتى أقرب مكان منه وأوقفني أمامه مباشرة!»

وهذا بالضبط ما رآه بِن ويذرستاف وأثار دهشته وجعله يَفغر فاهه. مقعد متحرك عليه وسائد فاخرة ورداء نوم فاخر قادم نحوه فيما بدا مثل عربة ملكية؛ لوجود أمير صغير مُستلقٍ بها يُصدر أوامر ملكية بعينيه الكبيرتين المحدَّدتين باللون الأسود ويده البيضاء النحيلة الممتدة بغطرسة نحوه. توقف المقعد أمام بِن ويذرستاف مباشرةً. لا عجب حقًّا فيما اعتراه من دهشه جعلته يفغر فمه.

سأله الأمير الصغير: «أتعرف مَن أنا؟»

يا لمنظر بِن ويذرستاف حين حدَّق فيه! فقد ثبَّت عينيه الحمراوين الهرمتين على هذا الشخص الماثل أمامه كما لو كان يرى شبحًا، وظل يُحدِّق ويُحدِّق وابتلع ريقه بصعوبة

بالغة ولم ينطق بكلمة واحدة. سأله كولن مرةً أخرى بمزيد من الغطرسة: «أتعلم مَن أنا؟ أجب!»

رفع بِن ويذرستاف يده الكثيرة التجاعيد ومررها على عينيه وجبهته، ثم أجاب بصوت غريب مرتعش.

قال: «مَن أنت؟ أجل أعرفك ... فعيناك اللتان تُحدِّق بهما في كعيني والدتكَ، والربُّ وحده يعلم كيف أتيتَ إلى هنا، لكني أعرف أنك الطفل القعيد المسكين.»

كان كولن قد نسيَ أن لديه ظهرًا على الإطلاق، فقد تورد وجهه وجلس منتصبًا في استقامة.

صاح في غضب: «أنا لستُ قعيدًا! لستُ قعيدًا!»

قالت ماري شبه صارخة من فوق السور بنبرتها الغاضبة العنيفة: «هو ليس قعيدًا! إنه حتى ليس لديه أي نتوء ولو في حجم رأس الدبوس! لقد نظرتُ ولم أجد شيئًا، ولا حتى واحدًا!»

مسح بِن ويذرستاف جبهته بيده مرارًا وتكرارًا وظل يُحدِّق كما لو كان لا يستطيع التحديق بما يكفي. كانت يده ترتجف وفمه يرتجف وصوته يرتجف. كان رجلًا عجوزًا جاهلًا تعوزه اللباقة، ولا يتذكر إلا الأشياء التي سمعها.

قال بصوت أجش: «أليس ... أليس لديك ظهر مُحدَودب؟»

صاح كولن: «كلا!»

قال بصوت أكثر ارتجافًا ولكن ظل على غلظته: «ألا ... ألا يوجد اعوجاج في ساقيك؟»

كان هذا فوق طاقة كولن؛ ومن ثم تدفقت القوة التي اعتاد إخراجها في نوباته العصبية في جسده الآن بطريقة جديدة. فلم يسبق أن اتهمه أحد بأن ساقيه معوجتان، حتى في همسات الأفراد، وكان الاعتقاد الساذج بوجودهما الذي ظهر في صوت بن ويذرستاف، يفوق قدرة الأمير الصغير على التحمُّل، وجعله غضبه وكبرياؤه الجريحة ينسى كل شيء فيما عدا هذه اللحظة، التي شحنته بقوة لم يعلم بوجودها لديه من قبل؛ فقد كانت قوة غير طبيعية.

صاح مناديًا على ديكون: «تعال إلى هنا!» وبدأ فعليًّا في إزالة الأغطية من على أطرافه السفلى ويحرر نفسه من المقعد. «تعالَ إلى هنا! تعالَ إلى هنا! الآن!»

وصل ديكون ووقف بجواره في ثانية، والتقطت ماري نَفَسَها في شهقة قصيرة وشعرت بوجهها يستحيل إلى الشحوب.

حدثت نفسها بصوت خفيض للغاية وبأسرع ما يمكنها: «يمكنه أن يفعلها! يمكنه أن يفعله! يمكنه أن يفعلها! يمكنه!»

سادت لحظة من الاضطراب العنيف؛ إذ راحت الأغطية تُلقى على الأرض، وأمسك ديكون بذراع كولن، وأخرج كولن ساقيه النحيلتين، وصارت قدماه النحيلتان على العشب. وقف كولن منتصبًا — أجل منتصبًا — كالسهم وبدا طويلًا على نحو غريب، وعاد برأسه إلى الوراء ولمعت عيناه كالبرق، وانفجر في وجه بِن ويذرستاف قائلًا: «انظر إليَّ! فقط انظر إليَّ؛ أجل أنت! فقط انظر إليَّ!»

صاح ديكون: «إنه يقف منتصبًا مثلي! إنه يقف منتصبًا كأي فتى في يوركشاير!»

رأت ماري أن ما فعله بِن ويذرستاف كان غريبًا بما يفوق الوصف. فقد اختنق وشهق وفجأة انهمرت الدموع على وجنتيه الممتلئتين بالتجاعيد وهو يَضرب يديه الهرمتين معًا.

صاح قائلًا: «يا إلهي! يا لأكاذيب الناس! أنت نحيل كشريحة من الخشب وأبيض كالشبح، لكن ليس بك أي عِلَّة. ستَكبُر لتُصبحَ رجلًا، باركك الرب!»

أمسك ديكون بذراع كولن بقوة، لكن الفتى لم يكن قد بدأ يفقد توازنه بعد. فقد استقام أكثر وأكثر في وقفته ونظر إلى بِن ويذرستاف في وجهه مباشرةً.

قال: «أنا سيدك حين يكون والدي بعيدًا عن المنزل، وعليك أن تَمتثِل إلى أوامري، وهذه حديقتي، وإياك أن تجرؤ على التفوُّه بكلمة عن هذا الأمر! والآن ستنزل من على ذلك السُّلم وستخرج إلى الممشى الطويل وستقابلك الآنسة ماري وتُحضرك إلى هنا. فأنا أريد التحدث إليك. نحن لم نكن نريدك، ولكن الآن لا بدَّ أن تصبح داخل دائرة السرِّ، هيَّا أسرع!»

كان وجه بِن ويذرستاف العجوز المجعَّد ما زال مبلَّلًا بهذا التدفق الغريب للدموع الذي انهمر من عينيه. وبدا كما لو أنه لا يستطيع إبعاد عينيه عن كولن النحيل الواقف منتصبًا على قدميه ورأسه مائل إلى الوراء.

قال في نبرة شبه هامسة: «حسنًا يا فتى! حسنًا يا فتى!» ثم عاد إلى رشده فلمس قبعته فجأة على طريقة البستانيِّين وقال: «حاضر يا سيدي! حاضر يا سيدي!» واختفى بمجرد أن نزل من على السُّلم طاعةً لسيده.

الفصل الثاني والعشرون

حين غربت الشمس

حين اختفت رأسه عن الأنظار التفت كولن لماري.

قال لها: «اذهبي وقابليه.» وطارت ماري عبر الحشائش حتى وصلت إلى الباب أسفل اللبلاب.

كان ديكون يراقبه بعينين حادَّتين؛ فقد ظهرت بقع قرمزية على وجنتيه وبدا رائعًا، لكن لم تبدُ عليه أي علامات تنذر بسقوطه.

قال: «أستطيع الوقوف!» وكان رأسه ما زال مرفوعًا وقال هذا بإباء شديد.

رد ديكون: «لقد أخبرتُك أنك ستستطيع فعل هذا حين تتوقف عن الشعور بالخوف، وقد توقفت بالفعل.»

قال كولن: «أجل، لقد توقفتُ.»

ثم تذكر فجأة شيئًا قالته ماري من قبل.

فسأله بحدة: «هل تمارس السحر؟»

انفرج فم ديكون المعقوف في ابتسامة مرحة.

قال: «أنت نفسك تمارس السحر. إنه السحر ذاته الذي جعل هذه الأشياء تخرج إلى سطح الأرض.» ولمس بحذائه العالي مجموعة من زهور الزعفران بين الحشائش، فنظر كولن إليها.

قال ببطء: «أجل، لا يُمكن أن يوجد سحر أكبر من هذا الذي يحدث هنا، لا يمكن.»

اعتدل في وقفته وأصبح منتصبًا أكثر من قبل.

قال له وهو يشير إلى إحدى الأشجار التي تبعد عنه بضع خطوات: «سأسير إلى هذه الشجرة هناك. سأكون واقفًا حين يأتي ويذرستاف. يُمكنني الاتكاء على الشجرة لأستريح

إن أردتُ. وحين أريد الجلوس سوف أجلس، لكن ليس قبل ذلك. أحضر لي دثارًا من المقعد.»

وسار متَّجهًا إلى الشجرة، وعلى الرغم من أن ديكون كان ممسكًا بذراعه، فقد كان ثابت الخُطى على نحو رائع. وحين وقف متكئًا على جذع الشجرة لم يكن واضحًا للغاية أنه يتكئ عليها، وظل متماسكًا منتصبًا، حتى إنه بدا طويل القامة.

حين جاء بِن ويذرستاف عبر الباب الكائن في السور، رآه واقفًا هناك وسمع ماري تُتمتِم بشيء في سرها.

سألها بنفاد صبر: «ماذا تقولين؟» فلم يكن يريد لأي شيء أن يشتت انتباهه عن الفتى الطويل النحيل الذي يقف منتصبًا بوجه يكسوه الفخر.

إلا أنها لم تخبره. وكان هذا ما قالته:

«تستطيع أن تفعلها! تستطيع أن تفعلها! أخبرتك أنك تستطيع! بإمكانك أن تفعلها! بإمكانك أن تفعلها! أجل بإمكانك!» كانت تقول هذا لكولن من قبيل رغبتها في إعمال السحر عليه، لتجعله يبقى واقفًا على قدميه بهذا الشكل. فلم تكن تتحمَّل أن يَستسلِم أمام بن ويذرستاف. لم يكن قد استسلم حتى الآن، وشعرت بنشوة غامرة حين انتابها شعور مفاجئ بأنه بدا جميلًا على الرغم من نحالته. ثبَّت عينيه على بن ويذرستاف بأسلوبه المتغطرس المضحك.

قال له آمرًا: «انظر إليَّ! انظر إليَّ من رأسي إلى قدمي! هل أنا أحدب؟ ألديَّ قدمان معوجتان؟»

لم يكن بِن ويذرستاف قد تخلَّص مما انتابه من مشاعر تمامًا، لكنه تمالك نفسه بعض الشيء وأجابه بأسلوبه المعتاد تقريبًا قائلًا: «لا لستَ كذلك؛ فأنت أبعد ما يكون عن هذا. ماذا كنت تفعل وحدك، مُختبئًا عن الأنظار حتى ظن الناس أنك قعيد ومعاق ذهنيًّا؟»

قال كولن بغضب: «معاق ذهنيًّا؟ مَن الذي يظن هذا؟»

قال بِن: «كثير من الحمقى؛ فالعالم مليء بحمقى يَنهقون نهيق الحمير، ولا ينهقون إلا بالأكاذيب. لماذا عزلتَ نفسك؟»

قال كولن باقتضاب: «لقد ظنَّ الجميع أني سأموت، ولكن هذا لن يحدث!»

قالها بعزم جعل بِن ويذرستاف ينظر إلى جسده بأكمله من أسفل لأعلى ومن أعلى لأسفل.

قال بابتهاج جافٍّ: «أنت تموت! لن يحدث شيء من هذا القبيل! فأنت تتمتع بشجاعة كبيرة. وحين رأيتك تضع قدميك على الأرض بهذه السرعة عرفتُ أنك على ما يرام. هيا اجلس على الدثار قليلًا أيها السيد الصغير وأعطني أوامرك.»

كان في أسلوبه مزيج غريب من حنان غير مفهوم وتفهُّم ذكي في أسلوبه. كانت ماري قد أسهبت في الحديث معه سريعًا قدر المستطاع في أثناء سيرهما في الممشى الطويل. أخبرته أن الشيء الأساسي الذي عليه تذكره أن حالة كولن الصحية تتحسَّن، وهذا بسبب الحديقة؛ فلا بدَّ ألا يدعه أحد يتذكر الحدبات والموت.

تنازل الأمير الصغير وجلس على دثار أسفل الشجرة.

تساءل قائلًا: «ما العمل الذي تؤديه في الحدائق يا ويذرستاف؟»

أجابه بِن العجوز: «أي شيء يُطلب مني فعله؛ فأنا أعمل هنا ردًّا للجميل؛ لأنها كانت تحبني.»

قال كولن: «من هي؟»

أجابه بِن ويذرستاف: «والدتكَ.»

قال كولن: «والدتي؟» ونظر حوله بهدوء: «كانت هذه حديقتها، أليس كذلك؟»

قال بِن وقد نظر حوله هو أيضًا: «أجل، كانت حديقتها! فقد كان لديها ولع خاص بها.»

قال كولن: «إنها حديقتي الآن، وأنا مولَع بها، وسآتي إلى هنا كل يوم. لكن لا بد أن يبقى هذا الأمر سرًّا. أوامري لك ألا يعرف أحد أننا نأتي إلى هنا. فقد عمل ديكون وابنة خالي ليعيدا الحياة إلى هذا المكان. وسأرسل إليك من حين لآخر لمساعدتهم، لكن لا بد أن تأتي دون أن يراك أحد.»

تجعَّد وجه بِن ويذرستاف في ابتسامة عجوز جافة.

قال: «لقد أتيتُ إلى هنا من قبل دون أن يراني أحد.»

تعجب كولن وقال: «ماذا! متى؟»

قال وهو يحك ذقنه وينظر حوله: «آخر مرة أتيت فيها إلى هنا كانت منذ عامين تقريبًا.»

صاح كولن: «لكن لم يدخل أحد إلى هنا منذ عشر سنوات! ولم يكن الباب ظاهرًا!»

قال العجوز بِن بفتور: «أنا لستُ أي شخص، ولم أدخل عبر الباب؛ بل من فوق السور. إلا أن آلام المفاصل أعجزتني عن هذا في العامين الأخيرين.»

صاح ديكون: «لقد دخلتَ وقلمتَ الزرع بعض الشيء، ولم يتسنَّ لي أن أعرف كيف حدث هذا.»

قال بِن ويذرستاف ببطء: «لقد كانت مولعة بها ولعًا شديدًا! وكانت شابة رائعة الجمال. قالت لي ذات مرة وهي تضحك: «بِن، إن حدث وأصابني المرض ورحلتُ، لا بدَّ أن تعتني بأزهاري.» وحين رحلتْ، كانت الأوامر ألا يقترب أحد أبدًا من هنا، لكني كنتُ آتي.» كان في نبرته عناد مشوب بالغضب. «كنت أدخل من فوق السور، حتى منعتني آلام المفاصل، وكنت أعمل بها قليلًا مرة كل عام، فقد جاءني أمرها أولًا.»

قال ديكون: «لم تكن لتتوهَّج بالحياة كما هي الآن لو لم تفعل هذا. أنا متعجب بالفعل.»

قال كولن: «أنا سعيد باعتنائك بها يا ويذرستاف. سوف تعرف كيف تحافظ على السر.»

رد بِن: «أجل، سأعرف يا سيدي، وسيكون من الأسهل على رجل يعاني من آلام المفاصل أن يدخل من الباب.»

ألقت ماري مقلعها على الحشائش بالقرب من الشجرة، فمد كولن يده وأخذه، وارتسم على وجهه تعبير غريب وبدأ يحكُّ بها الأرض. كانت يده النحيلة ضعيفة للغاية، لكنه استطاع حينها، وماري تشاهده باهتمامٍ قطَعَ أنفاسها، إدخال طرف المقلع في التربة وأخرج بعضًا منها.

قالت ماري في نفسها: «يُمكنك أن تفعلها! يمكنك أن تفعلها! أقول لك إنك تستطيع!»

امتلأت عينا ديكون المستديرتَين بفضول شديد لكنه لم يقل كلمة واحدة. أما بِن ويذرستاف فقد نظر إليه بوجه ظهر عليه الاهتمام البالغ.

واصل كولن ما يفعله، وبعدما أخرج بضع حفنات من التراب بالمقلع، تحدث بجذل إلى ديكون بلهجة يوركشاير بأفضل ما يكون.

«لقد قلتَ إنك ستَجعلُني أمشي هنا مثل غيري من الناس، كما قلتَ إنك ستجعلني أحفر أيضًا. كنت أظنك تكذب فقط لتُرضيني، لكن ها نحن ذا في أول يوم فقط وقد مشيتُ بالفعل وها أنا أحفر أيضًا.»

فغر بِن ويذرستاف فاهه مرةً أخرى حين سمعه يقول هذا، لكن انتهى الحال به بالضحك.

قال: «يا إلهي! إنك تبدو عاقلًا ومنتبهًا الآن. إنك حقًّا ابن من أبناء يوركشاير. وتحفر الآن أيضًا. ما رأيك أن تزرع شيئًا ما؟ يُمكنني إحضار وردة لك في وعاء صغير.»

قال كولن وهو يحفر بحماس: «اذهب وأحضرها! أسرع، أسرع!»

وتم له ما أراد بسرعة بالفعل؛ فقد ذهب بِن ويذرستاف على الفور ونسي تمامًا آلام المفاصل التي يعاني منها. أما ديكون، فقد أمسك بمجرفته وزاد الحفرة عمقًا واتساعًا أكثر مما استطاع شخص ذي يد بيضاء ونحيلة يحفر لأول مرة. انسلَّت ماري لتركض وتعود حاملة معها مرشة مياه. وحين زاد ديكون من عمق الحفرة، واصل كولن تقليب التربة الطرية مِرارًا وتكرارًا. ونظر نحو السماء، وقد تورَّد وجهه وتوهَّج على أثر ذلك بسبب النشاط الجديد الغريب الذي مارسه، على الرغم من بساطته.

قال: «أريد أن أنتهي من هذا قبل أن تغيب الشمس تمامًا.»

ظنت ماري أن الشمس ربما تكون قد تأخرت عن الغروب بضع دقائق عن عمد. فقد أحضر بِن ويذرستاف الوردة في وعائها الصغير من الصوبة الزجاجية. كان يسير عرجًا على الحشائش بأسرع ما يمكنه؛ فقد بدأ يتحمَّس هو أيضًا، ثم جثا على ركبتيه بجوار الحفرة وأخرج الوردة من وعائها.

قال وهو يناول النبتة لكولن: «تفضَّل يا فتى، ضعها في الأرض بنفسك مثلما يفعل المَلك حين يذهب إلى مكان جديد.»

ارتعشت يدا كولن النحيلتان البيضاوان قليلًا وازداد وجهه احمرارًا وهو يغرس الوردة في التربة وظل ممسكًا بها بينما يثبت بِن العجوز الأرض من حولها، فردم الحفرة وضغط عليها وثبَّتها. كانت ماري منحنية إلى الأمام على يديها وركبتيها. أما سوت فقد طار إلى أسفل وظل يسير إلى الأمام ليرى ماذا يحدث. وظل نَت وشِل يثرثران عن الأمر من على شجرة كرز.

قال كولن أخيرًا: «لقد زُرِعت! والشمس لم تختفِ بعد وراء الأفق. ساعدني على النهوض يا ديكون؛ أريد أن أكون واقفًا وهي تغيب. فهذا جزء من السحر.»

وساعده ديكون، ومنحه السحر — أو أيًّا كان اسمه — قوة هائلة، حتى إنه حين غابت الشمس بالفعل وراء الأفق لتعلن نهاية ذلك المساء الجميل والغريب بالنسبة إليهم، وقف بالفعل على قدميه وهو يضحك.

الفصل الثالث والعشرون

السحر

كان الطبيب كرافن منتظرًا بعض الوقت في المنزل حين عادوا إليه. كان قد بدأ يتساءل بالفعل إن كان من الحكمة أن يُرسل أحدًا لتفقُّد ممرات الحديقة. وحين أُعيد كولن إلى غرفته، نظر إليه الرجل المسكين إليه نظرةً متفحِّصةً حادةً.

قال: «لم يكن يُفترض بكَ البقاء بالخارج كل هذا الوقت. يجب ألا ترهق نفسك أكثر من اللازم.»

قال كولن: «لست مرهقًا على الإطلاق. فقد تحسَّنت صحتي بسبب هذا. وسأخرج غدًا في الصباح وبعد الظهيرة أيضًا.»

قال الطبيب كرافن: «لستُ متأكدًا من أنني سأسمح لك بهذا. فأخشى أن هذا لن يكون تصرفًا حكيمًا.»

قال كولن بجدية تامة: «ولن تكون محاولة إيقافي تصرفًا حكيمًا أيضًا. سأذهب.»

حتى ماري وجدت أن إحدى سمات كولن الرئيسة الغريبة أنه لا يدري تمامًا كم أنه وغد صغير وقح بأسلوبه الآمر مع من حوله. فقد عاش طوال حياته في جزيرة منعزلة بشكل أو بآخر، وبما أنه كان الملك عليها، كان هو من شكَّل طرائقه وخُلُقه ولم يجد مَن يقارن نفسه به. وقد كانت ماري مثله بالفعل إلى حدٍّ ما، ومنذ أتت إلى ميسلثويت، اكتشفت بالتدريج أن أسلوبها في التصرف ليس الأسلوب المعتاد أو الشائع بين الناس. وبعد أن توصلَت إلى هذا الاكتشاف، رأت بطبيعة الحال أنه اكتشاف مهمٌّ كفاية كي توصله إلى كولن. لذا جلست ونظرت إليه في فضول لبضع دقائق بعدما غادر الطبيب كرافن. فقد أرادت أن تجعله يسألها عن سبب نظرها إليه هكذا، وهذا ما حدث بالطبع.

قال لها: «لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟»

«أفكر بأني أشعر ببعض الأسف للدكتور كرافن.»

قال كولن بهدوء، لكن بأسلوب لا يخلو من قدر من الشعور بالرضا: «وأنا أيضًا؛ فهو لن يحصل على ميسلثويت على الإطلاق الآن لأنني لن أموت.»

قالت ماري: «بالطبع أشعر بالأسف له بسبب هذا، لكني كنت أفكر للتوِّ أن الاضطرار لالتزام الأدب على مدى عشر سنوات مع فتًى يعامله بوقاحة دائمًا لهو أمر بغيض وبشع. لم أكن لأفعل هذا أبدًا لو كنتُ في مكانه.»

سألها كولن دون انزعاج: «هل أنا وقح؟»

قالت ماري: «لو كنتَ ابنه وكان من نوع الرجال الذين يصفعون أبناءهم، لصفعك على وجهك.»

قال كولن: «لكنه لا يجرؤ على هذا.»

أجابته الآنسة ماري وهي تفكر في الأمر بهدوء دون تحيُّز: «هو بالفعل لا يجرؤ. ولم يجرؤ أحد من قبل قطُّ على فعل أي شيء لا تريده أنت؛ لأنك كنت ستموت وأشياء من هذه القبيل. فقد كنت فتًى مسكينًا.»

رد كولن بعناد: «لكني لن أصبح مسكينًا بعد الآن، ولن أدع الناس يظنُّون أنني كذلك. لقد وقفت على قدميَّ مساء اليوم.»

واصلت ماري حديثها وهي تفكر بصوت عالٍ: «إن حصولك على كل ما تريد طوال الوقت هو ما جعلك غريب الأطوار هكذا.»

أدار كولن رأسه في عبوس.

ثم سألها: «هل أنا غريب الأطوار؟»

ردت ماري: «أجل، إلى أقصى الحدود، لكن لا داعيَ للغضب.» ثم أضافت دون تحيُّز: «لأنني أيضًا غريبة الأطوار، وكذلك بِن ويذرستاف. لكنني لم أعد كما كنتُ من قبل، وبدأتُ أحب الناس من قبل حتى عثوري على الحديقة.»

قال كولن: «أنا لا أريد أن أكون غريب الأطوار، ولن أكون كذلك.» ثم عبس مرةً أخرى وبدا عليه التصميم.

كان فتًى مغرورًا للغاية، واستلقى يفكر لبعض الوقت، ثم رأت ماري ابتسامته الجميلة قد بدأت في الظهور وتغيَّر شكل وجهه بأكمله بالتدريج.

قال: «لن أظل غريب الأطوار إذا ذهبتُ إلى الحديقة كل يوم. أتعلمين يا ماري، يوجد سحر هناك، سحر جيد. أنا متأكد من ذلك.»

قالت ماري: «وأنا أيضًا.»

قال كولن: «حتى إن لم يكن هذا سحرًا حقيقيًّا، يمكننا التظاهر بأنه كذلك. ثمَّة شيء ما في المكان، ثمة شيء ما!»

قالت ماري: «إنه السحر، لكنه ليس سحرًا أسود، إنما أبيض كبياض الثلج.»

كانوا دومًا ما يطلقون عليه سحرًا، وقد بدا كذلك بالفعل خلال الأشهر التالية، تلك الأشهر الرائعة ... الأشهر المشرقة ... الأشهر المذهلة. يا للأشياء التي حدثت في هذه الحديقة! لو لم تملك حديقة يومًا، لا يمكنك أن تفهم هذا، وإذا كان لديك واحدة، ستعلم أن وصف كل ما حدث فيها يحتاج كتابًا كاملًا. في البداية، بدا أن الزروع الخضراء لن تتوقف أبدًا عن شقِّ طريقها نحو سطح الأرض، في الحشائش، وفي أحواض الزرع، وحتى في شقوق الأسوار. ثم بدأت هذه الزروع الخضراء تتحول إلى براعم، وبدأت البراعم تتفتَّح وتظهر ألوانها؛ جميع درجات الأزرق، والأرجواني، وكذا كل تدرجات اللون القرمزي. وفي الأيام المشرقة انتشرت الأزهار في كل مكان وفتحة وزاوية. وقد أشرف بِن ويذرستاف على هذا، وعمل بنفسه على كشط المِلاط من بين قوالب الطوب في السور، وصنع جيوبًا ترابية لتنمو عليها النباتات المتسلقة الجميلة، فنمت أزهار السوسن والزنبق الأبيض وخرجت من الحشائش في مجموعات، وامتلأت المظلات الخضراء بحشود مذهلة من الأزهار الزرقاء والبيضاء سواء لنباتات العائق الطويلة، أو نباتات الحوضية، أو الجريس.

قال بِن ويذرستاف: «لقد كانت شديدة الولع بهذه الأزهار. كانت تقول دائمًا إنها تحب الأشياء التي تنظر طوال الوقت نحو السماء الزرقاء. ولم تكن هي تحب النظر إلى الأرض قط بل إلى السماء. كانت تحبُّ هذه الأزهار للغاية، لكنها كانت تقول دومًا إن السماء الزرقاء تبدو مبهجة للغاية دائمًا.»

نمت البذور التي زرعها ديكون وماري كما لو أن الجنيَّات قد تولت رعايتها. تراقصت أزهار الخشاش الحريرية بكل ألوانها وسط النسيم بالعشرات، متحديةً في بهجة تلك الأزهار القديمة التي عاشت في الحديقة لسنوات والتي قد يبدو أنها تتساءل كيف وصلت هذه الأزهار الجديدة إلى هنا. أما الأزهار، يا للأزهار! فقد نمت من بين الحشائش وتشابكَت حول الساعة الشمسية، والتفَّت حول جذوع الأشجار، وتدلَّت من أغصانها، وتسلَّقت الأسوار، وانتشرت عليها في هيئة أكاليل طويلة متساقطة كأنها شلالات، وتدبُّ فيها الحياة يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة. أما أوراق الأشجار الجديدة الجميلة والبراعم، فتبدأ صغيرة في البداية ثم يزيد حجمها ويصيبها السحر، حتى تتفتح وتصبح كأقداح من العطر تسيل بلطف لتتناثر على حوافها وتملأ الهواء في الحديقة.

رأى كولن كل هذا، وكان يراقب كل تغير وهو يحدث؛ فكان يخرج كل صباح ويقضي كل ساعة من كل يوم في الحديقة إن لم تكن السماء تمطر، وكان يفرح حتى بالأيام الغائمة؛ فكان يستلقي على الحشائش «مراقبًا الأشياء وهي تنمو»، على حد قوله. كان يقول إن المرء لو ظل يشاهد ويراقب وقتًا طويلًا، لتمكن من رؤية البراعم وهي تخرج نفسها من غلافها. كذلك يُمكنك التعرف على حشرات غريبة منشغلة تجري في كل مكان وهي تؤدِّي مهامًّا غير معروفة، لكن من الواضح أنها خطيرة، وتحمل أحيانًا قطعًا صغيرة من القش أو ريشة أو طعامًا، أو تتسلق أطراف الحشائش كما لو أنها أشجار يمكن للمرء النظر من فوق قممها لتفقُّد المكان من حوله. وانشغل طوال صباح أحد الأيام بخُلْد يبني حِصنه الصغير في نهاية جُحره ويخرج منه في النهاية بمخالبه ذات الأظافر الطويلة التي بدت كأيدي الجن. وفتحت له عادات النمل والخنافس والنحل والضفادع والطيور والنباتات عالَمًا جديدًا لاستكشافه، وحين عرَّفه ديكون عليها كلها وأضاف إليها عادات الثعالب وثعالب الماء وابن مقرض والسناجب وأسماك السلمون المرقط وجرذان الماء وحيوانات الغرير، لم يعد ثمَّة حدٌّ للأشياء التي يُمكن الحديث عنها والتفكير فيها.

ولم يكن هذا كله قد بلغ نصف السحر الموجود. فحقيقة أنه وقف بالفعل على قدميه مرة قد شغلت تفكيره كثيرًا، وحين أخبرته ماري بالسحر الذي أعملته شَعَر بإثارة بالغة وأيَّدها في ذلك كثيرًا، وكان دائم الحديث عنه.

في أحد الأيام قال بنبرة تنمُّ عن حَصافة وحكمة: «بالطبع لا بدَّ أن ثمَّة الكثير من السحر في العالم، لكن الناس لا يَعرفون كيف يبدو أو كيف يمارسونه. ربما تكون البداية أن نقول إن ثمة أشياء جيدة ستحدُث إلى أن نستطيع جعلها تحدث. سأحاول وأجرب هذا.»

في صباح اليوم التالي حين ذهبوا إلى الحديقة السرية، أرسل على الفور في طلب بِن ويذرستاف، الذي حضر بأسرع ما يُمكنه ووجد الأمير الصغير واقفًا على قدميه تحت إحدى الأشجار ويبدو مهيبًا للغاية، ولكنه أيضًا كان مبتسمًا ابتسامة جميلة.

قال له: «صباح الخير يا بِن ويذرستاف. أريد منك أنت وديكون والآنسة ماري أن تصطفوا جميعًا في صف واحد وتستمعوا لي؛ لأني سأخبركم شيئًا مهمًّا للغاية.»

رد بِن ويذرستاف وهو يلمس جبهته: «حاضر، حاضر يا سيدي!» (كانت إحدى محاسن بِن ويذرستاف المستترة منذ وقت طويل أنه هرب في إحدى المرات في صباه إلى البحر وقام بعدة رحلات بحرية؛ ولهذا كان يستطيع الرد مثل البحَّارة.)

فسَّر لهم الأمير الصغير فقال: «سأُحاول إجراء تجربة علمية. فحين أكبر سأُجري اكتشافات علمية عظيمة وسأبدأ الآن بهذه التجربة.»

بارده بِن ويذرستاف، على الرغم من أن هذه كانت المرة الأولى التي يسمع فيها عن اكتشافات علمية عظيمة: «أجل، أجل يا سيدي!»

كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع ماري عنها أيضًا، لكنها حتى في هذه المرحلة بدأت تدرك أنه على الرغم من غرابة أطوار كولن، فقد قرأ عن الكثير من الأشياء الفريدة وكان إلى حدٍّ ما فتًى يتمتَّع بقدرة كبيرة على الإقناع. فحين يرفع رأسه ويُثبت عينيه الغريبتين عليك، تشعر بأنك تُصدِّقه هذا رغمًا عنك، على الرغم من أنه في العاشرة من عمره وعلى مشارف الحادية عشرة. وفي هذه اللحظة بالذات كان مُقنِعًا للغاية؛ لأنه شَعَر فجأة بروعة إلقاء خطبة مثل الكبار.

واصل حديثه قائلًا: «ستكون الاكتشافات العلمية العظيمة التي سأجريها عن السحر. فالسحر شيء عظيم ونادرًا ما يعرف أي شخص أي شيء عنه فيما عدا بعض الأشخاص في الكتب القديمة، كما تعرف عنه ماري القليل؛ لأنها ولدت في الهند حيث يوجد الدراويش. أعتقد أيضًا أن ديكون يعرف القليل من السحر، لكنه على الأرجح لا يُدرك أنه يعرفه. فهو يسحر الحيوانات والبشر. ولم أكن لأسمح له بالحضور لرؤيتي لو لم يكن مُروِّضًا وساحرًا للحيوانات، وهذا يعني أنه ساحر للفتيان أيضًا، لأن الفتيان نوع من الحيوانات. أنا متأكد من وجود السحر في كل شيء، فقط لا نملك من الحس ما يكفي للتحكُّم فيه واستخدامه في فعل الأشياء لنا، تمامًا مثل الكهرباء والخيول والبخار.»

بدا حديثه مهيبًا وأثار حماس بِن ويذرستاف كثيرًا ولم يستطع البقاء ساكنًا، فقال: «أجل، أجل يا سيدي!» وبدأ يعتدل في وقفته.

واصل الخطيب حديثه قائلًا: «حين عثرت ماري على هذه الحديقة، كانت تبدو ميتة تمامًا، ثم بدأ شيء ما يجعل الأشياء تندفع إلى سطح التربة، وصنع أشياء من لا شيء. في يوم لم تكن الأشياء موجودة وفي اليوم التالي ظهرت. لم يسبق لي أن راقبت الأشياء من قبل، وهذا جعلني أشعر بفضول شديد. فالمحبُّون للعلم يشعرون بالفضول طوال الوقت، وأنا سأتخصَّص في العلوم. فدومًا ما أسأل نفسي: «ما هذا؟ ما هذا؟» إنه شيء ما له وجود، ولا يمكن أن يكون لا شيء! لا أعرف اسم هذا الشيء ولهذا سأطلق عليه السحر. أنا لم أشاهد شروق الشمس من قبل، لكن ماري وديكون قد شاهداه، ومما يُخبرانني به، أنا متأكد من أن هذا سحر أيضًا. شيء ما يدفعها هذ ويجذبها. ومنذ جئتُ إلى الحديقة

كنتُ أنظر في بعض الأحيان عبر الأشجار إلى السماء وانتابني شعور غريب بالسعادة وكأن شيئًا يندفع وينجذب في صدري جاعلًا أنفاسي تتسارع. فالسحر دومًا يدفع الأشياء ويجذبها ويخلق شيئًا من لا شيء. فكل شيء من صنع السحر؛ الأوراق والأشجار والأزهار والطيور وحيوانات الغرير والثعالب والسناجب والبشر. إذن لا بدَّ أنه موجود حولنا في كل مكان. في هذه الحديقة، وفي كل مكان. والسحر الموجود في هذه الحديقة جعلني أقف على قدمي وأعلم أني سأعيش حتى أصبح رجلًا. سأُجري تجربة علمية بأن أحاول الحصول على بعض من هذا السحر ووضعه داخل نفسي وجعله يَدفعني ويسحبني ويزيدني قوة. لا أعلم كيف أفعل هذا، لكني أعتقد أنه ربما سيأتي إن ظللتُ أفكر فيه وأستدعيه. ربما تكون هذه هي أول طريقة بدائية للحصول عليه. فحين كنتُ أحاول الوقوف في تلك المرة الأولى، ظلَّت ماري تردد في نفسها بأسرع ما يمكن: «يمكنك أن تفعلها! يمكنك أن تفعلها!» وقد فعلتُها بالفعل. بالطبع كان لا بدَّ أن أحاول بنفسي في الوقت نفسه، لكن سحرها ساعَدَني، وكذلك سحر ديكون. وفي كل صباح ومساء وكلما تذكرتُ طوال اليوم سأقول لنفسي: «السحر بداخلي! السحر يجعلني أتحسن! سأصبح قويًّا مثل ديكون، قويًّا مثل ديكون!» وعليكم جميعًا القيام بهذا أيضًا. تلك هي تجربتي، هل ستُساعدني يا بِن ويذرستاف؟»

قال بِن ويذرستاف: «أجل، أجل يا سيدي. أجل، أجل!»

«فإن واظبت على هذا بانتظام كل يوم تمامًا كما يتدرَّب الجنود، سنرى عندها ما سيحدث وسنعرف إن كانت التجربة ناجحة أم لا. فالمرء يتعلم الأشياء بترديدها مرارًا وتكرارًا والتفكير فيها حتى تترسخ في ذهنه إلى الأبد، وأعتقد أن الأمر نفسه ينطبق على السحر. فإن واظب المرء على استدعائه وطلب مساعدته، سيَتغلغل فيه حتى يصبح جزءًا منه ويبقى بداخله ويفعل أشياء كثيرة.» قالت ماري: «لقد سمعتُ ذات مرة ضابطًا في الهند يُخبر والدتي بأنه ثمة دراويش يرددون كلمات معينة آلاف المرات.»

قال بِن بجفاء: «أما أنا فقد سمعت زوجة جيم فيتلورث تقول الشيء نفسه وتُكرِّره آلاف المرات، حيث كانت تنادي جيم بالسكير أحمق. وبالتأكيد كان لا بد لهذا الكلام أن يُسفر عن شيء ما. فقد ضربها ضربًا مبرحًا وذهب إلى حانة بلو ليون وظل يشرب الخمر حتى الثمالة.»

قطَّب كولن حاجبيه وفكَّر لبضع دقائق، ثم تهلَّل وجهه.

قال: «حسنًا، كما ترون؛ لقد أسفر كلامها عن شيء. لكنها استخدمت السحر الخطأ حتى جعلته يضربها. لو كانت استخدمت السحر الصحيح وقالت شيئًا جيدًا، لربما لم يثمل كما حدث ولربما، ربما أحضر لها قلنسوة جديدة.»

ضحك بِن ويذرستاف وظهرت نظرة إعجاب ماكرة في عينيه الصغيرتين العجوزين.

قال: «إنك فتًى ذكي منتصب القامة يا سيد كولن. في المرة القادمة حين أرى بيس فيتلورث سأُخبِرُها بنبذة عما يمكن للسحر أن يفعله لها. ستتحمَّس وتفرح كثيرًا حال نجحت تجربتك العلمية، وكذلك جيم.»

وقف ديكون يستمع إلى هذه الخطبة، ولمعت عيناه المستديرتان بسعادة غامرة. كان نَت وشِل يقفان على كتفيه، فيما كان يمسك بأرنب أبيض طويل الأذنين بين ذراعه وظل يمسد عليه برِقة بينما أرجع الأرنب أذنيه إلى الوراء وكان مستمتعًا بما يحدث.

قال كولن متسائلًا عما يفكر فيه: «هل تعتقد أن هذه التجربة ستنجح؟» كان طوال الوقت يتساءل عما يفكر فيه ديكون حين يراه ينظر إليه أو إلى أحد «مخلوقاته» وعلى وجهه ابتسامة عريضة ملؤها السعادة.

ابتسمَ الآن وكانت ابتسامته أوسع من ذي قبل.

أجابه قائلًا: «أجل، أعتقد ذلك. ستنجح تمامًا كما يحدث للبذور حين تقع أشعة الشمس عليها. بالتأكيد ستنجح. هل نبدأ فيها الآن؟»

ابتهج كولن كثيرًا وكذلك ماري. واقترح كولن، مدفوعًا بما لديه من ذكريات عن الدراويش والمتعبِّدين في الصور التي رآها، بأن يجلسوا جميعًا القرفصاء تحت الشجرة التي صنعت تحتها ظُلَّة.

قال كولن: «سيكون الأمر أشبه بالجلوس في معبد. وأنا متعب إلى حدٍّ ما وأريد الجلوس.»

قال ديكون: «حسنًا! عليك ألا تبدأ بقول إنك تشعر بالتعب؛ فهكذا ستُفسد عمل السحر.»

التفت كولن ونظر إليه في عينيه البريئتين المستديرتين.

قال ببطء: «هذا صحيح، عليَّ فقط ألا أفكر إلا في السحر.» بدا كل ما حولهم أكثر مهابة وغموضًا حين جلسوا في دائرتهم. شعر بِن ويذرستاف كما لو كان قد استدرج بشكل ما لحضور اجتماع للصلاة. فقد كان موقفه في المعتاد ثابتًا لا يتزحزَح بشأن ما أطلق عليه اسم «اجتماعات الصلاة الوسيطة»، لكن بما أن هذا التجمع كان لشأن

يتعلق بالأمير الصغير، فلم ينفر منه بل كان شعوره يميل إلى السعادة والرضا باستدعائه للمساعدة. أما الآنسة ماري فقد شعرت بسعادة جمَّة ممتزجة بالمهابة. أما ديكون، فقد أمسك أرنبه بين ذراعيه، وربما يكون قد أرسل إشارة سحرية لم يسمعها أحد؛ فحين جلس القرفصاء مثل الآخرين، اقترب منه الغراب والثعلب والسناجب والحَمَل ببطء وأصبحوا جزءًا من الدائرة؛ إذ استقرَّ كل منهم في مكان للراحة والاستجمام كما لو أن هذا برغبتهم.

قال كولن بوقار وهيبة: «لقد جاءت المخلوقات. إنها تريد مساعدتنا.»

تبادر إلى ماري أن كولن يبدو جميلًا للغاية. فقد كان يرفع رأسه عاليًا كما لو كان يشعر بأنه كاهن وكانت عيناه الغريبتان تطلُّ منهما نظرة رائعة، ووقعت أشعة الضوء عليه عبر ظُلة الشجرة.

قال: «والآن سنبدأ؛ هل علينا التأرجح إلى الأمام والخلف، يا ماري، كما لو كنا دراويش؟»

قال بِن ويذرستاف: «أنا لا أستطيع التأرجح إلى الأمام والخلف؛ فأنا أعاني من آلام المفاصل.»

قال كولن بنبرة كهنوتية مرتفعة: «إن السحر سيَنزع عنك تلك الآلام، لكننا لن نتأرجح إلا حين تختفي آلامك تمامًا. سنَكتفي بالغناء فقط الآن.»

قال بِن ويذرستاف بشيء من الحِدة: «ولا أجيد الغناء أيضًا. لقد أخرجوني من جوقة الكنيسة في المرة الوحيدة التي جرَّبت فيها هذا الأمر.»

لم يبتسم أحد؛ فقد كانوا جميعًا يأخذون الأمر بجدية بالغة.

لم تبدُ علامات الغضب على وجه كولن ولو قليلًا؛ فلم يكن يفكر إلا في السحر فقط.

قال: «حسنًا سأُغني أنا.» وبدأ يغني بالفعل، وكأنه روح فتًى غريب: «الشمس ساطعة، الشمس ساطعة. إنه السحر. والأزهار تنمو، والجذور تتحرَّك. ذاك هو السحر. والبقاء على قيد الحياة من السحر أيضًا، والتمتُّع بالقوة من السحر. إن السحر بداخلي، إن السحر بداخلي. إنه بداخلي، إنه بداخلي. إنه بداخل كل واحدٍ منا. إنه في ظهر بِن ويذرستاف. أيها السحر! أيها السحر! تعال وساعدنا!»

وأخذ يردِّد ذلك عدة مرات، لم تصل إلى الألف، ولكن كان العدد كبيرًا للغاية. واستمعت إليه ماري في نشوة كالمسحورة. فقد شعرت كما لو أن الأمر غريبًا وجميلًا في الوقت نفسه، وأرادته أن يستمر فيما يقوله. بدأ بِن ويذرستاف يشعر بالهدوء ودخل

فيما يشبه الحلم ما بعث عليه براحة جمَّة. فقد اختلط طنين النحل بين الأزهار بصوت الغناء وذابا معًا حتى صار صوتًا يبعث على النعاس. جلس ديكون القرفصاء وأرنبه نائم على ذراعه، متَّكئًا بيده الأخرى على ظهر الحمل. أما سوت فقد نحَّى أحد السنجابين جانبًا وجلس بالقرب منه على كتفه، وسقط الغشاء الرمادي على عينيه. وأخيرًا توقَّف كولن.

صرح قائلًا: «والآن سأتجوَّل في أرجاء الحديقة.»

كان رأس بِن ويذرستاف قد سقط لتوه إلى الأمام ورفعها بهزة.

قال كولن: «لقد كنتَ نائمًا.»

تمتم بِن قائلًا: «لا لم أكن كذلك. لقد كانت المراسم جيدة للغاية، لكن لا بدَّ أن أخرج قبل جمع التبرُّعات.»

لم يكن قد استفاق بعدُ تمامًا.

قال كولن: «أنت لست في الكنيسة.»

قال بِن وهو يعتدل في جلسته: «لا لستُ في الكنيسة، مَن قال هذا؟ لقد سمعتُ كل حرف قلته. فقد قلتَ إن ثمة سحرًا في ظهري. والطبيب يُطلِق على هذا آلام المفاصل.»

لوَّح الأمير الصغير بيده، وقال: «لقد كان هذا السحر الخطأ. سوف تتحسَّن، والآن آذن لك بالذهاب إلى عملك. لكن عُد في الغد.»

أصدر بِن صوت نَخِر وقال: «أريد رؤيتك وأنت تتجوَّل في الحديقة.»

لم يكن صوت نخِر غير ودود، بل مجرد صوت أجش. في الواقع ولكونه شخصًا عجوزًا وعنيدًا ولم يكن لديه إيمان تام بالسحر، فقد عقد العزم على أنه إن أُرسل بعيدًا، فإنه سيتسلق سُلمه وينظر من فوق السور حتى يكون مستعدًّا للعودة إليهم مرةً أخرى، حال حدوث أي تعثر.

لم يعترض الأمير الصغير على بقائه، وعليه تكوَّن الموكب. بدا الأمر تمامًا كالموكب. فقد كان كولن على رأس الموكب وعلى أحد جانبيه ديكون، وماري على الجانب الآخر. أما بِن ويذرستاف فقد سار خلفهم، ومن ورائهم جميع «الكائنات»، وسار الحَمَل وجرو الثعلب بالقرب من ديكون، وظل الأرنب الأبيض يقفز طوال الطريق أو يتوقَّف لقضم الأشياء، وظل سوت يتبعهم بوقار شخص يرى نفسه في موقع مسئولية.

تحرك الموكب ببطء لكن بوقار وهيبة؛ فكان يتوقف كل بضع ياردات للراحة. اتكأ كولن على ذراع ديكون وظلَّ بِن ويذرستاف يُراقب الوضع سرًّا، لكن كولن كان يسحب يده من وقت لآخر ويسير بضع خطوات وحده. كان رأسه مرفوعًا طوال الوقت وبدا مهيبًا للغاية.

ظل يقول: «السحر بداخلي! السحر يجعلني قويًّا! أستطيع الشعور به! أستطيع الشعور به!»

بدا من المؤكد تمامًا أن شيئًا ما يدعمه ويرفعه. فقد جلس على المقاعد الموجودة في المظلات، وجلس مرة أو مرتين على الحشائش وتوقف في الطريق العديد من المرات واتكأ على ديكون، لكنه لم يستسلم حتى طاف بالحديقة كلها تقريبًا. وحين عاد إلى ظُلة الشجرة، كانت وجنتاه متوردتَين وبدا كقائد مُظفَّر.

صاح قائلًا: «لقد فعلتُها! لقد نفع السحر! هذا أول اكتشاف علمي لي!»

قالت ماري فجأة وبحدة: «ماذا سيقول الطبيب كرافن؟»

أجابها كولن: «لن يقول أي شيء، لأننا لن نُخبره. سيكون هذا هو السر الأكبر بيننا جميعًا على الإطلاق. فلن يعرف به أي شخص حتى أصبح أكثر قوة وأستطيع المشي والركض مثل أي فتًى آخر. سآتي إلى هنا كل يوم في مقعدي المتحرِّك وسأعود عليه أيضًا. لن أترك فرصة للناس للتهامس التساؤل، ولن أدع والدي يسمع بالأمر حتى تنجح التجربة بالكامل. ثم في وقتٍ ما حين يعود إلى ميسلثويت سأدخل إلى مكتبه على قدميَّ وأقول له: «ها أنا ذا؛ أنا مثل أي ولد آخر. إنني على ما يرام وسأعيش حتى أصبح رجلًا. وقد حدث هذا بفعل تجربة علمية».»

صاحت ماري: «سيظنُّ حينها أنه يَحلم. لن يصدق عينيه.»

احمرَّ وجه كولن بنشوة الانتصار، فقد جعل نفسه يصدق بأن صحته ستتحسَّن، وهو ما كان يمثل حقًّا أكثر من نصف المعركة، إن كان مدركًا لهذا. ورأى أن أكثر ما يحفزه هو تخيُّل منظر والده حين يرى أن لديه طفلًا منتصب القامة وقويًّا تمامًا مثل أبناء الآخرين. فقد كان من أحلك المآسي التي عاشها في أيامه السابقة التي عانى فيها من المرض كراهيته لكونه فتًى مريضًا ضعيفَ الظهر يخشى والده النظر إليه.

قال: «سيُضطر لتصديقهما.»

«أحد الأشياء التي سأفعلها بعدما ينجح السحر وقبل البدء في إجراء الاكتشافات العلمية، هو أن أصبح رياضيًّا.»

قال بِن ويذرستاف: «سنأخذك لممارسة رياضة الملاكمة في خلال أسبوع أو نحو ذلك. وسينتهي بك الأمر بالفوز بحزام الملاكمة وستُصبح بطلًا مصارعًا يحصد الجوائز في جميع أنحاء إنجلترا.»

ثبَّت كولن عينيه عليه بتجهُّم.

قال: «ويذرستاف، هذا عدم احترام. لا بد ألا تأخذ حريتك في الكلام هكذا لمجرد أنك جزء من السر. فمهما نجح السحر في عمله، لن أصبح أبدًا مصارعًا يحصد الجوائز. سأصبح مكتشفًا علميًّا.»

رد بِن وهو يلمس جبهته فيما يشبه التحية: «عفوًا، عفوًا يا سيدي. فلم يكن عليَّ التعامل مع الأمر أنه مدعاة للسخرية.» لكن عينيه كانتا تلمعان وبدت عليه السعادة الغامرة. فلم يكن يكترث بأن يتعرَّض للتوبيخ طالما أن هذا التوبيخ يعني أن هذا الفتى يكتسب قوة وحياةً.

الفصل الرابع والعشرون

«دعيهما يضحكان»

لم تكن الحديقة السرية هي الوحيدة التي يعمل بها ديكون. فقد كان حول الكوخ على المستنقع قطعة أرض محاطة بسور منخفِض من حجارة خشنة غير مستوية. وفي الصباح الباكر ومع نهايات الغسق، وفي جميع الأيام التي لم يرَه فيها كولن وماري، كان ديكون يعمل هناك إما في زرع البطاطس والكرنب واللفت والجزر والأعشاب من أجل والدته أو الاعتناء بها. وكان يأتي بالعجائب هناك بصحبة مخلوقاته، ولم يكن يَكلُّ أبدًا من هذا العمل، على ما يبدو. فبينما كان يحفر أو يزيل الأعشاب الضارة كان يُصفِّر أو يغني بعضًا من أغاني مستنقع يوركشاير، أو يتحدَّث إلى سوت أو كابتن أو إخوته وأخواته الذين علمهم مساعدته.

قالت السيدة سويربي: «لم نكن لنحظى أبدًا بالراحة التي ننعم بها الآن لولا حديقة ديكون؛ فهو يجعل أي شيء ينمو. وحجم البطاطس والكرنب اللذين يَزرعهما يعادل ضعف ما يزرعهما أي شخص آخر، ومذاقها ليس له مثيل.»

حين كانت ماري تجد لديها وقت فراغ في أي لحظة، كانت تحب الخروج والتحدث معه. فبعد تناول وجبة العشاء، كانت فترة الغروب الصافي لا تزال ممتدة وقتًا طويلًا يُتيح لها العمل فيها، وكان هذا هو الوقت الذي تنعم فيه بالهدوء. فكان بإمكانها الجلوس على السور المنخفض ذي الحجارة الخشنة، ومراقبة المشهد من حولها، وسماع قصص ما حدث طوال اليوم. كانت تحبُّ هذا الوقت كثيرًا. فلم تكن تحتوي هذه الحديقة على الخضراوات فحسب؛ فقد كان ديكون يشتري عبوات من بذور الأزهار بين الحين والآخر تُباع مقابل بنس واحد، ويزرع أشياء زاهية الألوان وطيبة الرائحة بين شجيرات عنب الثعلب، وحتى بين الكرنب، وزرع رقعًا صغيرة بالخزامى وأزهار القرنفل والبنفسج، وأشياء أخرى كان بإمكانه الاحتفاظ ببذورها من عام لآخر، أو تزهر جذورها كل ربيع

وتنتشر في الوقت المناسب في شكل أجمات جميلة. كان السور القصير أحد أجمل الأشياء في يوركشاير؛ إذ ملأ ديكون كل صدع فيه بنباتات قفاز الثعلب والسرخس والعربية التي تنمو في المستنقع، وكذلك بأزهار سياج الشجيرات، حتى لم يكن بالإمكان رؤية الأحجار إلا بشكل خاطف هنا أو هناك.

كان يقول: «كل ما على المرء أن يفعله ليجعلها تنمو يا أمي، أن يُصبح صديقًا حقيقيًّا لها؛ فهي كالمخلوقات الأخرى، إن شعرت بالعطش، لا بدَّ من إعطائها الماء، وإن شعرت بالجوع لا بدَّ من إعطائها بعض الطعام. إنها تريد أن تعيش مثلنا تمامًا. وإن حدث وماتت، سأَشعر بأنني فتًى سيئ وعاملتها بقسوة بشكل أو بآخر.»

سمعت السيدة سويربي، في ساعات الغسق هذه، عن كل ما حدث في ضيعة ميسلثويت. في البداية لم تعلم إلا أن «السيد كولن» شغوف بالخروج إلى الحدائق مع الآنسة ماري، وأن هذا الأمر قد أفاده كثيرًا. لكن لم يمضِ وقت طويل حتى اتَّفق الطفلان على إدخال والدة ديكون إلى «دائرة السر». فلم يكن ثمَّة شك في كونها شخصًا «موثوقًا به بالتأكيد».

لذا أخبرها ديكون بالقصة كاملة ذات مساء هادئ جميل، بكل ما فيها من تفاصيل مثيرة عن المفتاح المدفون وأبي الحنَّاء والغشاء الرمادي الذي بدا كالموت، وعن السر الذي خطَّطت الآنسة ماري للاحتفاظ به وعدم الإفصاح عنه أبدًا. أما قصة مجيء ديكون وكيف علم بالأمر، والشك الذي انتاب السيد كولن، والدراما الأخيرة في تعريفه بهذا العالم الخفي، إلى جانب واقعة وجه بِن ويذرستاف الغاضب الذي ظهر من فوق السور، وقوة السخط المفاجئة التي اعترت السيد كولن، كل ذلك جعل وجه السيدة سويربي الجميل يتغير لونه عدة مرات.

قالت: «يا إلهي! لقد كان قدوم هذه الفتاة الصغيرة إلى الضيعة أمرًا طيبًا. فكل هذا من صنيعها. لقد أنقذت حياته. وقف بالفعل على قدميه! وكنا جميعًا نظن أنه فتًى مسكين قليل الذكاء ليس في جسده عظمة واحدة مستقيمة.»

طرحت الكثير من الأسئلة وامتلأت عيناها الزرقاوان بتفكير عميق.

سألته: «كيف يُفسِّر أهل الضيعة تحسُّن حالته الصحية وابتهاجه وعدم شكواه على الإطلاق؟» أجابها ديكون بابتسامة تنمُّ عن استمتاع جمٍّ: «لا يعرفون له تفسيرًا. فكل يوم يمرُّ عليه يتغيَّر شكل وجهه، فيصير أكثر امتلاءً، ولا يبدو حادًّا مع زوال اللون الشمعي منه. لكن لِزامًا عليه الشكوى والتذمر بعض الشيء.»

سألته السيدة سويربي: «ولماذا هذا بحق الرب؟»

ضحك ديكون، وقال: «إنه يفعل هذا حتى يَمنعهم من تخمين ما حدث. فلو علم الطبيب أنه يستطيع الوقوف على قدميه، فعلى الأرجح سيكتب إلى السيد كرافن ليُخبره. فالسيد كولن يحتفظ بالسر حتى يُخبر والده بنفسه. وسيظل يمارس سحره على ساقيه كل يوم حتى يعود والده، ثم سيدخل عليه غرفته وهو يمشي حتى يريه أنه طفل مستقيم البنية كأي طفل آخر. لكنه والآنسة ماري يعتقدان أن أفضل خطة يمكن القيام بها أن يتأوَّه وينتحب من وقت لآخر حتى يُضلِّلهم.»

كانت السيدة سويربي تضحك ضحكة منخفضة تنمُّ عن الارتياح قبل وقت طويل من انتهائه من جملته الأخيرة.

قالت: «حسنًا! هذان الاثنان يَستمتعان بوقتهما، أنا واثقة من هذا. سوف يمارسان قدرًا لا بأس به من التمثيل جرَّاء هذا، وما من شيء يحبه الأطفال أكثر من التمثيل. دعنا نسمع عما يفعلان يا عزيزي ديكون.» وتوقَّف ديكون عن اقتلاع الأعشاب الضارة وجلس على عقبيه حتى يُخبرها، وكانت عيناه تلمعان من المرح.

وصف لها الأمر فقال: «يُحمل السيد كولن إلى مقعده المتحرِّك في كل مرة يخرج فيها من المنزل، ثم يَنفعل على جون، الخادم بسبب عدم حمله له بالعناية الكافية. فيظهر نفسه عاجزًا قدر المُستطاع لدرجة أنه لا يستطيع رفع رأسه، حتى نغيب عن أنظار مَن في المنزل، ثم يأخذ في التذمُّر والسخط قليلًا حين يستقر في مقعده المتحرك. يستمتع هو والآنسة ماري بهذا الأمر وحين يتأوَّه ويشتكي تقول: «مسكين يا كولن! هل يؤلمك هذا كثيرًا؟ أأنت بهذا الضعف، مسكين يا كولن!» لكن المشكلة أنه أحيانًا يكون من الصعب عليهما منع أنفسهما من الانفجار في الضحك. وحين نُصبح في أمان داخل الحديقة، يظل الاثنان يضحكان حتى لا يتبقى لديهما أنفاس للضحك، ويضطران لوضع وجهيهما داخل وسائد السيد كولن حتى لا يسمع البستانيون أصواتهما، إن كان أحدهم يمرُّ في الجوار.»

قالت السيدة سويربي وهي لا تزال هي نفسها تضحك: «كلما ضَحِكا، كان ذلك أفضل لهما! فالضحك للأطفال الأصحاء أفضل بكثير من تناول الدواء في أي يوم في السنة. هذان الطفلان سيصيران مُمتلئين بالتأكيد.»

قال ديكون: «لقد زاد وزنهما بالفعل؛ فهما دائمًا جوعى للغاية لدرجة أنهما لا يعرفان كيف يحصلان على كفايتهما من الطعام دون طلب. يقول السيد كولن إنه لو ظلَّ يُرسل في طلب المزيد من الطعام، لن يصدقوا أنه مريض تمامًا. وتقول الآنسة ماري إنها

ستدعه يأكل حصَّتها من الطعام، لكنه يقول إنها إن جاعت، ستَصير نحيفة ولا بدَّ لهما أن يَسمنان معًا في الوقت نفسه.»

ضحكت السيدة سويربي من كل قلبها حين علمت بهذه المعضلة لدرجة أنها أخذت تتمايَل إلى الأمام والخلف في عباءتها الزرقاء وشاركها ديكون الضحك.

قالت السيدة سويربي حين استطاعت التحدث: «سأُخبرك شيئًا يا فتًى، لقد فكَّرت في طريقة لمساعدتهما. حين تذهب إليهما في الصباح كل يوم ستأخذ معك دلوًا من الحليب الطازج اللذيذ، وسأَخبز لهما رغيفًا ريفيًّا يابسًا أو بعض الكعكات التي تحتوي على الكشمش، كتلك التي تحبونها؛ فلا شيء أفضل من الحليب والخبز الطازجين. وهكذا يتمكنان من سد جوعهما وهما في الحديقة، وما يحصلان عليه من طعام فاخر في المنزل سيُساعدهما على الشعور بالشبع تمامًا.»

قال ديكون بإعجاب: «صحيح يا أمي! يا لك من امرأة رائعة! دائمًا تجدين مخرجًا لكل مشكلة؛ لقد كانا في حال يُرثى لها أمس. لم يكن لديهما وسيلة لتدبير هذا الأمر دون طلب المزيد من الطعام، فقد شعرا بأن معدتهما خاوية.»

قالت السيدة سويربي: «إنهما طفلان يَكبران سريعًا، كما أنهما يستعيدان صحتهما. والأطفال مثلهم يكونون عادةً مثل الذئاب الصغيرة والطعام هو كل حياتهم.» ثم ابتسمت ابتسامة تشبه ابتسامة ديكون المقوَّسة، وقالت: «حسنًا! إنهما يستمتعان بوقتهما بالتأكيد.»

وكانت محقَّة في هذا تمامًا، تلك الأم الرائعة والمريحة، وكانت على حق تمامًا أيضًا حين قالت إن «ممارسة التمثيل» سيكون مصدر بهجتهما؛ فقد وجده كلٌّ من ماري وكولن واحدًا من أكثر مصادر المتعة إثارة لهما. وقد استوحيا فكرة ضرورة حماية أنفسهما من الشك في البداية من الممرِّضة الحائرة ثم الطبيب كرافن نفسه دون وعي منهما.

فقد قالت الممرضة في أحد الأيام: «إن شهيتكَ تتحسَّن كثيرًا يا سيد كولن؛ فقد اعتدتَ على عدم تناول أي شيء على الإطلاق ولم تكن تحبُّ الكثير من الأشياء.»

رد كولن: «لم أعد أكره شيئًا الآن.» وحين رأى الممرِّضة تنظر إليه بفضول، تذكر فجأة أنه ربما لا يجب أن يبدو معافًى أكثر من اللازم بعد، فقال: «على الأقل لم أعد أكره الأشياء طوال الوقت. كل هذا بفضل الهواء النقي.»

قالت الممرضة، وهي ما زالت تنظر إليه وعلى وجهها تعبير حائر: «ربما يكون هذا صحيحًا، لكن لا بدَّ لي من التحدث مع الدكتور كرافن بشأن ذلك.»

قالت ماري حين انصرفت الممرضة: «أرأيت كيف حدَّقت فيك! كما لو أنها تعتقد أن ثمة شيء لا بد من اكتشافه.»

قال كولن: «لن أدعها تكتشف أي شيء. فلا بد ألا يشرع أحد في اكتشاف أي شيء الآن.» وحين أتى الطبيب كرافن في صباح ذلك اليوم بدت عليه الحيرة أيضًا. فطرح عددًا من الأسئلة، ما أثار حنق كولن كثيرًا.

قال له: «أنت تقضي وقتًا طويلًا في الحديقة، أين تذهب؟»

ارتدى كولن قناع اللامبالاة المهيبة لأيِّ رأيٍ المفضلَ لديه.

رد قائلًا: «لن أسمح لأحد بأن يعرف إلى أين أذهب. فأنا أذهب أينما شئتُ. لقد أعطيتُ أوامري للجميع بالبقاء بعيدًا عن طريقي. لن أدع أحدًا يُراقبني ويُحدِّق فيَّ. وأنت تعلم هذا!»

«يبدو أنك تقضي اليوم بأكمله بالخارج، لكني لا أعتقد أن هذا قد أضرَّ بصحتك، لا أعتقد هذا. فالممرضة تقول إنك صرتَ تأكل أكثر بكثير من ذي قبل.»

رد كولن مدفوعًا بإلهام مفاجئ هبط عليه: «لعلها ... لعلها شهيَّة غير طبيعية.»

قال الطبيب كرافن: «لا أعتقد هذا؛ إذ يبدو أن الطعام صار يروق لك. إنك تكتسب وزنًا بسرعة ولون وجهك صار أفضل.»

قال كولن مُتصنِّعًا كآبة مُحبطة: «ربما ... ربما أكون منتفخًا ومحمومًا. فالأشخاص الذين لن يعيشوا طويلًا عادةً ما يكونون ... مختلفين.» هزَّ الطبيب كرافن رأسه، وكان ممسكًا بمعصم كولن ويرفع كمه لأعلى ليتحسَّس ذراعه.

قال بتفكير عميق: «أنت لست محمومًا، وهذا الوزن الذي اكتسبته دلالة صحة. وإن استطعت يا بُني المواظبة على هذا، لن نحتاج إلى الحديث عن الموت بعد الآن. سيَسعد والدك للغاية حين يسمع بهذا التحسن الملحوظ.»

انفجر كولن في غضب وقال: «لن أسمح بإخباره! فلن يجنيَ سوى الإحباط وخيبة الأمل إذا ساءت حالتي مرةً أخرى، وربما ستسوء هذه الليلة؛ فربما أصاب بحمى شديدة. وأشعر بأنني على شفا الإصابة بواحدة الآن. لن أسمح بإرسال خطابات لوالدي، لن أسمح، لن أسمح! أنت تُصيبني بالغضب، وتعلم أن هذا خطر على صحتي. إنني أشعر بالسخونة بالفعل. أنا أكره كتابة خطابات عني والتحدث عني تمامًا مثلما أكره تحديق الناس فيَّ!»

هدأ الدكتور كرافن من روعه وقال: «صه يا ولدي! لن يُكتَب عنك شيءٌ دون إذن منك. أنت شديد الحساسية تجاه الأشياء. عليك ألا تبطل مفعول الأشياء الجيدة التي حدثت.»

لم يقل شيئًا آخر عن الكتابة إلى السيد كرافن وحين رأى الممرِّضة حذَّرها سرًّا من ذكر احتمال حدوث هذا أمام المريض.

قال لها: «لقد تحسَّن الفتى على نحو استثنائي؛ فما طرأ من تقدم على حالته غير طبيعي. لكنه بالطبع يفعل الآن بإرادته الحرة ما لم نستطع إجباره على فعله من قبل. ولكنه ما زال ينفعل بسهولة شديدة ولا بدَّ من الامتناع عن قول أي شيء يثير غضبه.»

انزعج كل من ماري وكولن وتحدَّثا معًا في الأمر بقلق بالغ. ومن ذلك الحين بدأت خطتهم «للتمثيل».

قال كولن في أسف: «قد أضطر إلى الدخول في نوبة غضب، وأنا لا أريد الإصابة بها، ولستُ بائسًا بما يكفي الآن حتى أُدخل نفسي في نوبة كبيرة. وربما حتى لا أستطيع ذلك. فتلك الغُصة لم تعد تأتي إلى حلقي الآن وأصبحت مواظبًا على التفكير في أشياء جيدة بدلًا من الأشياء البشعة. لكن إذا تحدثوا عن الكتابة إلى والدي، فعليَّ أن أفعل شيئًا.»

عقد العزم على الإقلال من تناول الطعام، لكن مع الأسف لم يكن من الممكن تنفيذ هذه الفكرة الذكية حين كان يستيقظ في كل يوم بشهية رهيبة والطاولة بجوار أريكته معدة بوجبة إفطار من خبز منزلي الصنع، وزبد طازج، وبيض أبيض كبياض الثلج، ومربى توت وكريمة متخثرة. كانت ماري تتناول الإفطار معه دائمًا، وحين كانا يجلسان على الطاولة، لا سيما حال وجود شرائح رفيعة من اللحم المقدد تُصدر أزيزًا وتنبعث منها روائح مغرية من تحت غطاء فضي ساخن، كان كل منهما ينظر في عيني الآخر في يأس.

كان كولن دومًا ينهي الأمر بقول: «ماري، أعتقد أن علينا إنهاء هذا الطعام كله هذا الصباح. بإمكاننا إعادة بعضٍ من طعام الغداء وقدر كبير من طعام العشاء.»

إلا أنهما لم يجدا قطُّ ما يمكنهما إعادته، وأثارت الصحون التي تعود لامعة وفارغة تمامًا إلى حجرة إعداد الطعام أثارت الكثير من التعليقات.

كان كولن يقول أيضًا: «أتمنى لو كانت شرائح لحم الخنزير أكثر سمكًا كما أن كعكة واحدة لكل فرد لا تكفي أي شخص.»

ردَّت ماري حين سمعت هذا لأول مرة: «إنها كافية لشخص على شفا الموت، لكنها لا تكفي لشخص سيعيش. فأنا أشعر في بعض الأحيان كما لو أن باستطاعتي تناول ثلاث

حين تتدفَّق تلك الروائح الجميلة المنعشة لنبات الخلنج والحولق من المستنقع عبر النافذة المفتوحة.»

في صباح ذلك اليوم الذي ذهب فيه ديكون، بعدما استمتعوا بوقتهم في الحديقة قرابة الساعتين، إلى خلف شجيرة ورد كبيرة وأحضر معه دلوين من القصدير وأوضح أن أحدهما مليء باللبن الغني الطازج تعلوه طبقة من القشدة، والآخر يحتوي على كعكات ريفية الصنع تحتوي على الكشمش ملفوفة في منديل أبيض في أزرق نظيف، ملفوفة بعناية لدرجة أنها ما زالت ساخنة، وعمت عاصفة عارمة من الفرحة من المفاجأة. يا لها من فكرة رائعة من السيدة سويربي! يا لها من سيدة طيبة وذكية! يا لجمال هذه الكعكات الصغيرة! وما ألذ هذا اللبن الطازج!

قال كولن: «إن السحر بداخلها تمامًا مثل ديكون؛ فهو الذي يجعلها تفكر في طرق لفعل الأشياء ... الأشياء الجميلة. إنها امرأة ساحرة. أخبرْها بأننا ممتنُّون لها، يا ديكون، ممتنُّون للغاية!» كان معتادًا على استخدام عبارات الكبار في بعض الأوقات. وكان يستمتع بها، ويحب استخدامها كثيرًا لدرجة جعلته يُحسنها.

«أخبرْها بأنها كانت في غاية الكرم والجود معنا، وأننا ممتنون لها أشد الامتنان.»

وبعدها نسي كبرياءه تمامًا وانقض على الكعكات وتناولها بشراهة وشرب الحليب من الدلو مباشرةً بنهم شديد مثل أي فتى صغير جائع ظلَّ يمارس نشاطًا غير معتاد ويتنفس هواء المستنقع وتناول إفطاره منذ أكثر من ساعتين.

كانت هذه بداية لكثير من الوقائع الرائعة من هذا النوع. فقد تنبها لحقيقة أنه بما أن السيدة سويربي لديها أربعة عشر شخصًا عليها أن توفِّر لهم الطعام، فربما لا يوجد لديها ما يكفي لإطعام فردَين إضافيين كل يوم. ولهذا طلبا منها السماح لهما بإرسال بعض شلنتاهما إليها من أجل شراء الأشياء.

اكتشف ديكون اكتشافًا مثيرًا وهو أنه في حديقة المتنزَّه أمام الحديقة التي عثرت فيها عليه ماري لأول مرة وهو يعزف على مزماره للحيوانات البرية، يوجد تجويف صغير عميق يُمكنك أن تبني به فرنًا صغيرًا بالحجارة، وشيَّ البطاطس والبيض بداخله. كان البيض المشوي رفاهية لم تردْ إلى علمه من قبل، كما كانت البطاطس الساخنة مع الملح والزبد الطازج بداخلها طعامًا ملائمًا لملك الغابة، بالإضافة إلى كونه لذيذًا ومشبعًا. وكان بإمكان المرء شراء كلٍّ من البطاطس والبيض وتناولهما بالقدر الذي يشاء دون أن يشعر بأنه يأخذ الطعام من أفواه أربعة عشر فردًا.

في كل صباح جميل كانت الدائرة السرية تمارس السحر أسفل شجرة الخوخ، التي أصبحت توفر لهم ظُلة بأوراقها الخضراء الكثيفة بعدما انتهت فترة إزهارها القصيرة. وبعد انتهاء المراسم كان كولن دومًا يمارس المشي، وعلى مدار اليوم كان يُعمِل هذه الطاقة الجديدة التي اكتشفها في نفسه على فترات متباعدة. وكان يزداد قوة يومًا بعد يوم، واستطاع المشي بثبات أكثر وقطع مسافات أكبر. كما كان إيمانه بالسحر يزداد قوة مع مرور الأيام، كما هو متوقع. حاول إجراء تجربة تلو الأخرى؛ إذ شعر بأنه يكتسب قوة وكان ديكون هو من أراه أفضل الأشياء على الإطلاق.

قال في أحد الأيام بعد غيابه عنهما لفترة: «ذهبتُ أمس إلى ثوايت من أجل أمي ورأيتُ بوب هاورث بالقرب من نُزل بلو كاو. إنه أقوى فتًى في المستنقع. إنه بطل مصارعة ويمكنه القفز لمسافات أعلى من أي فتًى آخر، ويُمكنه قذف المطرقة إلى أبعد مسافة. لقد ذهب إلى إسكتلندا من أجل ممارسة الرياضة لبضع سنوات، وهو يعرفني منذ كنتُ صغيرًا وهو ودود للغاية فطرحتُ عليه بعض الأسئلة. يُطلق عليه علية القوم بطلًا رياضيًّا وفكرتُ فيك يا سيد كولن، وقلتُ له: «كيف تجعل عضلاتك بارزة هكذا يا بوب؟ هل تفعل أي شيء إضافي لتجعل نفسك قويًّا هكذا؟» فقال لي: «حسنًا، أجل يا فتى أفعل. فقد أراني رجل قوي في أحد العروض التي أتتْ إلى ثوايت ذات مرة كيف أُدرب ذراعيَّ وساقيَّ وكل عضلة في جسمي.» فقلت له: «وهل يُمكن لفتًى ضعيف أن يزيد قوته بواسطتها يا بوب؟» فضحك وقال لي: «هل أنت هذا الفتى الضعيف؟» فقلت له: «كلا، لكني أعرف سيدًا شابًّا يتعافى من مرض طويل وأتمنى لو أعرف بعض الحيل لأخبره بها.» دون أن أذكر أي أسماء، وهو لم يسألني عنها؛ فهو شخص ودود كما أخبرتك. فوقف وأراني التدريبات عن طيب خاطر، وأخذت أقلده فيما يفعله حتى حفظتها عن ظهر قلب.»

كان كولن ينصت بحماس شديد.

ثم صاح قائلًا: «هل يُمكنك أن تريني إياها؟ هل هذا ممكن؟»

رد ديكون وقد همَّ بالوقوف: «أجل، بالتأكيد. لكنه قال إنك يجب أن تمارسها برفق في البداية وأن تحرص على ألا تُرهق نفسك. عليك أن تستريح من وقت لآخر، وأن تأخذ أنفاسًا عميقة وألا تُفرط في ممارستها.»

قال كولن: «سألتزم الحرص الشديد، هيا أرني! أرني يا ديكون! إنك أكثر فتًى ساحر في العالم!»

وقف ديكون على العشب، وبدأ ببطء في ممارسة سلسلة من التدريبات العضلية العملية والبسيطة بحرص. شاهد كولن هذه التمرينات بعينين مُتَّسعتين، واستطاع

ممارسة بعض منها وهو جالس. ومارس بعضًا منها برفق وهو واقف على قدميه الراسختين بالفعل. وبدأت ماري أيضًا في ممارستها. أما سوت، الذي كان يُشاهد هذا العرض، فقد أصيب باضطراب شديد وترك الفرع الذي كان يقف عليه وظل يقفز في أنحاء المكان بتململ؛ لأنه لا يستطيع ممارسة هذه التمرينات هو الآخر.

ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه التمرينات جزءًا من الواجبات اليومية تمامًا مثل السحر. واستطاع كلٌّ من كولن وماري ممارسة المزيد منها في كل مرة يحاولان فيها، وأدَّى هذا إلى زيادة شهيتهما، ولولا السلة التي يضعها ديكون خلف الشجيرة في كل صباح حين يأتي، لصارا في خبر كان. غير أن طعام الفرن الصغير في التجويف وهِبات السيدة سويربي السخية كانت كافية للغاية، حتى إن السيدة ميدلوك والممرضة والطبيب كرافن عادوا إلى حيرتهم مرةً أخرى. فيمكن للمرء أن يتناول قدرًا ضئيلًا من طعام الإفطار ويزدري طعام العشاء بالكامل إذا كان يشعر بالامتلاء الشديد بسبب البيض والبطاطس المشويين والحليب الطازج الغني بالقشدة وكعكات الشوفان والكعكات الصغيرة المحلاة وعسل الخلنج والقشدة المتخثرة.

قالت الممرضة: «إنهما لا يَتناولان شيئًا. سيموتان من الجوع إن لم نستطع إقناعهما بالحصول على قدر من التغذية. ومع ذلك انظري إلى شكلهما.»

ردَّت السيدة ميدلوك في سخط: «أنظر! يا إلهي! أكاد أموت بسببهما، إنهما شيطانان صغيران. تكاد معاطفهما تنفجر عليهما في أحد الأيام، ومع ذلك ينفران من أفضل الأطعمة التي يمكن للطاهية أن تغريهما بها. فلم يتذوَّقا ولو قدر من تلك الدجاجة الصغيرة اللذيذة ولم يقربا صلصة الخبز يوم أمس، حتى العصيدة التي اخترعتها الطاهية المسكينة خصِّيصًا من أجلهما، عادت إليها دون أن يمسَّاها، وكادت تبكي؛ فقد خشيت أن يُلقى عليها اللوم إن تضوَّرا جوعًا حتى الموت.»

جاء الطبيب كرافن وفحص كولن طويلًا وبعناية، وبدا عليه قلق شديد حين تحدثت إليه الممرضة وأرته صينية الإفطار التي لم تُمسَّ تقريبًا، والتي احتفظت له بها حتى يراها، ولكن قلقه تزايد حين جلس بجوار كولن على الأريكة وفحصه. لقد استُدعي إلى عمل في لندن ولم يرَ الفتى لقرابة أسبوعين. حين يبدأ الأطفال الصغار في استعادة صحتهم يحدث هذا سريعًا. فقد غادر اللون الشمعي بشرة كولن وظهر عليها لون وردي دافئ؛ أما عيناه الجميلتان فقد أصبحتا صافيتين وامتلأت التجاويف أسفلهما وفي وجنتيه وصدغيه، وبدأت خُصلات شعره التي كانت داكنة وكثيفة في وقت من الأوقات تبدو كما لو أنها

تتدلى بصحة من على جبهته وصارت ناعمة ومفعَمة بالحياة. وصارت شفتاه أكثر امتلاءً ولونهما طبيعي. في الحقيقة، كان مظهره فاضحًا كصورة زائفة لطفل ثبت عجزه. أمسك الطبيب كرافن بذقنه في يده وأخذ يفكر في أمره مليًّا.

قال: «يؤسفني ما سمعته عن أنك لا تأكل أي شيء. هذا لا يصح. هكذا ستفقد كل استعدته من صحتك، وقد استعدتَ منها الكثير على نحو مدهش. لقد كنت تتناول الطعام على نحو جيد للغاية منذ فترة وجيزة.»

رد كولن: «لقد أخبرتُكَ أنها كانت شهية غير طبيعية.»

كانت ماري تجلس على مسند القدمين الذي تجلس عليه بالقرب منهما وأصدرت فجأة صوتًا غريبًا للغاية حاولت كبحه بشدة حتى كادت تختنق في النهاية.

قال الطبيب كرافن وهو يلتفت لينظر إليها: «ما الأمر؟»

صار أسلوب ماري حادًّا للغاية.

أجابته بتعالٍ مؤنِّب: «كان هذا شيئًا بين العطس والسعال، ووقف في حلقي.»

قالت فيما بعد لكولن: «لكني لم أستطع منع نفسي. فقد انفجرت رغمًا عني إذ تذكرت فجأة آخر حبة بطاطس كبيرة تناولتَها والطريقة التي مددتَ بها فمك حين قضمت تلك القشرة السميكة الرائعة بما عليها من مربى وقشدة متخثرة.»

سأل الطبيب كرافن السيدة ميدلوك: «هل ثمَّة طريقة أخرى يستطيع بها هذان الطفلان الحصول على الطعام سرًّا؟»

أجابت السيدة ميدلوك: «لا يوجد إلا إذا حفرا الأرض وأخرَجا منها الطعام أو قطفاه من على الأشجار. إنهما يقضيان اليوم بأكمله بالخارج ولا يريان أحدًا إلا بعضهما. وإن أرادا تناول شيء مختلف عما يُرسل إليهما، ليس عليهما إلا طلبه.»

قال الطبيب كرافن: «حسنًا، طالما أن عدم تناول الطعام يوافقهما ويشعرهما بالراحة، فلا داعي لإزعاجهما. فالفتى قد صار مخلوقًا جديدًا.»

قالت السيدة ميدلوك: «وكذلك الفتاة؛ فقد بدأت تبدو جميلة بمعنى الكلمة منذ زاد وزنها وتخلَّصت من مظهرها الحاد الضئيل القبيح. كذلك صار شعرها كثيفًا وذو مظهر صحي وأصبح لونها زاهيًا. لقد كانت فتاة عابسة سيئة الطبع، أما الآن فهي والسيد كولن يضحكان معًا مثل طفلين صغيرين مهووسين. وربما كانت زيادة وزنهما من أثر هذا.»

قال الطبيب كرافن: «ربما يكون هذا صحيحًا. دعيهما يضحكان.»

الفصل الخامس والعشرون

الستار

ظلَّت الحديقة السرية تُزهر وتُزهر، وفي كل صباح تُفصِح عن أعاجيب جديدة. صار في عُش أبي الحنَّاء بيض وجلست رفيقته عليه لتُبقيه دافئًا بصدرها الصغير المكسو بالريش وجناحيها الحاميَين. في البداية كانت شديدة العصبية وحتى أبو الحنَّاء نفسه كان أرِقًا مُتيقِّظًا. حتى ديكون لم يقترب من هذا الركن القريب الناشئ في هذه الأيام، إنما انتظر حتى أرسل لأرواح هذا الزوج الصغير، بتأثير تعويذة غامضة، بأن هذه الحديقة ليس بها ما لا يشبههما؛ فكل شيء فيها يُدرك روعة ما يحدث لهما، ويُدرك ذلك الجمال الغضَّ الرهيب الذي يَفطر القلب لهذا البيض وجلاله. ولو كان في هذه الحديقة شخص واحد لا يعرف في أعماقه أنه إذا أُخذَت واحدة من هذا البيض أو أضيرت، فإن العالم بأسره سيَنقلِب رأسًا على عقب ويَنتهي تمامًا ... لو أن شخصًا واحدًا لا يشعر بهذا ويتصرَّف على هذا الأساس، لما كان من المُمكن أن يكون ثمَّة وجود لأي سعادة حتى في هواء الربيع الذهبي هذا. ولكنَّهم جميعًا كانوا يعلمون هذا ويشعرون به، وكان أبو الحنَّاء ورفيقته يعلمان أنهم يعلمون.

في البداية راقب أبو الحنَّاء ماري وكولن بقلق بالغ. ولسبب غامض كان يعلم أنه ليس مضطرًّا لمراقبة ديكون. فحين وقعت عيناه السوداوان اللامعتان كالندى للوهلة الأولى على ديكون، علم أنه ليس غريبًا عنه وإنما هو أبو حناء مثله لكن دون منقار أو ريش. فقد كان يستطيع التحدث بلغته (وهي لغة فريدة ومميَّزة لا يُمكن لأحد أن يخلط بينها وبين أي لغة أخرى). كان الحديث بين طيور هذه الفصيلة يُشبه التحدث بالفرنسية مع رجل فرنسي. وكان ديكون دومًا ما يتحدَّث مع أبي الحنَّاء بلغته، ولذا لم يكن يأبه مُطلقًا بالثرثرة الغامضة التي يتحدَّث بها مع البشر. فقد كان أبو الحنَّاء يَعتقد أن ديكون يستخدم هذه اللغة غير المفهومة في الحديث مع البشر لأنهم ليسوا أذكياء بالقدر الكافي

الذي يُمكنهم من فهم حديث الطيور. حتى حركاته أيضًا كانت تشبه حركات أبي الحنَّاء؛ فلم تكن تُسبِّب الفزع قط لكونها مفاجئة بالقدر الذي يجعلها تمثل خطورة أو تهديدًا. كان باستطاعة أي من طيور أبي الحنَّاء فهم ديكون؛ ولهذا لم يكن وجوده يسبب حتى إزعاجًا.

ولكن في البداية بدا ضروريًّا أن يكون حذرًا من الطفلين الآخرين. فمنذ البداية لم يأتِ الفتى الصغير إلى الحديقة سيرًا على قدميه؛ بل كان يُدفَع على شيء له عجل ومُغطًّى بجلود الحيوانات البرية، وكان ذلك في حدِّ ذاته يدعو للشك. ثم عندما بدأ يقف على قدميه ويتحرَّك في المكان، فعل هذا بأسلوب غريب غير معتاد، وبدا الآخرون مُضطرون لمساعدته في هذا. اعتاد أبو الحنَّاء الاختباء في إحدى الشجيرات ومراقبة كل هذا بقلق، وكان يَميل برأسه أولًا إلى جانب ثم إلى الجانب الآخر. فقد ظنَّ أن التحركات البطيئة للفتى ربما تعني أنه يستعدَّ للانقضاض، كما تفعل القطط. فحين تستعد القطط للانقضاض، تزحف على الأرض ببطء شديد. تحدث أبو الحنَّاء بشأن هذا الأمر مع رفيقته كثيرًا لعدة أيام، لكنه بعد ذلك قرَّر عدم التحدُّث معها في هذا الموضوع لأن شعورها بالرعب كان بالغًا لدرجة أنه خشي أن يكون مؤذيًا للبيض.

حين بدأ الفتى يسير وحده بل صار يتحرَّك بسرعة أكبر، شعر أبو الحنَّاء بارتياح كبير. ولكن ظل هذا الفتى وقتًا طويلًا، أو بدا لأبي الحنَّاء أنه وقت طويل، مصدرًا لقدر من القلق. فلم يكن يتصرَّف مثل غيره من البشر. لقد بدا مولعًا بالمشي بشدة، لكنه كان يجلس أو يستلقي لبعض الوقت ثم ينهض بأسلوب مُحيِّر ليبدأ في السير مرةً أخرى.

وفي أحد الأيام تذكَّر أبو الحنَّاء أنه حين كان هو نفسه يتعلم الطيران على يد والديه، كان يفعل الشيء نفسه تقريبًا. فقد كان يطير لمسافات قصيرة لا تتجاوز بضع ياردات ثم يُضطر للراحة. ولهذا خطر له أن هذا الفتى كان يتعلم الطيران، أو بالأحرى السير. وذكر هذا لرفيقته وحين أخبرها أن فراخهما على الأرجح ستنتهج النهج نفسه حين ينبت لها ريش، شعرت بارتياح كبير، بل صارت مهتمَّة بالأمر اهتمامًا شديدًا وتجد متعة كبيرة في مراقبة الفتى من على حافة عُشها، على الرغم من أنها كانت ترى دومًا أن فراخها ستكون أكثر ذكاءً منه وستتعلَّم أسرع بكثير. لكنها بعد ذلك قالت بلطف إن البشر دومًا أكثر رعونة وأبطأ من البيض، ومعظمهم يبدو أنه لا يتعلم الطيران أبدًا. فالطيور لا تراهم أبدًا في الهواء ولا على قمم الأشجار.

بعد فترة بدأ الفتى يتحرك في أرجاء المكان تمامًا مثل الآخرين، لكن الأطفال الثلاثة كانوا أحيانًا ما يفعلون أشياء غير معتادة. فكانوا يقفون تحت الأشجار ويحركون أذرعهم

وسيقانهم ورءوسهم بطريقة غريبة لا تُشبه السير ولا الركض ولا حتى الجلوس. وكانوا يقومون بهذه الحركات على فترات كل يوم، ولم يستطع أبو الحنَّاء أبدًا أن يفسر لرفيقته ما يفعلونه أو يحاولون فعله. لم يسَعه إلا قول إنه متأكد من أن فراخه لن تتحرَّك بهذه الطريقة أبدًا، لكن بما أن الفتى الذي يُجيد التحدث بلغة أبي الحنَّاء بطلاقة كان يؤدِّي هذه الحركات معهما، كان للطيور أن يَثقوا بأن هذه الأفعال لم تكن ذات طبيعة خطيرة. بالطبع لم يسمع أبو الحنَّاء ولا رفيقته عن البطل المصارع بوب هاورث، ولا عن تدريباته لإبراز العضلات ككتل. فطيور أبي الحنَّاء تَختلف عن البشر؛ فهي تُدرب عضلاتها طوال الوقت منذ بداية نشأتها، ولهذا تنمو بطريقة طبيعية. فإن كان يطير في كل مكان بحثًا عن كل وجبة يتناولها، فإن عضلاته لا تضمر (أي تبلى جرَّاء عدم استخدامها).

حين كان الفتى يسير ويركض في الأنحاء ويحفر الأرض ويَقتلع الحشائش الضارة مثل رفيقيه الآخرين، كان العُش الكائن في الركن يخيم عليه سلام وطمأنينة شديدان. فقد صار الخوف على البيض شيئًا من الماضي. فمعرفة أن البيض في مأمن كما لو كان محفوظًا في خزينة أحد البنوك، وحقيقة أنه يُمكن للمرء مشاهدة العديدة من الأشياء الغريبة تحدث من حوله، كل ذلك جعل المشهد ممتعًا وأخَّاذًا. وفي الأيام المطيرة كانت والدة البيض تشعر أحيانًا بقليل من الضجر لعدم قدوم الأطفال لا يأتون إلى الحديقة.

ولكن حتى في الأيام المطيرة لا يُمكننا القول إن ماري وكولن كانا يشعران بالضجر. ففي صباح أحد الأيام، حين هطل المطر دون توقف وبدأ كولن يشعر بقليل من الضجر والتململ؛ إذ كان مضطرًّا إلى البقاء على أريكته لأنه؛ لأنه لم يكن من الآمن له أن ينهض ويسير في المكان، هبط إلهام على ماري.

قال كولن: «أما وقد أصبحتُ الآن فتًى حقيقيًّا، أصبح ذراعاي وساقاي وكل جسمي مليئًا بالسحر حتى إنني لا يُمكنني إبقاؤهم ساكنين. إنهم يريدونني أن أفعل أشياء طوال الوقت. هل تعلمين يا ماري أني حين أستيقظ في الصباح، حين يكون الوقت مبكرًا للغاية وبدأت الطيور للتوِّ تصيح لبعضها بالخارج، ويبدو كل شيء يصيح فرحًا، حتى الأشجار والأشياء التي لا نستطيع سماعها، أشعر كما لو أني أريد أن أقفز من سريري وأصيح أنا أيضًا. فكِّري فيما سيحدث لو فعلتُ هذا!»

قهقهت ماري على نحو غير عادي.

قالت: «ستأتي المُمرِّضة راكضة والسيدة ميدلوك أيضًا وستتيقَّنان من أنك قد أُصبت بالجنون وستُرسلان في طلب الطبيب.»

قهقه كولن هو الآخر؛ فقد استطاع أن يتخيَّل منظرهم جميعًا، وهم في هول من نهوضه المفاجئ وذهولهم من رؤيته واقفًا على قدميه منتصب القامة.

قال: «أتمنى أن يعود والدي إلى المنزل. أريد أن أخبره بنفسي. إنني أفكر في الأمر طوال الوقت، لكننا لن نستطيع الاستمرار على هذا النحو لأطول من ذلك. فأنا لا أطيق الاستلقاء دون حراك والتظاهر، بالإضافة إلى أن شكلي قد صار مختلفًا تمامًا. ليت الأمطار لم تهطل اليوم.»

في هذه اللحظة هبط الإلهام على الآنسة ماري.

بدأت حديثها بأسلوب مبهم قائلة: «كولن، أتعلم كم عدد الغرف الموجودة في هذا المنزل؟»

أجابها: «حوالي مائة، على ما أعتقد.»

قالت ماري: «يوجد مائة غرفة تقريبًا لم يطأها أحد قط، وفي أحد الأيام المطيرة ذهبتُ وتفحصتُ عددًا كبيرًا منها. لم يعلم أحد قط بهذا، على الرغم من أن السيدة ميدلوك كادت تكشف أمري. فقد ضللتُ طريقي وحين كنتُ عائدة وقفتُ عند نهاية الرواق المؤدِّي إلى غرفتك، وكانت تلك هي المرة الثانية التي أسمع بكاءك فيها.»

انتفض كولن من على أريكته.

قال: «مائة غرفة لم يدخلها أحد، يبدو هذا أشبه بالحديقة السرية. نفترض أننا ذهبنا وتفقدناها؛ عليكِ أن تدفعيني في مقعدي المتحرك ولن يعلم أحد أننا قد ذهبنا.»

قالت ماري: «هذا بالضبط ما كنتُ أفكر فيه؛ فلن يجرؤ أحد على تتبُّعنا. توجد أروقة يمكنك الركض فيها، كما ستتمكَّن من ممارسة تمارينك. وتوجد غرفة هندية صغيرة بها خزانة مليئة بالأفيال العاجية. توجد غرف من شتى الأنواع.»

قال كولن: «اقرعي الجرس.»

حين جاءت الممرضة أعطاها أوامره.

قال: «أريد مقعدي؛ فأنا والآنسة ماري سنذهب لتفقد الجزء غير المستخدم من المنزل. يمكن لجون أن يَدفعني حتى رواق الصور بسبب وجود بعض درجات السلم. ثم عليه أن يذهب ويتركنا وحدنا حتى أرسل في طلبه مرةً أخرى.»

تلاشت أهوال الأيام المطيرة في صباح ذلك اليوم. وحين دفع الخادم المقعد المتحرك إلى رواق الصور وترك الاثنين معًا امتثالًا للأوامر، نظر كل من كولن وماري أحدهما إلى الآخر بسعادة. وبمجرد أن تأكدت ماري من أن جون بالفعل في طريق عودته إلى غرفته في الطابق السفلي، نهض كولن من المقعد.

قال: «سأركض من طرف الرواق إلى طرفه الآخر، ثم سأقفز، وبعدها سنمارس تمارين بوب هاورث.»

فعَلا كل هذه الأشياء وأشياء أخرى كثيرة؛ فقد تفقَّدا صور الأشخاص وعثرا على صورة الفتاة الصغيرة ذات الملامح العادية، ذات الرداء الأخضر المزركش، حاملة الببغاء على إصبعها.

قال كولن: «لا بدَّ أن كل هؤلاء أقاربي؛ فقد عاشوا في هذا المكان قبل زمن طويل. وأعتقد أن هذه الفتاة التي تُمسك بالببغاء لا بدَّ أن تكون إحدى عماتي الكبيرات. إنها تشبهكِ بعض الشيء يا ماري، ليس بشكلك الحالي ولكن حين جئتِ إلى هنا. فقد ازداد وزنك كثيرًا الآن وصرت أجمل.»

قالت ماري: «وأنت أيضًا.» وضحك الاثنان.

ذهبا إلى الغرفة الهندية واستمتعا بوقتهما باللعب بالأفيال العاجية. وعثرا على الغرفة الخاصة بالسيدة ذات الرداء الوردي المطرز، والثقب في الوسادة الذي صنعته الفأرة، إلا أن فئرانها الصغار كبرت وذهبت بعيدًا وصار الثقب فارغًا. شاهدا المزيد من الغرف وقاما باكتشافات تفوق تلك التي توصَّلت إليها ماري في رحلتها الأولى؛ فعثرا على أروقة وأركان وسلالم جديدة، وكذا على صور قديمة جديدة أحباها كثيرًا، وعلى أشياء قديمة غريبة لم يدركا فيما تستخدم. كان صباحًا ممتعًا على نحو غريب، وكان شعور التجول في المنزل نفسه الذي يشاركونه مع أفراد آخرين مع الشعور في الوقت نفسه كما لو أن عدة أميال تفصلهم عنهم شعورًا رائعًا.

قال كولن: «أنا سعيد بمجيئنا إلى هنا؛ لم أكن أعلم قط أني أعيش في مثل هذا المكان الكبير القديم والغريب. لقد أحببته كثيرًا. سنأتي للتجول هكذا فيه في كل يوم ممطر. سنعثر دومًا على أركان وأشياء غريبة جديدة.»

في ذلك الصباح كان من بين الأشياء التي حدثت لهما انفتاح شهيتهما حتى إنهما حين عادا إلى غرفة كولن، لم يكن ممكنًا أن يعيدا طعام الغداء دون أن يتناولا منه شيئًا.

حين حملت الممرضة الصينية إلى أسفل، وضعتها على منضدة المطبخ بقوة حتى ترى الطاهية السيدة لوميس الأطباق والصحون الشديدة اللمعان.

قالت لها: «انظري إلى هذا! هذا منزل الألغاز، وهذان الطفلان هما أكبر الألغاز فيه.»

قال الخادم الشاب القوي جون: «إن كان مواظبين على ذلك كل يوم، فلا عجب في أنه يزن الآن ضعف ما كان عليه الشهر الماضي. لا بد لي من ترك موقعي هذا في الوقت المناسب، خشية أن أُوذي عضلاتي.»

لاحظت ماري في مساء ذلك اليوم أن شيئًا جديدًا قد طرأ على غرفة كولن. كانت قد لاحظت هذا التغيير في اليوم السابق، لكنها لم تقل شيئًا إذ ظنَّت أن هذا التغيير ربما حدث بالصدفة. لم تقل شيئًا اليوم أيضًا لكنها جلست ونظرت بثبات إلى الصورة المعلَّقة فوق رف الموقد. استطاعت النظر إليها لأن الستارة قد أُزيحت عنها، وكان هذا هو التغيير الذي لاحظته.

قال لها كولن لها بعدما ظلت تنظر إلى الصورة لبضع دقائق: «أعلم أنكِ تريدينني أن أخبرك؛ فأنا أعلم دومًا حين تريدين أن تخبريني بشيء ما. أنتِ تتساءلين عن سبب إزاحة الستارة. سأتركها هكذا.»

سألته ماري: «لماذا؟»

«لأنني لم أعد أشعر بالغضب حين أراها تضحَك. لقد استيقظتُ من النوم منذ ليلتين حين كان ضوء القمر ساطعًا، وشعرتُ كما لو أن السحر يملأ الغرفة ويجعل فيها كل شيء فيها غاية في الروعة حتى إنني لم أستطع الاستلقاء دون حراك. فنهضتُ ونظرت من النافذة. كانت الغرفة مضيئة للغاية، وكانت ثمَّة رقعة من ضوء القمر على الستارة، ودفعني هذا بشكل ما إلى الذهاب وشد الحبل. نظرت إليَّ مباشرةً كما لو أنها تضحك لسعادتها بأني أقف أمامها، ما جعلني راغبًا في النظر إليها. أريد رؤيتها وهي تضحك هكذا طوال الوقت. أظن أنها ربما كانت شخصية ساحرة من نوع ما.»

قالت ماري: «لقد أصبحت تشبهها كثيرًا الآن، حتى إنني أحيانًا أعتقد أنك شبحها وقد تجسد في هيئة فتى صغير.»

بدت تلك الفكرة وقد تركت أثرًا قويًّا لدى كولن؛ ففكر فيها ثم رد ببطء قائلًا: «لو كنتُ شبحًا لها، لأحبَّني والدي.»

سألته ماري: «أتريده أن يحبك؟»

«لقد اعتدتُ كره هذا لأنه لم يكن يحبُّني. أما إن أحبني، فأعتقد أني سأخبره بشأن السحر، لعل ذلك يجعله أكثر سعادة.»

الفصل السادس والعشرون

«إنها أمي!»

كان إيمانهم بالسحر أمرًا ثابتًا؛ فبعد إلقاء تعاويذ الصباح كان كولن في بعض الأحيان يلقي عليهم محاضرات عن السحر.

شرح لهم قائلًا: «أحب إلقاء المحاضرات؛ لأني حين أكبر وأقوم باكتشافات علمية عظيمة، سأضطر إلى المحاضرة بشأنها وهذا بمثابة تدريب لي. لا يُمكنني الآن إلا إلقاء محاضرات قصيرة لأني صغير السن للغاية، إلى جانب أن بِن ويذرستاف سيَشعر كما لو أنه داخل كنيسة، وسيغلبه النعاس.»

قال بِن: «إن أفضل شيء في إلقاء المحاضرات أن الفتى يستطيع الوقوف وقول ما يريده دون أن يناقشه أي شخص آخر في الأمر. أما أنا فلن أحاضر بنفسي في أي وقت.»

ولكن حين وقف كولن يتحدث طويلًا تحت شجرته، ثبت بِن العجوز عينيه النهمتين عليه ولم يحركهما، وأخذ ينظر إليه من أعلى لأسفل بتأثر بالغ. لم يكن مهتمًّا بالمحاضرة بقدر اهتمامه بساقيه اللتين بدتا أكثر استقامة وقوة يومًا بعد يوم، ورأسه الصبياني الذي كان مرفوعًا طوال الوقت عاليًا، وذقنه التي كانت فيما سبق حادة ووجنتيه اللتين كانتا مجوفتين والآن وأصبحتا ممتلئتين ومستديرتين، وعينيه المستديرتين اللتين بدأتا تُظهران لمعة تذكِّر رؤيتها في عينين أخريين. وفي بعض الأحيان حين كان كولن يشعر بأن نظرات بِن الصادقة تشير إلى تأثره وانبهاره الشديدَين، تساءل في نفسه عما يفكر فيه بِن وسأله ذات مرة حين بدا مبتهجًا ومنتشيًا للغاية.

سأله قائلًا: «فيمَ تفكر يا بِن ويذرستاف؟»

أجابه بن: «كنتُ أفكر في أني أكاد أجزم أن وزنك قد زاد ثلاثة أو أربعة أرطال هذا الأسبوع. كنتُ أنظر إلى ساقيك وكتفيك. أودُّ لو وضعتك على ميزان لأزنك.»

قال كولن: «إنه السحر و... والكعك المحلَّى والحليب والأشياء الأخرى التي ترسلها لنا السيدة سويربي. كما ترى؛ لقد نجحت التجربة العلمية.»

تأخَّر ديكون في صباح ذلك اليوم ولم يستمع إلى المحاضرة، وحين جاء كان متورد الوجه من الركض وبدا وجهه المبهج أكثر تألقًا من المعتاد. وبما أنه كان أمامهم الكثير من العمل في إزالة الحشائش الضارة بعد هطول الأمطار، فقد شرعوا في العمل مباشرةً. فدومًا ما يكون أمامهم الكثير من العمل بعد تساقط الأمطار الغزيرة الدافئة. فقد كانت الرطوبة المفيدة للأزهار مفيدة أيضًا للحشائش، التي ظهر منها أنصالٌ غاية في الصغر من العشب وأطراف أوراق لا بدَّ من اقتلاعها قبل أن ترسخ جذورها في الأرض. كان كولن بارعًا في إزالة الحشائش الضارة مثله مثل أي شخص في تلك الأيام، كما كان يستطيع إلقاء محاضرة في أثناء تأدية هذه المهمة. قال في صباح ذلك اليوم: «يُحقق السحر أفضل النتائج حين تعمل بنفسك. يمكنك الشعور به يسري في عظامك وعضلاتك. سأقرأ بعض الكتب عن العظام والعضلات، ولكني سأؤلف كتابًا عن السحر، وأعكف على تشكيل محتواه في ذهني الآن؛ فأنا أواصل استكشاف الأشياء.»

ولم يمضِ وقت طويل بعد انتهائه من هذا الكلام حتى وضع مِقلعه على الأرض ووقف على قدميه. ظل صامتًا لعدة دقائق وأدركوا جميعًا أنه كان يفكر في المحاضرات كما يفعل في الغالب. وحين أسقط مقلعه ووقف منتصبًا، بدا لكلٍّ من ماري وديكون كما لو أن فكرة قوية مفاجئة هي التي دفعته إلى ذلك. مدد جسده إلى أعلى ارتفاع يمكن لجسده الوصول إليه، ومد ذراعيه في جزل، واتَّقد وجهه بحمرة قوية واتَّسعت عيناه الغريبتان من السعادة؛ فقد توصل لتوِّه إلى إدراك كامل لشيء ما.

صاح قائلًا: «ماري! ديكون! انظرا إليَّ!»

توقَّفا عن اقتلاع الأعشاب الضارة ونظرا إليه.

سألهما: «أتتذكران ذلك الصباح الذي أحضرتماني فيه إلى هنا أول مرة؟»

كان ديكون ينظر إليه بتمعُّن شديد؛ فبصفته مروضًا للحيوانات، كان بإمكانه رؤية أشياء أكثر بكثير مما يراه معظم الأشخاص، وكثير من هذه الأشياء لم يكن يتحدث عنها أبدًا.

لقد رأى الآن بعضًا من هذه الأشياء في هذا الفتى؛ فأجابه قائلًا: «أجل، نتذكر.»

نظرت إليه ماري بتمعُّن شديد أيضًا، لكنها لم تقُل شيئًا.

قال كولن: «في هذه اللحظة بالذات تذكرتُ هذا فجأة، حين نظرتُ إلى يدي وأنا أحفر الأرض وأمسك بالمقلع، وكان لا بد لي من الوقوف منتصبًا على قدمي حتى أرى إن كان هذا حقيقيًّا. ووجدته حقيقيًّا بالفعل فأنا بخير، أنا بخير!»

قال ديكون: «أجل، أنت كذلك بالفعل!»

وأخذ كولن يردِّد مرةً أخرى: «أنا بخير! أنا بخير!» واكتسى وجهه كاملًا بحمرة قوية.

كان يعلم من قبل وبطريقة ما أن هذا سيحدث، فقد كان يتمناه ويشعر به ويفكر فيه، لكن في تلك اللحظة بالذات اجتاح شيء ما كل أجزاء جسده، نوع من الإيمان والإدراك المبهج، وكان قويًّا لدرجة أنه لم يتمالك نفسه وصاح بصوت عالٍ.

صاح بهيبة قائلًا: «سأعيش إلى أبد الآبدين! سأستكشف آلاف الأشياء، وأكثر. سأكتشف كل شيء عن البشر والكائنات وكل شيء ينمو، مثلما يفعل ديكون، ولن أتوقف عن ممارسة السحر. أنا بخير! أنا بخير! أشعر ... أشعر كما لو كنتُ أريد الصياح بشيء ... بشيء ينم عن الامتنان والسعادة!»

حدَّق فيه بِن ويذرستاف، الذي كان يعمل بالقرب من شجيرة ورد، واقترح عليه بنبرة تذمُّر جافة للغاية: «ربما يُمكنك غناء ترنيمة التسبيح والشكر.» لم يكن لديه أي وجهة نظر خاصة بهذه الترنيمة على الإطلاق، ولم يطرح هذا الاقتراح بأي تبجيل مميَّز.

ولكن كولن كان ذا عقلية استكشافية ولم يكن يعرف أي شيء عن ترنيمة التسبيح والشكر.

فسأل: «ما هذه؟»

أجابه بِن ويذرستاف: «أنا متأكد من أن ديكون يمكنه أن يغنيها لك.»

رد ديكون بابتسامة مروِّض الحيوانات المدرك لكل شيء.

قال: «إنهم يُنشدونها في الكنيسة، وتقول أمي إنها تعتقد أن طيور القُبَّرة تغنيها أيضًا حين تستيقظ في الصباح.»

رد كولن: «إن كانت تقول ذلك، فلا بدَّ أنها أغنية لطيفة. إنني لم أذهب إلى الكنيسة أبدًا؛ فقد كنتُ مريضًا للغاية طوال الوقت. غنِّها يا ديكون، أريد أن أسمعها.»

تعامل ديكون مع هذا الأمر ببساطة بالغة ودون تكلُّف. كان يدرك ما يشعر به كولن أكثر من كولن نفسه. وكان تفهُّمه للأمر نابعًا من غريزة فطرية للغاية لدرجة أنه لم يعلم أن هذا نوع من التفهم. فخلع قبعته ونظر حوله وهو ما زال يبتسم.

قال لكولن: «لا بدَّ أن تخلع قبعتك، وأنت أيضًا يا بن، وعليك الوقوف أيضًا.»

خلع كولن قبعته فسقطت أشعة الشمس على رأسه ودفأت شعره الكثيف وهو يراقب ديكون بانتباه. أما بِن ويذرستاف فقد نهض بصعوبة من على ركبتيه وخلع قبعته أيضًا وعلت وجهه العجوز نظرة حائرة شبه استنكارية كما لو أنه لا يعلم بالضبط سبب إقدامه على هذا الفعل الغريب.

وقف ديكون بين الأشجار وشجيرات الورد وبدأ في الغناء بأسلوب هادئ وبسيط يخلو من المشاعر وبصوت صبياني عذب وقوي:

«يُسبح باسم الرب مصدر كل النعم،
يُسبح باسم الرب جميع مخلوقاته على الأرض،
يُسبح باسم الرب في السموات العليا بين الحشود السماوية،
يُسبح باسم الآب، والابن، والروح القدس.
آمين.»

حين انتهى كان بِن ويذرستاف يقف ساكنًا زامًّا فكَّيه في عناد، ولكن ظهرت في عينيه المثبتتَين على كولن نظرة مضطربة. أما وجه كولن فقد كان يبدو عليه التأمل والشعور بالامتنان.

قال: «إنها أغنية لطيفة للغاية، لقد أحببتُها. ربما تعني ما أقصده تمامًا حين أريد الصياح بصوت عالٍ تعبيرًا عن شكري للسحر.» ثم توقف وفكر قليلًا بأسلوب حائر، وقال: «ربما كلاهما الشيء نفسه. كيف يمكننا معرفة الاسم الدقيق لكل شيء؟ غنِّها مرةً أخرى يا ديكون. لنُجرِّب يا ماري؛ فأنا أريد غناءها أيضًا، إنها أغنيتي. ما مطلعها؟ «يسبح باسم الرب مصدر كل النعم».»

وأنشدوها جميعًا مرة أخرى، ورفع كلٌّ من ماري وكولن صوتيهما بنبرة موسيقية قدر المستطاع، وصدح ديكون بصوته فصار عاليًا وجميلًا، وفي السطر الثاني تنحنح بِن ويذرستاف بصوت أجش وانضم إليهم في السطر الثالث بحماس بالغ حتى بدت ملامحه فظَّةً إلى حدٍّ كبير، وحين انتهوا من قول «آمين» لاحظت ماري أن ما أصابه حين علم بأن كولن ليس قعيدًا قد أصابه الآن؛ إذ اختلج ذقنه وكان يُحدِّق ويغمز وابتلَّت وجنتاه الهرمتان.

قال بصوتٍ أجش: «لم أكن أرى أي معنًى لترنيمة التسبيح والشكر من قبل، ولكن لعلي أُغيِّر رأيي مع الوقت. يُمكنني القول إنك قد زِدت خمسة أرطال في هذا الأسبوع يا سيد كولن ... خمسة أرطال!»

كان كولن ينظر إلى الجانب الآخر من الحديقة إلى شيء جذب انتباهه وتحوَّل التعبير البادي على وجهه إلى تعبير دهشة.

قال بسرعة: «مَن القادم إلى هنا؟ مَن هذا؟»

دُفع الباب في الجدار المغطى باللبلاب برفق وفُتح ودخلت منه سيدة. كانت قد دخلت مع السطر الأخير من الأغنية ووقفت في سكون تستمع وتنظر إليهم. كان اللبلاب يظهر من خلفها، وأشعة الشمس القادمة عبر الأشجار تسقط على عباءتها الزرقاء الطويلة فبدت مُرقَّطة، ووجهها الجميل النضر يبتسم عبر النباتات الخضراء، فبدت أشبه بإحدى الصور الملونة الهادئة الموجودة في كتب كولن. كان لها عينان رائعتان حنونتان بدتا تستوعبان كل شيء من حولها حتى بِن ويذرستاف و«الكائنات» وكل زهرة متفتحة. وعلى الرغم من ظهورها غير المُتوقَّع، لم يشعر أي منهم بأنها دخيلة على الإطلاق. توهَّجت عينا ديكون كمصابيح وضاءة.

صاح قائلًا: «إنها أمي، إنها هي!» وركض إليها عبر الحشائش.

بدأ كولن يتحرك نحوها أيضًا، وذهبت ماري معه. وشعر الاثنان بتسارع ضربات قلبيهما.

قال ديكون مرةً أخرى عندما التقيا في منتصف الطريق: «إنها أمي! كنتُ أعلم أنك تريد رؤيتها، وقد أخبرتها بمخبأ الباب.»

مد كولن يده بحياء وخجل ملَكي، لكن عينيه كادتا تلتهمان وجهها من التحديق فيه.

قال: «لقد أردتُ رؤيتك حتى حين كنتُ مريضًا، أنتِ وديكون والحديقة السرية. ولم أكن من قبل راغبًا في رؤية أي شيء أو أي شخص.»

تغيَّر وجهها فجأة لدى رؤية وجهه المشرق؛ فقد تورَّد واهتزت زوايا فمها وبدا كما لو أن غشاوة مرَّت على عينيها.

ثم قالت فجأة وهي ترتعد: «يا إلهي، أيها الفتى العزيز!» ثم قالت مرةً أخرى: «يا إلهي، أيها الفتى العزيز!» كما لو أنها لم تكن تدرك أنها ستقول هذا. لم تقل «سيد كولن»، بل فقط: «أيها الفتى العزيز.» على حين غِرة. ربما كانت لتقولها لديكون بالطريقة نفسها لو رأت شيئًا في وجهه أثر فيها. وقد أحب كولن هذا.

سألها: «هل أنتِ متفاجئة لأنني بخير؟» فوضعت يدها على كتفه وابتسمت واختفت الغشاوة من على عينيها. قالت: «أجل، بالفعل! لكنَّك تشبه والدتك كثيرًا وهذا جعل قلبي يقفز في صدري.»

قال كولن بشيء من الارتباك: «أتعتقدين أن هذا سيجعل والدي يحبني؟»

أجابته وهي تُربِّت على كتفه برفق: «أجل، بالتأكيد، أيها الفتى العزيز. سيعود حتمًا إلى المنزل، لا بد أن يعود.»

قال بِن ويذرستاف، وهو يقترب منها: «سوزان سويربي، انظري إلى ساقَي هذا الفتى، من فضلك. لقد كانا نحيلتين كساقَي الدجاجة منذ شهرين، وقد سمعت أناسًا يقولون إنهما ملتويتين ومقوَّستين في الوقت نفسه، ولكن انظري إليهما الآن!»

ضحكت سوزان سويربي ضحكة ارتياح.

وقالت: «ستُصبحان قويتين عما قريب؛ فليواصل لعبه في الحديقة وعمله فيها ويتناول الكثير من الطعام ويشرب الكثير من الحليب الطيب الشهي، وعندها لن يوجد في يوركشاير بأكملها ساقان أقوى من ساقيه، ونشكر الرب على هذا.»

وضعت كلتا يديها على كتفَي الآنسة ماري وتفحَّصت وجهها الصغير بعاطفة أمومة جياشة.

قالت لها: «وأنتِ أيضًا! لقد صرت قوية وبصحة جيدة مثل ابنتي إليزابيث إلين. وأنا متأكدة من أنكِ تشبهين والدتك أيضًا. فقد أخبرتْني ابنتي مارثا أن السيدة ميدلوك سمعت أنها كانت سيدة رائعة الجمال. ستُصبحين كزهرة متورِّدة حين تكبرين يا طفلتي الصغيرة، ليباركك الرب.»

لم تذكر أن مارثا حين عادت إلى المنزل في يوم إجازتها ووصفت الطفلة الصغيرة شاحبة الوجه ذات الملامح العادية، قالت إنها لا تثق على الإطلاق في أي شيء سمعته السيدة ميدلوك. وأضافت في عناد: «من غير المعقول أن تكون مثل هذه السيدة الرائعة الجمال والدة مثل هذه الطفلة الصغيرة القبيحة الشكل.»

لم يتسنَّ لماري الوقت الكافي لتنتبه كثيرًا إلى التغير الذي طرأ على وجهها. فلم تدرك إلا أن شكلها بدا «مختلفًا»، وأن شعرها صار أكثر كثافة وينمو بسرعة كبيرة. لكنها حين تذكرت سعادتها بالنظر إلى والدتها في الماضي، شعرت بسعادة بالغة حين سمعت أنها قد تشبهها ذات يوم.

تجولت سوزان سويربي في الحديقة برفقتهم وأخبروها بقصة الحديقة كاملة وجعلوها ترى كل شجيرة وكل شجرة عادت إلى الحياة. سار كولن بجوارها من جانب،

وسارت ماري على الجانب الآخر. وظل كل منهما يتطلَّع وجهها الهادئ المتورِّد، وكلاهما يتعجب سرًّا من الشعور الرائع المبهج الذي بثَّته فيهما؛ كان شعورًا بالدفء والدعم. فقد بدت تفهمهما تمامًا مثلما يفهم ديكون «كائناته». توقفت عند الأزهار وتحدثت عنها كما لو كانت أطفالًا. تبعها سوت ونعق فيها مرة أو مرتين، وطار على كتفها كما لو أنه كتف ديكون. وحين أخبروها بشأن أبي الحنَّاء ومحاولة الطيران الأولى لصغاره، ضحكت ضحكة خفيفة رقيقة حنونة لم تتجاوز حلقها.

قالت: «أعتقد أن تعليم هؤلاء الصغار الطيران يُشبه تعليم الأطفال المشي، لكني أخشى أن يتملَّكني القلق لو كان لدى أطفالي أجنحة بدلًا من السيقان.»

ولأنها بدت سيدة رائعة بأسلوبها الريفي اللطيف، أخبروها أخيرًا عن السحر.

سألها كولن بعدما حدَّثها عن الدراويش الهنود: «هل تؤمنين بالسحر؟ أتمنى هذا.»

ردَّت عليه: «أنا أؤمن به، يا عزيزي. لم أكن أعرفه بهذا الاسم أبدًا، لكن ما أهمية الأسماء؟ أنا متأكدة من أن الناس يُطلقون عليه اسمًا مختلفًا في فرنسا وآخر في ألمانيا. إن الشيء نفسه الذي جعل البذور تتفتح والشمس تسطع هو الذي جعلك فتًى معافًى وهو الشيء الجيد. إنه ليس مثلنا نحن الأغبياء المساكين الذين يرونه أمرًا جللًا ألا يُنادينا الناس بأسمائنا. فهذا الشيء الكبير الجيد لا يهتم بهذه الأشياء، باركك الرب. بل يواصل خلق ملايين العوالم الأخرى، عوالم مثلنا. لا تتوقف أبدًا عن الإيمان بهذا الشيء الكبير الجيد، ومعرفة أن العالم يزخر به، وأطلِقْ عليه ما يحلو لك من أسماء. لقد كنتَ تُغنِّي له حين دخلتُ إلى الحديقة.»

قال كولن فاتحًا عينيه الكبيرتين الجميلتين لينظر إليها: «لقد شعرتُ بسعادة غامرة. وفجأة شعرت بمدى التغير الذي حدث لي ... شعرت بمدى القوة التي دبَّت في ذراعيَّ وساقيَّ كما تعلمين ... وكيف أنني قد أصبحتُ أحفر الأرض وأقف على قدمي، كما أنني قفزت لأعلى وأردتُ الصراخ بشيء ما لأي شيء يمكنه سماعي.»

«لقد استمع إليك السحر حين أنشدت ترنيمة التسبيح والشكر. إنه يستمع لأي شيء تغنيه. أهم ما في الأمر هو الشعور بالسعادة. ما الأسماء التي يُمكن إطلاقها على صانع السعادة أيها الفتى؟»، وربَّتت على كتفه تربيتةً سريعةً حانيةً مرةً أخرى.

كانت قد أعدَّت سلة في صباح ذلك اليوم محملة بالوليمة المعتادة، وحين حانت ساعة الجوع، وأحضرها ديكون من المكان الذي يُخبئها فيه، جلست معهم تحت شجرتهم وشاهدتهم وهم يلتهمون الطعام، ويضحكون ويتعجبون من شهيتهم في فرح. كانت

سيدة مَرِحة للغاية وجعلتهم يضحكون على شتَّى أنواع الأشياء الغريبة. وحكت لهم قصصًا بلهجة يوركشاير وعلمتهم كلمات جديدة. كانت تضحك كما لو أنها لا تستطيع تمالُك نفسها من الضحك حين أخبروها عن الصعوبة المتزايدة التي يواجهونها في التظاهر بأن كولن ما زال طفلًا مريضًا مشاكسًا.

شرح لها كولن الأمر قائلًا: «كما ترَين، من الصعب علينا منْع أنفسنا من الضحك طوال الوقت تقريبًا حين نكون معًا. ولا يبدو من ضحكنا وجود أي عِلَّة بي على الإطلاق. نحن نُحاول كبحه، ولكنه يخرج رغمًا عنا ويبدو أسوأ من أي وقت.»

قالت ماري: «ثمَّة شيء واحد يَخطر ببالي كثيرًا، ولا يمكنني إخفاؤه حين يتبادر لي فجأة. أفكر دومًا فيما سيحدث لو صار وجه كولن مثل البدر. إنه لم يصل إلى هذه الدرجة بعد، ولكن وزنه يزداد قليلًا كل يوم، فماذا لو أنه في صباح أحد الأيام بدا هكذا، ماذا سنفعل حينها؟»

قالت سوزان سويربي: «ليُباركنا الرب جميعًا، أرى أنكم تجيدون التمثيل الآن، لكن لن تضطروا إلى الاستمرار في هذا طويلًا؛ فالسيد كرافن سيعود إلى المنزل.»

سألها كولن: «أتعتقدين أنه سيعود حقًّا؟ لماذا؟»

ضحكت سوزان سويربي برقة.

وقالت: «أعتقد أن قلبك سيَنفطر إن علم بالأمر قبل أن تخبره بطريقتك، وقد ظللتَ مستيقظًا لليالٍ طويلة تخطط لهذا الأمر.»

قال كولن: «لا أتحمَّل أن يخبره أي شخص آخر، وأفكر كل يوم في طرق مختلفة لأخبره، وأعتقد الآن أنني أريد فقط الدخول ركضًا إلى غرفته.» قالت سوزان سويربي: «أعتقد أن هذا سيكون مفاجأةً سارةً له. كم أرغب في رؤية وجهه حينها، يا صغيري! أريد ذلك بشدة! لا بدَّ له أن يعود، سيعود حتمًا.»

كان من الأشياء التي تحدثوا فيها الزيارة التي سيقومون بها لكوخها. فقد خططا للأمر بأكمله. سيجتازان المستنقع بالسيارة ويتناولان الغداء خارج الكوخ بين نباتات الخلنج، ويقابلان الأطفال الاثني عشر جميعًا، ويُشاهدان حديقة ديكون ولن يعودا حتى يشعرا بالتعب.

نهضت سوزان سويربي أخيرًا حتى تعود إلى المنزل وإلى السيدة ميدلوك. وكان قد حان الوقت أيضًا ليعود كولن على مقعده المتحرِّك. لكنه قبل أن يجلس في مقعده وقف بالقرب من سوزان وثبت عينيه عليها في نوع من الإعجاب الممتزج بالحيرة، وفجأة أمسك بطرف عباءتها الزرقاء وأحكم قبضته عليه.

قال لها: «أنتِ كل ما أريد، كل ما أريد؛ أتمنى لو كنتِ والدتي، مثلما أنتِ والدة ديكون!»

انحنَت سوزان سويربي فجأة وقربته بذراعيها الدافئتين نحوها واحتضنته تحت عباءتها الزرقاء، كما لو كان أخًا لديكون. وسرعان ما سادت غشاوة ضبابية على عينيها.

قالت: «يا بني العزيز، أعتقد أن والدتك موجودة معنا في هذه الحديقة. فهي لم تكن تطيق الابتعاد عنها. لا بدَّ أن والدك سيعود، سيعود بالتأكيد!»

الفصل السابع والعشرون

في الحديقة

في كل قرن منذ بداية العالم اكتُشفت أشياء رائعة. وفي القرن الأخير اكتُشفت أشياء أروع من أي قرن سابق. أما في هذا القرن الجديد، لا يزال هناك المزيد من الأشياء المذهلة سوف تخرج إلى النور. في البداية يَرفض البشر تصديق إمكانية فعل شيء جديد غريب، ثم يبدءون في تمنِّي لو أمكنهم فعله، ثم يرون أن من الممكن فعله، ثم يفعلونه ويتعجب العالم أجمع من أن هذا الشيء لم يحدث منذ قرون مضت. ولعل من الأشياء الجديدة التي بدأ البشر اكتشافها في القرن الماضي أن الأفكار — الأفكار المجردة — قد تكون في قوة البطاريات الكهربائية، وفي فائدة أشعة الشمس للإنسان، أو قد تكون في ضرر السم عليه. وفتح أبواب عقلك أمام فكرة حزينة أو سيئة في خطورة دخول جرثومة الحمى القرمزية إلى جسدك. وإن تركتها تبقى بعد دخولها، فربما لا تستطيع التغلب عليها ما حييت.

طالما كان عقل الآنسة ماري مليئًا بأفكار بغيضة عن كرهها للناس وآرائها السيئة فيهم، والإصرار على عدم شعورها بالسعادة أو الاهتمام بأي شيء؛ ومن ثَم كان وجهها مُصفرًّا وكانت طفلةً مريضةً وبائسةً وضجرةً. غير أن الظروف كانت رحيمة بها إلى أقصى مدًى، على الرغم من عدم إدراكها لهذا الأمر تمامًا. فقد ظلت تنقلها من مكان لآخر لأجل صالحها. وحين امتلأ عقلها تدريجيًّا بطيور أبي الحنَّاء، وأكواخ المستنقَع المزدحمة بالأطفال، والبستانيين العجائز ذوي الطباع السيئة والأطوار الغريبة، وخادمات يوركشاير الشابات المتواضعات الحال، وبفصل الربيع والحدائق السرية التي تعود إلى الحياة يومًا بعد يوم، وأيضًا بفتى المستنقع و«كائناته»، لم يعد للأفكار السيئة التي أثَّرت على كبدها وهضمها وجعلتها تبدو صفراء اللون ومتعبة مكان.

وطالما ظل كولن حبيس غرفته لا يفكر إلا في مخاوفه وضعفه وكرهه للناس الذين ينظرون إليه، ويفكر طوال الوقت في الحدبات والموت المبكر؛ ومن ثم كان طفلًا صغيرًا هستيريًّا على مشارف الجنون ومريضًا بوسواس المرض، لا يعرف شيئًا عن أشعة الشمس والربيع، ولم يكن يعلم أيضًا أن حالته من المُمكن أن تتحسَّن، وبإمكانه الوقوف على قدميه إن حاول. وحين بدأت أفكار جديدة جميلة تزيح الأفكار القديمة البشعة، بدأت الحياة تعود إليه، وبدأ الدم يتدفَّق بصحة في عروقه، وغمرته القوة كالفيضان. كانت تجربته العلمية عملية وبسيطة للغاية ولم يكن بها أي شيء غريب على الإطلاق. والمزيد والمزيد من الأشياء المدهشة يُمكن أن تحدث لأي شخص لديه من الحس ما يجعله يتذكَّر في الوقت المناسب، حين تتبادَر إلى ذهنه فكرة بغيضة أو مثبِّطة للهمم، ويدفعها بعيدًا من خلال وضع أفكار محببة ومشجِّعة مكانها. فلا يُمكن لشيئين أن يجتمعا في مكان واحد؛

«أينما تزرع وردة وترعاها يا صغيري،
يصعب على الأشواك أن تنمو.»

في الوقت الذي كانت فيه الحياة تعود للحديقة السرية، وتعود للطفلين أيضًا معها، كان ثمة رجل يتجوَّل في أماكن معينة جميلة بعيدة في الخلجان البحرية الصخرية النرويجية وأودية سويسرا وجبالها، وظل طوال عشر سنوات يملأ عقله بأفكار قاتمة تفطر القلوب. لم يكن يتحلَّى بالشجاعة؛ فلم يُحاول قط وضع أي أفكار أخرى محل هذه الأفكار القاتمة. تجوَّل على ضفاف البحيرات الزرقاء يتأمَّلها، واستلقى على سفوح الجبال ومن حوله تزدهر طبقات من زهور كف الذئب ذات اللون الأزرق الداكن، تعبق الهواء برائحتها وكان يتأمل كل هذا. لقد خيَّم عليه حزن شديد من بعد السعادة التي كان ينعم بها، وترك رُوحه تمتلئ بالسواد ورفض بعناد أن يدع أي لمحة من ضوء تتسلل إليه. نسي منزله وواجباته وهجرها. وحين سافر للتجول، خيمت الكآبة عليه تمامًا؛ حتى إن رؤيته كانت بمثابة خطأ يُرتكب في حق الآخرين؛ لأنه كان كمن سمَّم الهواء من حوله بالكآبة والحزن. فظن معظم الغرباء عنه أنه إما مشارف على الجنون أو رجل يخفي جريمة من نوع ما في نفسه. كان رجلًا طويل القامة وجهه مسحوبٌ وكتفاه منحنيتان، وكان الاسم الذي يُدونه دائمًا في سجلات الفنادق هو «أرتشيبولد كرافن، ضيعة ميسلثويت، يوركشاير، إنجلترا.»

سافر إلى كل أصقاع الأرض منذ التقى بالآنسة ماري في غرفة مكتبه وأخبرها بأن بإمكانها الحصول على «قطعة من الأرض». زار أجمل بقاع أوروبا، على الرغم من عدم

مكوثه في أي مكان لأكثر من بضعة أيام. وكان يختار أبعد البقاع وأكثرها سكونًا. صعد إلى قمم الجبال التي تكاد تلامس السحب، ونظر من فوقها إلى الجبال الأخرى حين أشرقت الشمس وداعبتها بأشعتها، في مشهد بدا كما لو أن العالم يولد للتوِّ.

ولكن الضوء لم يبدُ أنه قد لامسه قطُّ حتى يومٍ ما، حين أدرك أن شيئًا غريبًا قد حدث لأول مرة منذ عشر سنوات. كان في وادٍ رائع في ولاية تيرول النمساوية وكان يسير وحده عبر هذا الجَمال الذي من شأنه السمو بالروح وانتشالها من الظلام. ظل يسير لمسافة طويلة دون أن يطرأ أي تحسن على الإطلاق. لكنه أخيرًا شعر بالتعب وارتمى بجسده ليستريح على غطاء طُحلبي بجوار أحد الجداول. كان جدولًا صغيرًا صافيًا يتدفَّق بسعادة على طول مجراه الضيق عبر الخضرة الرطبة الطيبة الرائحة. وكان في بعض الأحيان يصدر صوتًا يُشبه ضحكًا خافتًا للغاية، وهو يغمر الأحجار ويتدفق من حولها. رأى الطيور وهي تأتي وتغمس رءوسها في المياه لتشرب من الجدول ثم ترفرف بأجنحتها وتطير مبتعدة. بدا المشهد نابضًا بالحياة، ومع ذلك زاد صوته الخفيض على المكان سكونًا على سكونه. فقد كان الوادي ساكنًا إلى أقصى الحدود.

وبينما هو جالس يُحدِّق في صفاء الماء الجاري، شعر أرتشيبولد كرافن تدريجيًّا بالهدوء يسري في عقله وجسده، هدوء يشبه هدوء الوادي نفسه. تساءل عما إذا كان النعاس يغالبه، لكنه لم ينم. بل جلس وحدَّق في المياه المتوهجة بأشعة الشمس، وبدأت عيناه ترى الأشياء وهي تنمو على حافة الجدول. كانت ثمة كتلة رائعة من نبات أذن الفأر زرقاء اللون تنمو على مقربة شديدة من الجدول لدرجة أن أوراقها كانت مبتلةً، ووجد نفسه ينظر إليها مثلما كان ينظر إلى مثل هذه الأشياء منذ سنوات مضت حسبما يتذكَّر. فقد كان في الواقع يفكر بحسٍّ مُرهف في مدى جمال هذه الأزهار، ومدى روعة اللون الأزرق الذي تلوَّنت به المئات من أوراقها الصغيرة. لم يكن يعلم أن مجرد هذا الفكرة البسيطة كانت تملأ قلبه ببطء، وظلت تملؤه وتملؤه حتى نحَّت الأشياء الأخرى جانبًا برفق، كما لو أن ينبوعًا عذبًا صافيًا قد بدأ يتفجَّر في بركة راكدة وظل يتمدد ويتمدد حتى جرف الماء الآسن تمامًا في النهاية. لكنه نفسه بالطبع لم يفكر في هذا. فلم يكن يدرك إلا أن الوادي يبدو أنه يزداد هدوءًا وهو جالس به يُحدِّق في زرقة أزهاره الزاهية الناعمة. لم يعلم كم من الوقت ظلَّ هناك، أو ماذا كان يحدث له، لكنه في النهاية تحرك كما لو أنه يستيقظ، ونهض ببطء ووقف على الغطاء الطُّحلبي، وأخذ نفَسًا طويلًا وعميقًا ورقيقًا، وتعجَّب من نفسه. فقد بدا كما لو أن شيئًا قد تحرَّر من القيود وانطلق بداخله، بهدوء شديد.

قال في صوت أقرب إلى الهمس وهو يمسح بيده على جبهته: «ما هذا؟ أكاد أشعر كما لو أني ... كما لو أني على قيد الحياة!»

لا أعلم ما يكفي عن روعة الأشياء التي لم تُكتشف بعد لكي أستطيع أن أفسِّر كيف حدث هذا له، ولا أي شخص آخر بعد؛ فهو نفسه لم يفهم ما حدث على الإطلاق، لكنه تذكَّر هذه الساعة الغريبة بعد تلك الواقعة بعدة أشهر حين كان في ميسلثويت مرةً أخرى، وعرف مصادفةً أنه في ذلك اليوم بالذات صاح كولن حين دخل إلى الحديقة السرية وقال: «سأعيش إلى أبد الآبدين!»

ظلَّ هذا الهدوء الفريد مصاحبًا له طوال المساء، ونام نومًا هادئًا جديدًا، لكنه لم يبقَ معه طويلًا؛ فلم يكن يعلم أن بإمكانه الاحتفاظ به. وفي الليلة التالية فتح الأبواب على مصراعيها لأفكاره القاتمة الكئيبة فعادت في حشود مُتسارعة. ترك الوادي وواصل تجواله مرةً أخرى. ولكن الغريب، كما بدا له، أنه كانت ثمَّة بضع دقائق، كانت أحيانًا ما تمتدُّ إلى نصف ساعة، يرتفع فيها العبء القاتم عنه، دون أن يدري، وكان يشعر حينها أنه إنسان على قيد الحياة ولم يمُت بعد. فببطء شديد، ولسبب مجهول له، كانت «الحياة تعود» إليه مع عودتها إلى الحديقة.

مع تحوُّل الصيف الذهبي إلى خريف ذهبي، توجه إلى بحيرة كومو، وهناك وجد جمال الأحلام. كان يمضي أيامه على مياه البحيرة الزرقاء البِلَّورية أو يعود سيرًا بين خضرة النبات الناعم الكثيف في التلال، ويظل يتجوَّل حتى يُعييه التعب حتى إنه قد ينام. ولكن في هذا الوقت أدرك أن نومه قد بدأ يتحسَّن، ولم تعد أحلامه تُسبب له ذُعرًا.

فكَّر في نفسه قائلًا: «لعل جسدي يزداد قوة.»

كان جسده يزداد قوة بالفعل، ولكن بسبب ساعات الهدوء الثمينة التي كانت أفكاره تتغيَّر فيها، كانت روحه تزداد قوة أيضًا ببطء. بدأ يُفكر في ميسلثويت ويتساءل إن كان بالضرورة أن يعود إلى المنزل.

كان يتساءل بين الآن والآخر دون تصريح بشأن ولده الصغير، وسأل نفسه عمَّا سيشعر به إن ذهب ووقف بجوار سريره المنقوش ذي الأعمدة الأربعة مرةً أخرى ونظر إلى هذا الوجه الأبيض العاجي اللون ذي الملامح الحادة وهو نائم، ورموشه السوداء تحفُّ عينيه المغلقتين على نحو مُروِّع، فارتعدت فرائصه.

في أحد الأيام الرائعة ابتعد في سيره للغاية، حتى إنه حين عاد كان القمر مكتملًا ومرتفعًا في السماء وسادت العالم بأسره ظلال أرجوانية وفضية. كان سكون البحيرة

والشاطئ والغابة رائعًا للغاية لدرجة أنه لم يدخل إلى الفيلا التي كان يُقيم فيها، بل توجَّه إلى شُرفة صغيرة محاطة بتعريشة على حافة المياه وجلس على أحد المقاعد فيها وأخذ يستنشق كل الروائح العذبة التي يعبق بها الليل. وشعر بهدوء غريب يتسلَّل إليه وظل يتوغَّل أكثر فأكثر حتى خلد إلى النوم.

لم يدرِ متى غلبه النعاس ومتى بدأ يحلم، وبدا حلمه حقيقيًّا للغاية حتى إنه لم يشعر بأنه يحلم. تذكَّر فيما بعد كم كان يظنُّ أنه يقظ ومتنبِّه إلى أبعد حدٍّ. ظن أنه بينما كان جالسًا يستنشق عبق الأزهار في وقت متأخر من الليل ويستمع إلى صوت تلاطم الماء الهادئ عند قدميه سمع صوتًا يناديه. كان صوتًا عذبًا واضحًا وسعيدًا قادمًا من بعيد. بدا له بعيدًا للغاية، لكنه سمعه بوضوح كما لو كان بجواره.

قال له: «أرتشي! أرتشي! أرتشي!» ثم بصوت أكثر عذوبة ووضوحًا من ذي قبل قال مرةً أخرى: «أرتشي! أرتشي!»

اعتقد أنه هبَّ واقفًا على قدميه دون أدنى شعور بالخوف. فقد كان الصوت حقيقيًّا للغاية وبدا طبيعيًّا تمامًا أن يسمعه.

ردَّ عليه: «ليلياس! ليلياس! ليلياس! أين أنتِ؟»

عاد الصوت كما لو كان صوتًا صادرًا من مزمار ذهبي: «في الحديقة، في الحديقة!»

وعندها انتهى الحلم، لكنه لم يستيقظ. فقد غطَّ في نوم عميق وهانئ طوال هذه الليلة الرائعة. وحين استيقظ أخيرًا كان صباحًا جميلًا وكان الخادم يقف مُحدِّقًا فيه. كان خادمًا إيطاليًّا وكان معتادًا، مثل جميع الخدم في هذه الفيلا، على تقبُّل أي شيء غريب يفعله سيده الأجنبي دون تساؤل. فلم يكن أي منهم يعرف أبدًا متى سيخرج، أو متى سيعود، أو أين سينام، أو ما إذا كان سيتجوَّل في الحديقة، أو يستلقي في قارب في البحيرة طوال الليل. كان الرجل يحمل صينية تقديم عليها بعض الخطابات وينتظر في صمت حتى أخذها السيد كرافن. حين انصرف الخادم جلس السيد كرافن بضع لحظات حاملًا هذه الخطابات في يده وينظر إلى البحيرة. لم يكن هدوءه الغريب قد فارقه وزاد عليه شيء آخر؛ شعور بالخفة كما لو أن هذا الأمر القاسي الذي حدث لم يحدث كما كان يظن، كما لو أن شيئًا قد تغيَّر. كان يتذكر الحلم، الحلم الحقيقي للغاية.

قال مندهشًا وتساءل في نفسه: «في الحديقة! في الحديقة! لكن الباب موصد والمفتاح مدفون في جوف الأرض.»

حين نظر إلى الخطابات بعد بضع لحظات رأى أن الخطاب الذي يعلوها جميعًا هو خطاب إنجليزي جاء من يوركشاير. كان مكتوبًا بخط نسائي واضح لكنه لم يكن خطًّا

معروفًا له. فتح الخطاب وهو بالكاد يفكر في كاتبه، إلا أن الكلمات الأولى لفتت انتباهه على الفور:

سيدي العزيز

أنا سوزان سويربي التي تجرأت على التحدُّث معك ذات مرة في المستنقع. وقد تحدثتُ إليك حينها عن الآنسة ماري. سأتجرأ مرةً أخرى على التحدث إليك. لطفًا يا سيدي، لو كنتُ مكانك لعدتُ إلى المنزل. أعتقد أنك ستُسر إن عدتَ، وإن سمحت لي يا سيدي، أعتقد أن السيدة زوجتك كانت ستَطلُب منك العودة لو كانت هنا.

خادمتك المطيعة

سوزان سويربي

قرأ السيد كرافن الخطاب مرتين قبل أن يعيده إلى مظروفه، وظلَّ يفكر في الحلم.

قال: «سأعود إلى ميسلثويت. أجل، سأعود على الفور.»

واجتاز الحديقة وصولًا إلى الفيلا، وأمر بيتشر بالتجهيز لعودته إلى إنجلترا.

في غضون بضعة أيام كان في يوركشاير مرةً أخرى، وطوال رحلته الطويلة بالقطار وجد نفسه يفكر في ولده الصغير كما لم يفكر فيه طوال السنوات العشر الماضية. فطوال هذه السنوات لم يكن يتمنَّى إلا أن ينسى وجوده فحسب. والآن، وعلى الرغم من أنه لم يتعمَّد التفكير فيه، كانت ذكرياته عنه تزحف على عقله باستمرار. فقد تذكَّر الأيام الحالكة التي ثار فيها كالمجنون؛ لأن الطفل كان على قيد الحياة في حين ماتت أمه. فقد رفض أن يراه، وحين ذهب للنظر إليه أخيرًا، رأى طفلًا بائسًا ضعيفًا حتى إن الجميع كانوا على يقين بأنه سيموت في غضون بضعة أيام. إلا أنه لدهشة جميع مَن تولوا رعايته، فقد مرت الأيام وعاش الطفل، ثم اعتقد الجميع بأنه سيُصبح مخلوقًا مشوَّهًا ومعاقًا.

لم يقصد أن يكون أبًا سيئًا، لكنه لم يشعر بشعور الأُبوَّة على الإطلاق. لقد وفَّر له الأطباء والممرضات وسُبل الرفاهية، لكنه أحجم عن مجرد التفكير في الطفل ودفن نفسه في مأساته. وفي أول مرة عاد فيها بعد غياب عام كامل عن ميسلثويت، رفع هذا الشيء الصغير البائس وجهه البائس في وهنٍ وفتور ورأى فيه عينين رماديتين كبيرتين تحيط بهما رموش سوداء، تُشبهان كثيرًا تلك العينين السعيدتين اللتين عشقهما على الرغم، ولم يتحمَّل رؤيتهما وانصرف ووجهه شاحب كالموتى. بعد ذلك لم يكن يراه إلا نادرًا وهو

نائم، وكل ما كان يعرفه عنه أن إعاقته قد تأكَّدت، بالإضافة إلى مزاجه السيئ الهستيري الأقرب إلى الجنون. وكان السبيل الوحيد لإبعاده عن نوبات الغضب التي تضرُّ بصحته، هو تنفيذ رغباته في كل شيء.

لم يكن تذكُّر كل هذه الأشياء مشجعًا على الإطلاق، لكن بينما كان القطار ينطلق به عبر الممرات الجبلية والسهول الذهبية بدأ الرجل الذي «عادت إليه الحياة» يفكر بطريقة جديدة، وظل يفكر طويلًا وبهدوء وعمق.

قال في نفسه: «ربما كنتُ مخطئًا طوال هذه السنوات العشر. فعشر سنوات وقت طويل، ربما يكون الوقت قد تأخر لفعل أي شيء، تأخر للغاية. ما الذي كنتُ أفكر فيه!»

بالطبع كان هذا هو السحر الخطأ ... أن يبدأ المرء بقول «متأخِّر للغاية.» حتى كولن كان يستطيع أن يقول له ذلك.

لكنه لم يكن يعلم أي شيء عن السحر، لا أسود ولا أبيض؛ فهذا ما هو على وشك تعلمه. تساءل عما إذا كانت سوزان سويربي قد تحلَّت بالشجاعة وكتبت إليه فقط لأنها أدركت بأمومتها أن الفتى قد ساءت حالته كثيرًا، والآن هو في مرض الموت. لو لم يكن الآن تحت سحر السَّكِينة الغريبة التي سيطرت عليه، لكان الآن أكثر بؤسًا من أي وقتٍ مضى. غير أن السكينة أمدَّته بنوع من الشجاعة والأمل في الوقت نفسه. وبدلًا من الاستسلام للأفكار السيئة، وجد نفسه يحاول بالفعل تصديق الأشياء الجيدة.

فكَّر في نفسه: «هل من الممكن أن تكون قد رأت أنه قد يكون بإمكاني تحسين حالته والسيطرة عليه؟ سأذهب وأقابلها في طريقي إلى ميسلثويت.»

لكنه حين أوقف عربته أمام الكوخ في طريقه عبر المستنقع، تجمع سبعة أو ثمانية أطفال الذين كانوا يلعبون في مجموعة واحدة، وبعد إلقائهم سبع أو ثمان تحيَّات ودودة ومهذبة، أخبروه أن والدتهم قد ذهبت إلى الطرف الآخر من المستنقع في وقت مبكِّر من الصباح لمساعدة سيدة جاءها مولود جديد. ثم تطوَّعوا بإخباره بأن ديكون في الضيعة يعمل في إحدى الحدائق بها حيث يذهب عدة أيام في الأسبوع.

تفحَّص السيد كرافن هذا الجمع من الأجسام الصغيرة القوية ذات الوجوه المستديرة المتورِّدة الوجنات، كلٌّ منها يبتسم بطريقته الخاصة، وتنبَّه إلى كونهم جمعًا من الأطفال المحبوبين المعافين. ابتسم لضحكاتهم الودودة وأخرج عملة ذهبية من جيبه وأعطاها لإليزابيث إلين التي كانت أكبرهم.

قال لها: «إذا قسمتِ هذه إلى ثمانية أجزاء، سيَحصُل كل منكم على نصف كراون.»

وامتطى عربته وانصرف وسط هذه الابتسامات والضحكات والانحناءات المهذبة، تاركًا خلفه سعادة بالغة وتدافُعًا بالأيدي وقفزات صغيرة من الفرح.

كانت القيادة وسط روعة المستنقع شيئًا باعثًا على الهدوء والسكينة. لماذا يبدو أنه يمنحه شعور العائد المتشوِّق إلى الوطن، وقد كان متأكدًا من أنه لن يستطيع الشعور بذلك أبدًا مرة أخرى، ذلك الشعور بجمال الأرض والسماء والأزهار الأرجوانية البعيدة، ويبثُّ الدفء في قلبه كلما اقترب من المنزل الكبير القديم الذي ضم أسلافه طوال ستمائة عام بين جنباته؟ كم كان يرتعد من التفكير في الغُرف المغلقة والطفل الصغير المستلقي في السرير ذي الأعمدة الأربعة، الذي تتدلَّى منه الستائر المُطرَّزة عندما غادره آخر مرة. هل من الممكن أن يجده قد تغيَّر إلى الأفضل قليلًا، وأنه ربما يتغلب على شعوره بالانكماش منه؟ كم بدا هذا الحلم حقيقيًّا، وكم بدا هذا الصوت الذي ردَّ عليه «في الحديقة، في الحديقة!» رائعًا وواضحًا.

قال: «سأحاول العثور على المفتاح، سأُحاول فتح الباب. لا بدَّ أن أفعل هذا، مع أني لا أعرف السبب.»

حين وصل إلى الضيعة، لاحظ الخدم، الذين استقبلوه بالمراسم المعتادة، أنه يبدو أفضل حالًا، وأنه لم يذهب إلى الغرف البعيدة التي يبقى فيها عادةً ويخدمه بيتشر. فقد ذهب هذه المرة إلى المكتبة وأرسل في طلب السيدة ميدلوك، التي جاءت إليه في حماس وفضول وارتباك إلى حدٍّ ما.

سألها: «كيف حال السيد كولن، يا ميدلوك؟» ردَّت السيدة ميدلوك: «حسنًا يا سيدي، لقد ... لقد صار مختلفًا، إن جاز التعبير.»

سألها: «أصار أسوأ حالًا؟»

احمرَّ وجه السيدة ميدلوك بشدة.

حاولت أن تشرح له فقالت: «حسنًا يا سيدي، لم نعدْ نستطيع لا أنا ولا الطبيب كرافن ولا الممرضة تفسير حالته بالضبط.»

«لماذا هذا؟»

«في الواقع، يا سيدي، إن السيد كولن ربما يكون قد تغيَّر للأفضل وربما يكون قد تغير للأسوأ. فشهيتُه يا سيدي لم تعد مفهومة على الإطلاق، وتصرفاته ...»

سألها سيدها مقطِّبًا حاجبيه في قلق: «هل أصبح أكثر غرابة؟»

«هذا هو التفسير يا سيدي. إنه يزداد غرابة مع الوقت، حين تقارنه بما كان عليه من قبل. فقد اعتاد عدم تناول أي شيء، ثم فجأة بدأ يأكل بشراهة، ثم توقَّف مرةً أخرى

فجأةً، وأصبحت الوجبات تعود إلى المطبخ كما هي. وعلى الأرجح أنك لم تعلم يا سيدي أنه صار يخرج من المنزل ولا يدع أحدًا يُرافقه. فالأشياء التي مررنا بها حتى نُقنعه بالخروج من المنزل في مقعده المتحرك تجعل جسد المرء يرتعد كورقة في الهواء. فقد كان يدخل في حالة جعلت الطبيب كرافن يقول إنه لن يتحمَّل مسئولية إجباره على الذهاب. بعدها يا سيدي، وبدون سابق إنذار، بعد وقت ليس طويلًا على واحدة من أسوأ نوبات غضبه، إذ به فجأةً يُصرُّ على الخروج من المنزل كل يوم بصحبة الآنسة ماري وديكون ابن سوزان سويربي، ليدفعه في مقعده. لقد صار يحب كلًّا من الآنسة ماري وديكون، كما أحضر ديكون حيواناته الأليفة إلى هنا، ويمكنك القول يا سيدي إنه يقضي اليوم بأكمله خارج المنزل من الصباح حتى المساء.»

جاء سؤاله التالي: «كيف يبدو؟»

«لو كان يتناول طعامه على نحو طبيعي، لظننتُ أن وزنه قد بدأ يزيد، لكننا نخشى أن يكون هذا نوعًا من الانتفاخ. وفي بعض الأحيان يضحك بأسلوب غريب حين يكون بمفرده مع الآنسة ماري، في حين أنه لم يكن يضحك من قبل على الإطلاق. سيأتي الطبيب كرافن لمقابلتك على الفور، إن سمحت له بهذا؛ فهو لم يتعرض لمثل هذه الحيرة من قبل في حياته.»

سألها السيد كرافن: «أين السيد كولن الآن؟»

«في الحديقة يا سيدي. إنه في الحديقة طوال الوقت، على الرغم من أنه لم يكن مسموحًا لأي مخلوق بشري بالاقتراب منه خشية أن ينظروا إليه.»

سمع السيد كرافن كلماتها الأخيرة بالكاد.

فقد قال: «في الحديقة!» وبعدما أمر السيدة ميدلوك بالذهاب، وقف وكرَّر العبارة مِرارًا وتكرارًا: «في الحديقة!»

كان عليه أن يبذل جهدًا ليعود إلى المكان الذي كان يقف فيه وحين شعر بأنه يقف على الأرض مرةً أخرى، استدار وخرج من الغرفة. اتَّخذ طريقه، كما فعلت ماري، عبر الباب بين الشجيرات وسار بين ورق الغار وأحواض الأزهار حول النافورة. كانت النافورة تعمل الآن وكانت محاطة بأحواض من أزهار الخريف الخلَّابة. عبر المرج وانعطف إلى الممشى الطويل بجوار الأسوار المغطاة باللبلاب. لم يكن يسير سريعًا، بل كان يسير ببطء واضعًا عينيه على الطريق أمامه. شعر كما لو أن شيئًا ما يُعيده إلى المكان الذي هجره منذ وقت طويل، ولم يدرِ سببًا لهذا. ومع اقترابه منه بدأت خطواته تتثاقل أكثر. لقد كان

يعرف مكان الباب بالرغم من تدلي غطاء كثيف من اللبلاب عليه، لكنه لم يكن يعرف بالضبط أين يقبع المفتاح المدفون.

لهذا توقف ووقف ساكنًا ينظر حوله وبعد لحظة تقريبًا من توقفه انتفض مجفلًا وشرع يُنصت ويسأل نفسه عمَّا إذا كان يسير داخل حلم.

كان اللبلاب متدلِّيًا بكثافة على الباب، والمفتاح مدفونًا تحت هذه الشجيرات، ولم يمر إنسان عبر هذا المدخل طوال عشر سنوات من العزلة، ومع هذا سمع أصواتًا من داخل الحديقة. كانت أصوات أقدام تركض كأنما تُطارد بعضها تحت الأشجار، كانت أصواتًا غريبة لأصوات خفيضة مكتومة؛ صرخات وصيحات مبتهجة مكبوتة. في الواقع بدا الأمر أشبه بضحكات أطفال صغار، ضحكات لا يمكن التحكم فيها لأطفال يُحاولون ألا يسمعهم أحد، لكنهم للحظة أو نحو ذلك، مع تصاعد حماسهم، انفجروا في الضحك. ما هذا الذي يحلم به بحق السماء، ما هذا الذي يسمعه بحق السماء؟ هل يفقد عقله ويعتقد أنه يسمع أشياء لا يُمكن لبشر سماعها؟ هل هذا ما كان يقصده الصوت البعيد الواضح؟

ثم جاءت اللحظة، لحظة فقدان التحكم، حين نسيت الأصوات إسكات نفسها. صارت الأقدام تركض أسرع وأسرع، وكان الصوت يقترب من باب الحديقة، ثم صدر صوت أنفاس صغيرة قوية ومتسارعة وانفجار جامح من الضحك لا يُمكن احتواءه، ثم فُتح الباب في السور على مصراعيه، وتأرجح ستار اللبلاب إلى الخلف، واندفع صبي صغير عبر الباب بأقصى سرعته، ودون أن يرى الدخيل، اندفع حتى كاد يدخل بين ذراعيه.

مدَّ السيد كرافن ذراعيه في الوقت المناسب لإنقاذ الفتى من السقوط نظرًا لاندفاعه نحوه دون النظر أمامه، وحين دفعه بعيدًا لينظر إليه بدهشة نظرًا لوجوده في هذا المكان، لم يستطع التقاط أنفاسه.

كان فتًى طويل القامة وجميلًا، يشع بالحياة وبث ركضُه لونًا رائعًا في وجهه. أزاح خصلات شعره الكثيفة من على جبهته وأعادهما إلى الخلف، ورفع عينيه الرماديتين الغريبتين، وكانتا عامرتان بضحكة صبيانية وتُحدُّهما رموش سوداء كثيفة رائعة. كانت هاتان العينان هما ما أعجزا السيد كرافن على التنفس. قال متلعثمًا: «مَن … ماذا؟ مَن!»

لم يكن هذا ما توقَّعه كولن … لم يكن هذا ما خطَّط له. فلم يخطر له قط مثل هذا اللقاء؛ أن يأتي مندفعًا هكذا، وقد فاز بسباق مع رفيقيه … ربما كان هذا حتى أفضل. انتصب في وقفته ليبلغ أقصى طول له. ورأت ماري، التي كانت تركض معه واندفعت عبر

الباب أيضًا، أنه استطاع أن يجعل نفسه يبدو أطول ممَّا بدا في أي وقت مضى، ببضع بوصات.

قال: «أبي، أنا كولن. أرى أنك لا تُصدق هذا، ولا أنا أيضًا، لكني أنا كولن.»

ومثل السيدة ميدلوك، لم يفهم كولن قصد والده حين قال بسرعة: «في الحديقة! في الحديقة!»

قال كولن سريعًا: «أجل، لقد كان هذا من فِعل الحديقة، وماري وديكون والكائنات، والسحر. لا يعلم أحد بالأمر. فقد أخفيناه حتى أُخبركَ حين تعود. لقد تحسَّنت صحتي، ويمكنني التغلب على ماري في أي سباق. سأصبح بطلًا رياضيًّا.»

قال كلَّ هذا مثل أي طفل يتمتَّع بالصحة؛ فتورَّد وجهه، وتداخلت كلماته مع بعضها في غمرة لهفته، ما جعل روح السيد كرافن تَنتفِض بسعادة لم يكد يصدقها.

مدَّ كولن يده ووضعها على ذراع والده وأضاف قائلًا: «ألست سعيدًا يا أبي؟ ألست سعيدًا؟ فأنا سأعيش إلى الأبد والأبد!»

وضع السيد كرافن كلتا يديه على كتفَي الفتى وثبَّته في مكانه. فقد كان يعلم أنه لا يجرؤ على الكلام ولو للحظة حتى لو حاول.

وأخيرًا قال: «خذني إلى داخل الحديقة، يا بني، وأخبرني بكل ما حدث.»

فأرشدوه جميعًا إلى الطريق.

كان المكان غابةً برِّيةً تنبض بألوان الذهبي والأرجواني والأزرق المائل للبنفسجي والقرمزي الناري الخريفية، وفي كل ركن منها كانت توجد حزم من أزهار السوسن أزهرت مؤخرًا تقف بارزة معًا، إمَّا بيضاء أو ذات لون أبيض ممتزج مع الأحمر الياقوتي. كان يتذكَّر جيدًا حين زُرعت أولى هذه الأزهار أن هذا الوقت من السنة هو موسم إزهارها وتألُّقها. كذلك تسلقت ورود أزهرت مُؤخَّرًا الأشجارَ وتدلت منها واتخذت شكل عناقيد، وزادت أشعة الشمس اللون الأصفر للأشجار اصفرارًا، مما جعل المرء يشعر بأنه يقف داخل معبد محاط بالذهب. وقف الوافد الجديد صامتًا تمامًا مثلما فعل الأطفال حين دخلوا إلى الحديقة وسط ذبولها الرمادي، وظل ينظر حوله في كل مكان.

قال: «ظننتُ أنها قد ماتت.»

قال كولن: «هذا ما اعتقدتْه ماري في البداية، لكن الحياة عادت إليها.»

ثم جلسوا جميعًا تحت شجرتهم، كلهم ما عدا كولن، الذي أراد أن يظل واقفًا وهو يروي القصة.

رأى أرتشيبولد كرافن أن هذا أغرب شيء سمعه على الإطلاق، وهو يتدفَّق من أفواههم بأسلوب صبياني متسارع. فالغموض والسحر والكائنات، ولقاء منتصف الليل الغريب، وحلول الربيع، والغضب من إهانة الكبرياء التي دفعت الأمير الصغير إلى الوقوف على قدميه ليتحدَّى العجوز بِن ويذرستاف في وجهه. وكذلك الصُّحبة الغريبة، والتمثيل، والتكتُّم الشديد على هذا السر العظيم. ضحك المستمع حتى اغرورقت عيناه بالدموع، وأحيانًا ما كانت تغرورق دون ضحك. فهذا البطل الرياضي، والمحاضر، والمُستكشِف العلمي لم يكون إلا فتًى يافعًا مضحكًا ومحبوبًا ويتمتَّع بصحة جيدة.

قال في نهاية قصته: «والآن، لا داعيَ لإبقاء الأمر سرًّا بعد الآن. أعتقد أن الأمر سيُصيبهم بالذعر حين يرونني، لكني لن أعود أبدًا للجلوس على هذا المقعد. سأعود معك إلى المنزل سائرًا على قدميَّ، يا أبي.»

نادرًا ما كانت مهام بِن ويذرستاف تُبعده عن الحدائق، لكنه في هذا الوقت كان قد استأذن ليحمل بعض الخضراوات إلى المطبخ ودعته السيدة ميدلوك إلى بهو الخدم ليشرب كوبًا من الجِعَة؛ ومن ثمَّ كان في موقع الحدث، كما تمنَّى دومًا، وقت وقوع أعظم حدث درامي يشهده الجيل الحالي في ضيعة ميسلثويت. فقد كانت إحدى النوافذ تطل على فناء المنزل وتظهر أيضًا لمحة من المرج. ونظرًا لعلم السيدة ميدلوك أن بِن قد جاء من منطقة الحدائق، فقد كانت تأمل أن يكون قد لمح سيدَه والتقى مصادفةً بالسيد كولن.

سألته: «هل رأيت أيًّا منهما يا ويذرستاف؟»

أنزل بِن كوب الجعة من على فمه ومسح شفتيه بيده من الخلف، ورد عليها بأسلوب فيه دهاء واضح: «أجل رأيتهما.»

سألته السيدة ميدلوك: «كلاهما؟»

قال لها بِن ويذرستاف: «أجل كلاهما. شكرًا جزيلًا لك يا سيدتي؛ بإمكاني احتساء كوب آخر.»

قالت السيدة ميدلوك بسرعة وهي تعيد ملء كوبه في حماس: «معًا؟»

قال بِن وهو يتجرَّع نصف كوبه الجديد جرعة واحدة: «معًا، يا سيدتي.»

«أين كان السيد كولن؟ وكيف بدا؟ وماذا قال كلٌّ منهما للآخر؟»

قال بِن: «لم أسمع هذا؛ فقد كنتُ أقف على السُّلم النقَّال أنظر من فوق السور. ولكني سأخبرك بهذا؛ ثمَّة الكثير من الأشياء كانت تحدث بالخارج أنتم يا أهل المنزل لم تعلموا عنها شيئًا، وستعرفينها قريبًا.»

ولم تمضِ دقيقتان حتى كان يبتلع آخر رشفة من جعته ويشير بالكوب بوقار نحو النافذة التي تُظهر جزءًا من المرج عبر الشجيرات.

قال: «انظري هناك إن كان ينتابك الفضول. انظري مَن القادم عبر الحشائش.»

حين نظرت السيدة ميدلوك رفعت يدَيها وصرخت صرخة قصيرة جعلت كل خادم وخادمة في مرمى السمع يندفعون عبر بهو الخدم ووقفوا ينظرون عبر النافذة وأعينهم تكاد تقفز من رءوسهم.

فقد رأوا عبر المرج سيد ميسلثويت قادمًا وقد بدا كما لم يبدُ من قبل لكثير ممن رأوه من قبل. وبجواره يسير ورأسه إلى السماء وعيناه يملؤهما الضحك في قوة وثبات كأي فتًى في يوركشاير ... السيد كولن.

هنداوي